﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾

طريق المساكين إلى مرضاة رب العالمين

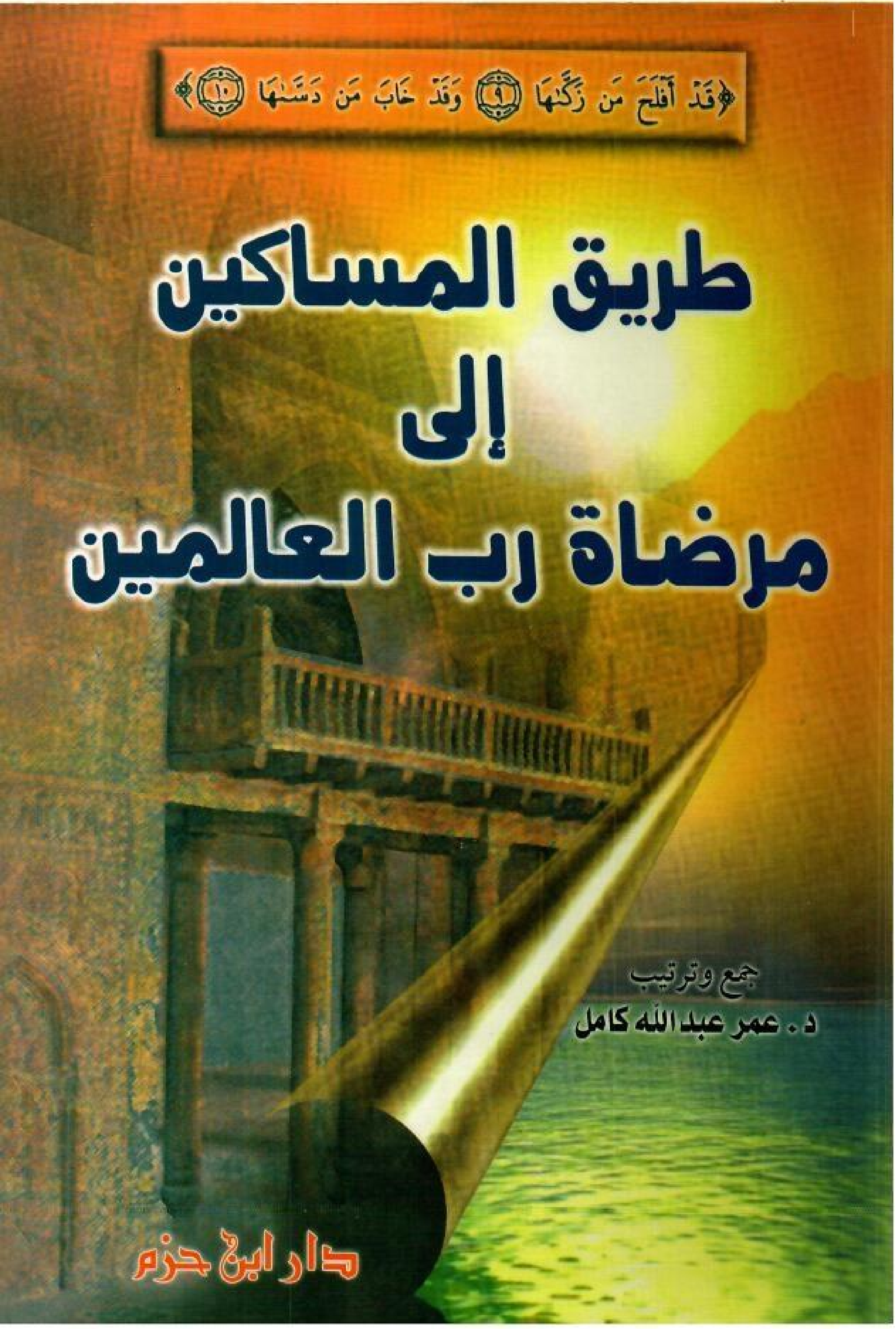

جمع وترتيب

د. عمر عبد الله كامل

دار ابن حزم

طريق المساكين
إلى
مرضاة رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾

طريق المساكين
إلى
مرضاة رب العالمين

جمع وترتيب
د. عمر عبد الله كامل

دار ابن حزم

ⓒ عمر عبدالله كامل، ١٤٢٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
كامل، عمر عبدالله
طريق السالكين إلى مرضاة رب العالمين - جدة
...ص، ...سم
ردمك: ٧-٦٨٨-٤١-٩٩٦٠
١-الإسلام - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٢١٠،٨ ٢٦٩٤/٢٣
رقم الإيداع: ٢٦٩٤/٢٣
ردمك: ٧-٦٨٨-٤١-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله دائم النعم ودافع النقم، والصلاة والسلام على هادي الأمم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فقد قال رسول الله ﷺ: **«اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين»**.

فليس المسكين قليل المال، ولكن المسكين من يستشعر عبوديته لله وضعفه وحاجته لله.

فقد كان من الأنبياء ملوك ما شغلهم الملك ولا الجاه ولا المال عن الانكسار لله تعالى.

لذلك جمعت في هذا الكتاب زبد كتب السلوك وأعمال القلوب بين دفتيه مختصراً موجزاً لما لأعمال القلوب من أهمية. فالنية رأس كل عمل ومحلها القلب فأعمال الجوارح بحاجة إلى عمل القلب، فما بالك بأعمال القلوب الخالصة لكونها بين العبد وربه، هذا مع غفلة الكثير من الناس عنها وعدم اكتراثهم بها.

فهذا الكتاب في الأخلاق وأعمال القلوب أحببت أن أذكر به ناقلاً ما استفدته من الكتب العديدة التي قرأتها على مدى طويل من عمري راجياً

إفادة القارئ نفع الله به الكاتب والقارئ والسامع، وقد رتبته على شكل وقفات حتى تسهل قراءته منجماً فتعم الفائدة.

وجعلت رأس الأمر كله التوحيد والإخلاص لله تعالى، فالشرك أخفى من دبيب النمل، وكثيراً ما يداخل الإنسان من هذه الوقفات التي أشرت إليها.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الإخلاص في العمل، وأن يكون عملنا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعل قلوبنا متعلقة به سبحانه وتعالى موحدة مخلصة له إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين.

الموقف الأول:
التوحيد

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

فالتوحيد هو الحكم بأن الله تعالى واحد، وأنه أحدي الذات.

وقال بعض أهل التحقيق: معنى أنه واحد نفي القسيم لذاته، ونفي التشبيه عن حقه وصفاته، ونفي الشريك معه في أفعاله ومصنوعاته، وسئل الجنيد عن التوحيد، فقال: إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته، بكمال أحديته، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير.

وسئل الجنيد عن توحيد الخاص، فقال: أن يكون العبد شبحاً بين يدي الله سبحانه، تجري عليه تصاريف تدبيره، في مجاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وعن دعوة الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجوده، ووحدانيته في حقيقة قربه، بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون، وسئل علي البوشنجي عن التوحيد، فقال: غير مشبه الذات ولا منفي الصفات.

سئل سهل بن عبدالله عن ذات الله عزَّ وجلّ، فقال: ذات الله تعالى موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا،

وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حدّ ولا إحاطة ولا حلول، وتراه في العقبى ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلّهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وقال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحانه من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته، إلا بالعجز عن معرفته.

وقال يوسف بن الحسين: توحيد الخاصة أن يكون بسره ووجده وقلبه، كأنه قائم بين يدي الله تعالى، تجري عليه تصاريف تدبيره وأحكام قدرته، في بحار توحيده بالفناء عن نفسه، وذهاب حسه، بقيام الحق سبحانه له في مراده منه، فيكون كما قيل أن يكون في جريان حكمه سبحانه عليه، وقال رديم بن أحمد: التوحيد محو آثار البشرية، وتجرد الألوهية.

ويقال: من الناس من يكون في توحيده مكاشفاً بالأفعال، يرى الحادثات بالله تعالى. ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة فيضمحل إحساسه بما سواه، فهو يشاهد الجمع سراً بسر، وظاهره بوصف التفرقة[1].

وحدّ الحق عزّ وجلّ حتى لا يبقى في قلبك من جميع الخلق ذرة، كل الدواء في التوحيد للحق عزّ وجلّ، وفي الإعراض عن حية الدنيا. . . يا مدعياً بغير بينة كم تدعي التوحيد وأنت مشرك، يا غلام متى يصفو قلبك ويصفو سرك وأنت مشرك بالخلق؟ كيف يصفو قلبك وهو فارغ من التوحيد ما فيه ذرة منه؟ التوحيد نور والشرك بالخلق ظلمة، أنت محجوب عن الخالق بالخلق، محجوب بالأسباب عن المسبب، محجوب بالتوكل على الخلق والثقة بهم.

(يا غلام) عليك بخويصة نفسك عند ضعف إيمانك ما عليك من أهلك وجارك وجارتك وأهل بلدك وإقليمك فإذا قوي إيمانك فابرز إلى

(١) الرسالة القشيرية: (٢٩٨ ـ ٣٠٢).

أهلك وولدك ثم إلى الخلق لا تبرز إليهم إلا بعد أن تتدرع بدرع التقوى وتترك على رأس قلبك خوذة الإيمان وبيدك سيف التوحيد وفي جعبتك سهام إجابة الدعاء وتركب حصان التوفيق وتتعلم الكر والفر والضرب والطعام ثم تحمل على أعداء الحق عزّ وجلّ فحينئذ تجيئك النصرة والمعونة من جهاتك الست وتأخذ الخلق من أيدي الشيطان وتحملهم إلى باب الحق عزّ وجلّ، تأمرهم بعمل أهل الجنة وتحذرهم من عمل أهل النار.

إذا دعوت الخلق ولست على باب الحق عزّ وجلّ كان دعاؤك لهم وبالاً عليك كلما تحركت بركت، كلما طلبت الرفعة اتضعت، ما عندك من الصالحين خبر، أنت لقلقة، أنت لسان بلا جنان، جولة بلا صولة، سيفك من خشب، وسهامك من كبريت[1].

(١) الفتح الرباني: (٢٧٩ ـ ٢٨١).

الموقف الثاني:
الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال جلَ شأنه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣].

وقال أيضاً عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «**أخلص دينك يكفك القليل من العمل**»(١).

وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول: «**يا نفس أخلصي وتخلَصي**».

وقال أبو سليمان: «طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى».

وقد جرى العرف على تخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص(٢)، وقد تنوعت عبارتهم في «**الإخلاص**» و«**الصدق**» والقصد واحد.

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

(٢) بغية الطالبين، من إحياء علوم الدين - (٣٩٢ - ٣٩٣).

فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة.

وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين.

وقيل التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك. و«**الصدق**» التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص. ولا يتمان إلا بالصبر.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره، وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء. والعمل من أجل الناس: شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما.

قال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد. لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده. ولا هوى فيميله. وقيل لسهل: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها فيه نصيب.

وقال بعضهم الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهداً غير الله، ولا مجازياً سواه. وقال مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

وقال أبو سليمان الداراني: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

ـ أما الهروي فجعل الإخلاص: تصفية القلب من كل شوب، وأول درجاته عنده: إخراج رؤية العمل عن العمل. والخلاصُ من طلب العوض على العمل. والنزول عن الرضا بالعمل، فيعرض للعامل في عمله ثلاث آفات: رؤيته وملاحظته، وطلب العوض عليه، ورضاه به وسكونه إليه، ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية. فالذي يخلصه من رؤية عمله: مشاهدته لمنة الله عليه، وفضله وتوفيقه له. وأنه بالله لا بنفسه، وأنه إنما أوجب

عمله مشيئة الله لا مشيئته هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. [التكوير:٢٩]، فهنا ينفعه شهود الجبر، وأنه آلة محضة، وأن فعله كحركات الأشجار، وهبوب الرياح، وأن المحرك له غيره، والفاعل فيه سواه، وأنه ميت ـ والميت لا يفعل شيئاً ـ وأنه لو خلى ونفسه لم يكن من فعله الصالح شئ البتة.

فالخير الذي يصدر منها: إنما هو من الله، وبه. لا من العبد، ولا به. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١] وقال أهل الجنة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف:٤٣] وقال تبارك وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الآية [الحجرات:٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته، وإحسانه ونعمته. وهو المحمود عليه.

والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه: أمران:

أحدهما: مطالعة عيوبه وآفاته، وتقصيره فيه، وما فيه من حظ النفس، ونصيب الشيطان.

الثاني: علمه بما يستحقه الرب جل جلاله: من حقوق العبودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقاً، وأن يرضى بها لربه. فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه، ولا يرضى نفسه لله طرفة عين. ويستحيي من مقابلة الله بعمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله: يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه، وقيل: لابد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود.

فمن إخلاص العابد: «خجله» من عمله. وهو شدة حيائه من الله. إذ لم ير ذلك العمل صالحاً له، مع بذل مجهوده فيه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون:٦٠] قال

النبي ﷺ: **«هو الرجل يصوم، ويصلي، ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه»**. فالمؤمن: جمع إحساناً في مخافة الله، وسوء ظن بنفسه. والمغرور: حسن الظن بنفسه مع إساءته.

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

وقال: من لم يحفظ القرآن، ويكتب الحديث: لا يُقتدى به في طريقنا هذا؛ لأن طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة، وقال: علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

واعلم أن المعرفة الصحيحة: هي روح العلم، وأن العلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة[1]، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا يغلَ عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين»**[2].

قال الأستاذ القشيري: الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى.

سُئل النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: **«سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سرّ من سري استودعته قلب من أحبيته من عبادي»**[3].

وقال ذو النون المصري: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين - (٣٢٢ - ٣٢٥).

(٢) أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير.

(٣) أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفة.

وقال أبو عثمان الحيري: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق. وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقال الجنيد: الإخلاص سر بين الله والعبد، ولا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله.

وقال رويم: الإخلاص من العمل هو الذي لا يريد صاحبه عليه عوضاً من الدارين، ولا حظاً من الملكين[(١)].

ـ يا غلام عليك الإخلاص في العمل، اعمل لوجه الله عزَّ وجلّ لا لنعمه، كن من الذين يريدون وجهه، اطلب وجهه حتى يعطيك فإذا أعطاك ذلك حصل لك الجنة في الدنيا والآخرة، في الدنيا القرب منه وفي الآخرة النظر إليه والجزاء لموعوده بيع وضمان، مت عن متابعة نفسك وهواك وطبعك وعاداتك وعن متابعة الخلق وأسبابهم وآيس منهم واترك الشرك بهم وعن طلب شيء سوى الحق عزَّ وجلّ، اجعل أعمالك كلها لوجه الله عزَّ وجلّ لا لطلب نعمه، ارض بتدبيره وقضائه وأفعاله فإذا فعلت هذا فقد متَّ عن نفسك وحييت به سبحانه وتعالى، يصير قلبك مسكنه، يقلّبه كيف يشاء يصيّره في كعبة قربه.

افهموا ما أقول واعملوا به، الفهم بلا عمل لا يساوي شيئاً، العمل بلا إخلاص طمع فارغ، الطمع كل حروفه فارغة مجوفة ليس فيها شيء، لو صبرت مع الله عزَّ وجلّ لرأيت عجائب من لطفه[(٢)].

❀ ❀ ❀

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٠٧ ـ ٢٠٩).

(٢) الفتح الرباني (٨١، ١٠٩، ١٦١).

الموقف الثالث:
الإيمان واليقين

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾. [البقرة: ٤].

عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا ترضين أحداً بسخط الله تعالى، ولا تحمدن أحداً على فضل الله عزّ وجلّ، ولا تذمن أحداً على ما لم يؤتك الله تعالى، فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهة كاره، وإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**»(١).

وقال أبو عثمان الحيري: اليقين قلة الاهتمام بالغد.

وقال سهل بن عبدالله: اليقين من زيادة الإيمان، ومن تحقيقه، وقال أيضاً: اليقين شعبة من الإيمان، وهو دون التصديق.

وقال سهل بن عبدالله: ابتداء اليقين المكاشفة، ولذلك قال بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، ثم المعاينة، ثم المشاهدة.

وقال أبو عبدالله بن خفيف: اليقين تحقق الأسرار بإحكام المغيّبات.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (كنز العمال: ١٦٠/٣).

سمعت محمد بن الحسين يقول قال بعضهم: أول المقامات المعرفة ثم اليقين ثم التصديق ثم الإخلاص ثم الشهادة ثم الطاعة. والإيمان اسم يجمع هذا كله.

وقال سهل بن عبدالله: حرام على القلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلى غير الله تعالى.

وقال ذو النون المصري: اليقين داع إلى قصر الأمل، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة، والحكمة تورث النظر في العواقب، وثلاثة من أعلام يقين اليقين: النظر إلى الله تعالى في كل شيء، والرجوع إليه في كل أمر والاستعانة به في كل حال.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب، ولا يتحول، ولا يتغير في القلب.

وقيل: اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان، وقيل: اليقين زوال المعارضات.

سئل السري عن اليقين، فقال: اليقين سكونك عند جولان المراد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً[1].

إن الإيمان يزيد وينقص يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هذا في حق العوام، وأما الخواص فيزيد إيمانهم بخروج الخلق من قلوبهم وينقص بدخولهم إليها، يزيد بسكونهم إلى الله عزَّ وجلّ وينقص بسكونهم إلى غيره، على ربهم يتوكلون وبه يثقون وإليه يستندون ومنه يخافون وإليه يرجعون.

المؤمن إذا قوي إيمانه سُمي موقناً، ثم إذا قوي إيقانه سُمي عارفاً، ثم إذا قويت معرفته سُمي عالماً، وإذا قوي علمه سُمي محباً، وإذا قويت محبته سُمي محبوباً، وإذا صح له ذلك سُمي غنياً مقرباً مستأنساً يستأنس بقرب الله

---

(١) الرسالة القشيرية: (١٧٨ ـ ١٨١).

عزّ وجلّ يطلعه على أسرار حكمه وعلمه وسابقته ولاحقته وأمره وقدره ويكون ذلك على قدر موصلاته وما يعطيه من قوة قلبه وسعته.

(يا غلام) إذا أحكمت الإيمان وصلت إلى دار المعرفة ثم إلى وادي العلم ثم إلى وادي الفناء عنك وعن الخلق ثم إلى الوجود به لا بك ولا بهم فحينئذ يزول حزنك، فالحفظ يخدمك والحمية تحوطك والتوفيق يطرق بين يديك والملائكة تمشي حولك والأرواح تأتيك تسلم عليك والحق عزّ وجلّ يباهي بك الخلق ونظراته ترعاك وتجذبك إلى دار قربه والأنس به والمناجاة له.

(يا غلام) تحتاج إلى إيمان يسيرك في طريق الحق عزّ وجلّ، وإلى إيقان يثبتك فيها، تحتاج في أول سلوكك في هذا الطريق إلى هميان(*) وفي آخره إلى إيمان[١].

❀❀❀

(*) الهميان: الحزام الذي يشد به الوسط وتوضع في داخله النقود.

(١) الفتح الرباني: (١٢٦، ١٣٩، ٢٧٢، ٢٣٧).

الموقف الرابع:
التقوى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

حدثنا أبو سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أوصني، فقال: **«عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»**(١).

يقول سهل بن عبدالله: لا معين إلا الله، ولا دليل إلا رسول الله، ولا زاد إلا التقوى، ولا عمل إلا الصبر. وقال النصر آباذي: من التزم بالتقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا، لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقيل: يُستدل على تقوى الرجل بثلاثة أشياء: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر على ما قد مضى.

يقول أبو الحسين الزنجاني: من كان رأس ماله التقوى كلّت الألسن عن وصف ريحه، وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سادة الناس في الدنيا الأسخياء، وسادة الناس في الآخرة الأتقياء.

حدثنا أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: **«من نظر إلى محاسن امرأة، فغض بصره في أول مرة، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه»**(٢).

---

(١) رواه ابن الضريس عن أبي سعيد (كنز العمال ١٥/٨٦٤).

(٢) مسند أحمد (٥/٢٦٤).

وقال رويم: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى، قال الله تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(1) [الزمر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وهي وصية الله عزَّ وجلّ في الأولين والآخرين. وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ [الدخان: ٥١]، لأن التقوى: إنما كان أصلها الخوف والحذر من الله تعالى، وكذلك يقول الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠].

فليكن أول ما تبدأ به من العُدَة لذلك المقام تقوى الله عزَّ وجلّ، في السر والعلانية، ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، وما تركهم اللطيف في الدنيا، مع ما يعطيهم في الآخرة، حتى أنار لهم قلوبهم، وأعز لهم أنفسهم، وأغناهم به عن خلقه ونعَّمَهم بطاعته، فألزم قلوبهم مع الخوف منه حسن الظن به، والأنس إلى رجائه.

فقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، فهل على من كان الله عزَّ وجلّ معه بالنصر والمعونة ضيم أو خذلان؟ إذ كان أنسهم بالله جلَّ وعزَّ وحده استكمالاً لمناجاته، فعنده يضعون بثوثهم، وإليه يفزعون في حوائجهم، وقد اتخذوه حرزاً وجُنَّة وكهفاً؛ وثقوا به دون خلقه، وانقطعوا إليه عزَّ وجلّ عن كل قاطع يقطعهم عنه، فاستوحشوا حين استأنس الناس استيحاشاً من الخلائق واستئناساً بربهم.

فهذه مواريث التقوى، لأنها أساس العمل، وأصل الطاعة.

---

(١) الرسالة القشيرية (١٠٤ ـ ١٠٩).

قلت: فما التقوى؟.

قال: الحذر بالمجانبة لما كره الله عزّ وجلّ.

قلت: الحذر من ماذا؟.

قال: الحذر من الله تعالى.

قلت: (فالحذر من الله) في ماذا؟.

قال: في خصلتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حرم الله ونهى عنه في السر والعلانية. وتجمع ذلك خصلتان: القيام بما أوجب الله عزّ وجلّ لله، وترك ما نهى الله عزّ وجلّ عنه لله تبارك وتعالى، وكذلك يُروى: أن الفتنة لما وقعت قال طلق بن حبيب: اتقوها بالتقوى. فقال له بكر بن عبدالله المزني: صف لنا التقوى، فقال:

التقوى: أن تعمل بطاعة الله عزّ وجلّ، على نور من الله عزّ وجلّ، ترجو ثواب الله عزّ وجلّ. والتقوى: ترك معاصي الله على نور من الله عزّ وجلّ، مخافة عقاب الله عزّ وجلّ.

فالتقوى أول منزلة العابدين، وبها يدركون أعلاها، وبها تزكوا أعمالهم؛ لأن الله عزّ وجلّ، لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهُهُ.

(قال الحارث رحمه الله): يا أخي فلتكن التقوى من بالك، فإنها رأس مالك، والنوافل بعد ذلك ربحك، وليس بتاجر عاقل ولا حصيف لبيب من يعد له ربحاً دون أن يكمل رأس ماله[(١)].

عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن واثقاً بما في يد الله أوثق على ما في يده»[(٢)].

---

(١) الرعاية لحقوق الله (٣٤ ـ ٤٣).

(٢) مسند الشهاب ٢٣٤/١.

من أحب الكرامة دنيا وآخرة فليتق الله عزَّ وجلّ لأنه قال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

الكرامة في تقواه والمهانة في معصيته، ومن أحب القوة في دين الله عزَّ وجلّ فليتوكل على الله عزَّ وجلّ؛ لأن التوكل يصحح القلب ويقويه ويهذبه ويهديه ويريه العجائب، لا تتكل على درهمك ولا دينارك وأسبابك فإن ذلك يعجزك ويضعفك وتوكل على الله عزَّ وجلّ فإنه يقويك ويعينك ويلطف بك ويفتح لك من حيث لا تحتسب ويقوي قلبك، ولا تبال بمجيء الدنيا وذهابها بإقبال الخلق وإدبارهم فحينئذ تكون أقوى الناس، وإذا توكلت على مالك وجاهك وأهلك وأسبابك فقد تعرضت لمقت الله عزَّ وجلّ ولزوال هذه الأشياء لأنه غيور لا يحب أن يرى في قلبك غيره، ومن أحب الغنى في الدنيا والآخرة فليتق الله عزَّ وجلّ دون غيره وليقف على بابه ويستحي منه أن يأتي باب غيره ويغمض عينيه عن النظر إلى غيره أعني عيني القلب لا عيني القالب، كيف تثق بما في يديك وهو معرض للزوال وتترك الثقة بالله عزَّ وجلّ وهو لا يزول، جهلك به يحملك على الثقة بغيره، ثقتك به كل الغنى، ثقتك بغيره كل الفقر.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

هذه الآية غلقت باب الاتكال على الأسباب، غلقت باب الأغنياء والملوك وفتحت باب التوكل، من يتقيه يجازيه بأن يجعل له فرجاً ومخرجاً مما ضاق على الناس.

(يا غلام) إذا كنت متقياً لربك عزَّ وجلّ ذاكراً له موحداً له مشيراً إليه قبل بلائك فإذا وقعت في باب البلاء قال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾.

قال ﷺ: **«أنا والأتقياء من أمتي براء من التكلف»**(١).

---

(١) أخرجه الدارقطني عن الزبير بن العوام بسند ضعيف.

التقي لا يتكلف عبادة الحق عزّ وجلّ لأنها صارت طبعه، فهو يعبد الله بظاهره وباطنه من غير تكلف منه. وأما المنافق فهو في كل أحواله متكلف ولا سيما في عبادة الحق عزّ وجلّ يتكلفها ظاهراً وباطناً.

عليكم بالاتباع من غير ابتداع، عليكم بمذهب السلف الصالح. امشوا في الجادة المستقيمة اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا تطبع ولا تشدد ولا تشدق ولا بعقل يسعكم ما وسع من كان قبلكم.

(يا غلام) إن أردت أن لا يبقى بين يديك باب مغلق فاتق الله عزّ وجلّ فإنها مفتاح لكل باب ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

حقيقة التقوى فعل ما أمرك الله عزّ وجلّ بفعله وترك ما أمرك بالله بتركه والصبر على أفعاله ومقدوراته وسائر بلاياه وآفاته أنتم خلق كلي، نفس كلي، هوى كلي، غيبة كلية، طبع كلي، ما عندكم من الله عزّ وجلّ ولا من العارفين به خبر. (وهو يقصد استيلاء النفس بعوارضها على الإنسان مما يشغله عن ربه).

عن بعضهم رحمة الله تعالى عليه أنه قال: حقيقة التقوى أنك لو جمعت ما في قلبك وتركته في طبق مكشوف وطفت به في السوق لم يكن فيه شيء يستحي منه، يا جاهل ما يكفيك أنك غير متق حتى إذ قيل لك اتق الله تغضب، إذا قيل لك الحق تسمع وتتهاون ثم إذا أنكر عليك منكر تغتاظ عليه تشفي غيظك منه.

عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: من يتق الله لا يشفى غيظه قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه: «كنت أحبكم لما أطعتموني، فلما عصيتموني بغضتكم».

الحق عزّ وجلّ يحبكم لا لحاجة إليكم بل رحمة لكم فهو يحبك لك لا له، يحب طاعتك له لأن نفعها عائد إليكم، عليك بالاشتغال

والإقبال على من يحبك لك والإعراض عمن يحبك له، المؤمن نسي كل شيء وذكر مولاه عزَّ وجلّ فحصل له قربه والحياة به ومعه صح توكله فلا جرم[1].

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني (٢٥، ٤٦، ١٧٢، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٩٧).

الموقف الخامس:
التوكل على الله

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه، ومضمون كفاية الله ملابسه، فمن كان الله تعالى حسبه وكافيه ومحبه ومراعيه: فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يُعذب ولا يُبعد ولا يُحجب.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**[1].

وقال بعضهم: **«متى رضيت بالله وكيلاً، وجدت إلى كل خير سبيلاً»**. والتوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات.

الأولى: أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، فيصدق بها اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهو اعتقاد العامة.

---

(١) مسند الشهاب (٣١٩/٢) برقم: ١٤٤٤ عن عمر بن الخطاب.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هو الفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، والتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية.

وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجُهّال، فإن ذلك حرام في الشرع. وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وسعي العبد باختياره، إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار، أو لدفع ضار لم ينزل به كدفع السارق والسباع، أو لإزالة ضار قد نزل به كالتداوي من المرض.

فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة، وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه، وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هو من فعل البطالين الذي آثروا الراح، وتعللوا بالتوكل.

وعن عمر رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم.

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٣٤٧ ـ ٣٥٥).

ومن أسمائه ﷻ «المتوكل» وتوكله أعظم توكل وقد قال الله له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾ [النمل: ٧٩] وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله، واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به.

وفي الصحيحين - في حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب - «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**».

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حسبنا الله ونعم الوكيل. قالها إبراهيم ﷺ، حين ألقي في النار. وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. [آل عمران: ١٧٣].

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ كان يقول «**اللهم لك أسلمت وبك آمنت. وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت. اللهم إني أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت: أن تضلني. أنت الحي الذي لا يموت. والجن والإنس يموتون**».

والتوكل نصف الدين. والنصف الثاني «**الإنابة**» فإن الدين استعانة وعبادة. فالتوكل، هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة. بل هو محض العبودية وخالص التوحيد، إذا قام به صاحبه حقيقة.

ولله در سهل بن عبدالله التستري إذ يقول: العلم كله باب من التعبد. والتعبد كله باب من الورع. والورع كله باب من الزهد، والزهد كله باب من التوكل، ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها. ولا تزال معمورة بالنازلين، لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، فأهل السموات والأرض - المكلفون وغيرهم - في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم. فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك.

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي. ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح. ولا هو من باب العلوم والإدراكات.

ومن الناس: من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: هو علم القلب بكفاية الرب للعبد. ومنهم: من يفسره بالسكون. وخمود حركة القلب. فيقول: التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار.

قال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم: من يفسره بالرضا. فيقول: هو الرضا بالمقدور.

وقيل: التوكل هجر العلائق، ومواصلة الحقائق.

واعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سبباً. ولا جعل دعاءه سبباً لنيل شيء، فقد وقع في الوهم الباطل، فإن الله سبحانه وتعالى قضى بحصول الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو.

فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل: عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها. فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها. وحال بدنه قيامه بها.

فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه. والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه

وقدره. فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل. ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده. بل حقيقة التوكل: توحيد القلب. فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول. وعلى قدر تجريد التوحيد: تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه. فنقص من توكله بقدر ذهاب تلك الشعبة.

والتوكل اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه. ويلبسه السكون إلى مسببها. وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها. ولا يضطرب قلبه، ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره.

ومن درجات التوكل: حسن الظن بالله عزّ وجلّ. فعلى قدر حسن ظنك بربك ورجائك له. يكون توكلك عليه. ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

ومن درجاته: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته. وهذا معنى قول بعضهم: التوكل إسقاط التدبير. يعني الاستسلام لتدبير الرب لك.

ومن درجاته: التفويض.

وهو روح التوكل ولُبه وحقيقته. وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلباً واختياراً، لا كرهاً واضطراراً. فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة. انتقل منها إلى درجة «الرضا». وهي ثمرة التوكل. ومن فسر التوكل: بها. فإنما فسره بأجل ثمراته، وأعظم فوائده. فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله.

و«التوكل» من أعم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى. فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات.

فله تعلق باسم «الغفار والتواب، والعفو، والرؤوف، والرحيم» وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن» وتعلق باسم «المعز، المذل، الحافظ، الرافع، المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء.

«القدرة، والإرادة» وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى. ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله.

وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل. وكلما كان بالله أعرف، كان توكله عليه أقوى. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين. وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين. وكما يحب التوابين.

وأخبر: أن كفايته لهم مقرونة بتوكلهم عليه، وأنه كاف من توكل عليه وحسبه، وجعل لكل عمل من أعمال البر، ومقام من مقاماته جزاء معلوماً.

وجعل جزاء المتوكل وكفايته عليه. فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٤ - ٥] وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩] ثم قال في التوكل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله لغيره. وهذا يدل على أن التوكل أقوى السبل عنده وأحبها إليه. ولما كان الأمر كله لله عزّ وجلّ، وليس للعبد فيه شيء البتة، كان توكله على الله تسليم الأمر من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن تصرفه بنفسه، وحوله وقوته، وكونه به، إلى تصرفه بربه، وكونه به سبحانه دون نفسه[1].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٣٣٥ - ٣٤٤).

قال أبو علي محمد الروذباري: قلت لعمرو بن سنان: احك لي عن سهل بن عبدالله حكاية، فقال: إنه قال علامة المتوكل ثلاث: لا يسأل ولا يرد ولا يحبس.

وقال سهل بن عبدالله: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عزَّ وجلَّ كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير.

واعلم أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، وإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره.

عن أنس بن مالك قال: جاء رجل على ناقة له فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال: «**اعقلها وتوكل**»[1].

وسُئل يحيى بن معاذ: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله تعالى وكيلاً. وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل، فقال: أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

يقول أبو نصر السراج الطوسي: شرط التوكل ما قاله أبو تراب النخشبي وهو طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، إن أُعطي شكر، وإن مُنع صبر.

سُئل ذو النون المصري: ما التوكل؟ فقال: خلع الأرباب وقطع الأسباب، فقال السائل: زدني، فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية.

وسُئل أبو عبدالله القرشي عن التوكل فقال: التعلق بالله تعالى في كل حال، فقال السائل: زدني فقال: ترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك.

---

(١) سنن الترمذي: (٦٦٨/٤) برقم: (٢٥١٧).

وقال أحمد بن مسروق: التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام.

يقول أبو عثمان سعيد الحيري: التوكل الاكتفاء بالله تعالى مع الاعتماد عليه.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين، فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص الخواص. وكان يقول: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ.

وقيل: التوكل نفي الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك.

وقيل: التوكل الثقة بما في يد الله تعالى، واليأس عما في أيدي الناس.

وقيل: التوكل فراغ السر عن التفكر في التقاضي في طلب الرزق[1].

(عن سفيان الثوري) رحمة الله عليه أنه أول ما طلب العلم كان على وسطه هميان فيه خمسمائة دينار ينفق منه ويتعلم ويدق عليه بيده ويقول: لولاك لتمندلوا بنا، فلما حصل له العلم وعرف الحق عزَّ وجلّ أنفق ما بقي معه على الفقراء في يوم واحد وقال: لو أن السماء حديد لا تمطر والأرض صخر لا تنبت واهتممت برزقي في الطلب إني كافر. عليك الكسب والتعلق بالسبب إلى أن يقوى إيمانك. ثم انتقل من السبب إلى المسبب: الأنبياء عليهم السلام اكتسبوا وافترضوا وتعلقوا بالأسباب في أول أمرهم وفي الآخر توكلوا.

عليك بالله عزَّ وجلّ لا تتكل على الخلق ولا على كسبك وحولك

---

(١) الرسالة القشيرية (١٦٣ - ١٦٩).

وقوتك، اتكل على فضل الله عزَّ وجلّ، اتكل على الذي أقدرك على الكسب ورزقك إياه، فإذا فعلت ذلك سيرك معه وأراك عجائب قدرته وسابقته، يوصل قلبك إليه ثم يذكره بعد الوصول إليه أيامه السالفة كما يتذاكر أهل الجنة في الجنة أيام الدنيا. إذا خرقت شبكة السبب وصلت إلى المسبب، إذا خرقت العادة خرقت لك العادة، من خدم يُخدم، من أطاع يُطاع، من أكرم يُكرم، من تقرب قُرب، من تواضع رفع، من أحسن الأدب قرب، حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك، حسن الأدب طاعة الله وسوء الأدب معصيته.

(ويحك) من أطعمك وأنت طفل في بطن أمك، أنت معتمد عليك وعلى الخلق ودنانيرك ودراهمك وعلى بيعك وشرائك وعلى سلطان بلدك، كل من اعتمدت عليه فهو إلهك وكل من خفته ورجوته فهو إلهك، كل من رأيته في الضر والنفع ولم تر أن الحق عزَّ وجلّ مجرى ذلك على يديه فهو إلهك عن قليل ترى خيرك.

يأخذ الحق عزَّ وجلّ منك سمعك وبصرك وبطشك ومالك وجميع ما اعتمدت عليه دونه، ويقطع بينك وبين الخلق، ويقسي قلوبهم عليك ويقبض أيديهم عنك، ويعزلك عن شغلك ويغلق الأبواب في وجهك، يردك من باب إلى باب ولا يعطيك لقمة ولا ذرة، وإذا دعوته فلا يجيبك، كل ذلك لشركك به واعتمادك على غيره وطلبك نعمه من غيره واستعانتك بها على معصيته.

لا تتكلموا على الأسباب وتشركوا بها وتعتمدوا عليها فيغضب عليكم الحق عزَّ وجلّ الذي هو مسبب الأسباب الخالق لها المتصرف فيها، اعتقاد المتبعين لكتاب الله عزَّ وجلّ وسنة رسوله ﷺ. إن السيف لا يقطع بطبعه بل الله عزَّ وجلّ يقطع به، وإن النار لا تحرق بطبعها بل الله عزَّ وجلّ المحرق بها، وإن الطعام لا يشبع بطبعه بل الله عزَّ وجلّ يشبع به، وإن الماء لا يروي بطبعه بل الله عزَّ وجلّ المروي به، وهكذا جميع الأسباب على اختلاف أجناسها؛ الله عزَّ وجلّ المتصرف فيها وبها، وهي آلة بين يديه

يفعل بها ما يشاء، إذا كان هو الفاعل على الحقيقة فلم لا ترجعون إليه في جميع أموركم وتتركون حوائجكم وتلزمون التوحيد له في جميع أحوالكم؟ أمره ظاهر لا يخفى على كل عاقل:

العبد يضرب بالعصا والحر تكفيه الإشارة(١)

---

(١) الفتح الرباني (٩٢، ١٢٦، ١٩٦، ٢٥٩).

الموقف السادس:
الخوف من الله

وهي من أجل منازل الطريق، وأنفعها للقلب. قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿فَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

و«الوجل» و«الخوف» و«الخشية» و«الرهبة» ألفاظ متقاربة غير مترادفة. قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس.

وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام. وهذا سبب الخوف. لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره.

و «الخشية» أخص من الخوف. فإن الخشية للعلماء بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فهي خوف مقرون بمعرفة. وقال النبي ﷺ **«إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية»**(١).

فالخوف حركة. والخشية انجماع، وانقباض وسكون. فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك: له حالتان.

---

(١) صحيح ابن حبان: (٣٠٩/٨) برقم (٣٥٣٨) بلفظ: وأخشاكم له.

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه. وهي الخشية.

وأما الرهبة: فهي الإمعان في الهرب من المكروه.

وأما «الوجل» فرجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو لرؤيته.

وأما «الهيبة»: فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة.

والإجلال: تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين. والخشية للعلماء العارفين. والهيبة للمحبين. والإجلال للمقربين. وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية. كما قال النبي ﷺ **«إني لأعلمكم بالله. وأشدكم له خشية»** وفي رواية **«خوفاً»** وقال **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى»**[1].

فصاحب الخوف: يلتجئ إلى الهرب. والإمساك، وصاحب الخشية: يلتجيء إلى الاعتصام بالعلم. ومثلهما مثل من لا علم له بالطب. ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب. والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء.

قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه. وقال: الخوف سراج في القلب، به يبصر ما فيه من الخير والشر. وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عزّ وجلّ، فإنك إذا خفته هربت إليه.

فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

قال أبو سليمان: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب. وقال إبراهيم بن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين وصححه برقم (٣٨٨٣): ٢/٥٥٤.

سفيان: إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها. وطرد الدنيا عنها. وقال ذو النون: الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف. فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق.

والخوف ليس مقصوداً لذاته. بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل. ولهذا يزول بزوال المخوف فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

والخوف يتعلق بالأفعال. والمحبة تتعلق بالذات والصفات. ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم. ولا يلحقهم فيها خوف. ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه. والخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عزَّ وجلَّ.

وقال الشيخ الهروي رحمه الله: «الخوف: هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر».

يعني الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد.

قال: «وأول الخوف: الخوف من العقوبة، وهو الخوف الذي يصح به الإيمان. وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية، ومراقبة العاقبة».

وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ ـ ٢٧].

«الإشفاق» رقة الخوف. وهو خوف يرحمه من الخائف لمن يخاف عليه. فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة. فإنها ألطف الرحمة وأرقها.

وبدايته: إشفاق على النفس أن تجمع إلى العناد، أو أن تسرع وتذهب

إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية. ثم هو إشفاق على العمل أن يصير إلى الضياع. فيخاف على عمله أن يكون من الأعمال التي قال الله فيها ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣].

وأوسطه: إشفاق على الوقت: أن يشوبه تفرق.

أي يحذر على وقته أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله عزَّ وجلّ، وعلى القلب أن يزاحمه عارض.

ونهايته: إشفاق يصون سعيه عن العجب، ويكف عن مخاصمة الخلق، ويحمل صاحب الإرادة على حفظ الجد.

فالعجب يفسد العمل كما يفسده الرياء. فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والمخاصمة للخلق: مفسدة للخُلُق. فيشفق على خلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه.

والإرادة: يفسدها عدم الجد. وهو الهزل واللعب، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته: استقام سلوكه وقلبه وحاله. والله المستعان[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالى، حتى يلج اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد أبداً»**[(٢)].

والخوف من الله تعالى أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى في الدنيا أو في الآخرة، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه، فقال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥] وقال تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]،

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٦٩ ـ ٢٧٤).

(٢) أخرجه الرافعي عن أنس (كنز العمال ٣/١٤٨).

ومدح المؤمنين بالخوف، فقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة. فالخوف: من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

والخشية: من شروط العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. والهيبة: من شروط المعرفة، قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف أن لا تعلل نفسك بعسى وسوف.

سمعت أبا عمر الدمشقي يقول: الخائف من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان.

وقال يحيى بن معاذ: مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة.

وقال أبو القاسم الحكيم: من خاف من شيء هرب منه، ومن خاف من الله عزّ وجلّ هرب إليه.

وقال بشر الحافي: الخوف ملك لا يسكن إلا في قلب متقٍ

وسمعت أبا سليمان الداراني يقول: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسولَ الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا. ولكن هم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[1].

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٤) وصححه الحاكم.

وقال عبدالله بن المبارك: إن الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب هو دوام المراقبة في السر والعلانية.

قال إبراهيم بن شيبان: إذا سكن الخوف في القلب أحرق مواضع الشهوات منه، وطرد رغبة الدنيا عنه.

وقال الحسين بن منصور: من خاف من شيء غير الله عزَّ وجلّ أو رجاه أغلق عليه أبواب كل شيء وسلط عليه المخافة، وحجبه بسبعين حجاباً أيسرها الشك، وإن مما أوجب شدة خوفهم تفكيرهم في العواقب وخشية تغير أحوالهم، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤]، فكم من مغبوط في أحواله انعكست عليه الحال، ومُني بمقارفة قبيح الأفعال، فبُدل بالأنس وحشة وبالحضور غيبة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله ينشد:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وقال حاتم الأصم: لا تغتر بموضع صالح، فلا مكان أصلح من الجنة، فلقي آدم عليه السلام فيها ما لقي، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي؟ (حيث كفر)، ولا تغتر برؤية الصالحين[(١)].

وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه.

---

(١) الرسالة القشيرية (١٢٥ ـ ١٣٠).

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية**»[1].

وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

ومن ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعاً، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

الخوف سوط الله تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

إن مقامات الخائفين تختلف. فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة.

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر. ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة. فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهو خوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة (وسبق تخريجه).

قال رسول الله صلى عليه وسلم: قال عزّ وجلّ: **«وعزتي وجلالي، لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا، أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة»**[1].

وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول: «بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسته الدموع».

ولذلك قال عليّ كرم الله وجهه: «من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات».

والخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق.

والثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين.

قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وصفاته سبحانه وتعالى تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم. وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: «المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر».

قال الله تعالى في صفة الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠]. بلغنا أن من حملة العرش من تسيل عيناه مثل الأنهار، فإذا رفع رأسه قال: سبحانك ما تُخشى حق خشيتك، فيقول الله: «لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك».

وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل: **«مالي لا أرى ميكائيل يضحك؟»، فقال جبريل: «ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار»**[2].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد من رواية ثابت عن أنس بإسناد جيد.

وكان رسول الله ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر: «ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشراً».

وقال أبو ذرّ رضي الله عنه: «وددت لو أني شجرة تعضد».

وقال عثمان رضي الله عنه: «وددت أني إذا مت لم أبعث».

وقالت عائشة رضي الله عنها: «وددت أني كنت نسياً منسياً».

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفر وتغير. فيقال له: مالك؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟».

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: «والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن أنا عصيته؟!».

وقال أحمد بن حنبل رحمة الله عليه: «سألت ربي عزّ وجلّ أن يفتح علي باباً من الخوف، ففتح فخفت على عقلي، فقلت: يا رب على قدر ما أطيق. فسكن قلبي»(١).

وكذلك وصف الله الذين فهموا ذلك عنه وخافوه، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠]، فأخبر عزّ وجلّ أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى.

وقال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

فأخبر أن ما غاب عنهم من العقاب هم له خائفون، ولما رجاهم من الغيب هم له راجعون، وأنهم لما خافوا ورجوا هربوا وطلبوا، وإنما جعل الجزاء من العقاب والثواب والرهبة والرغبة من الله تعالى، ليذلوا للمجازي،

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٣١٦ ـ ٣٣٠).

فيعبدوه بالخضوع له والذلة ليورثهم في الآخرة النعيم والعز.

فلما خافوا هربوا وجانبوا ما نهاهم عنه كما وصفهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤].

قلت: فبم يُنال الخوف والرجاء؟.

قال: تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد.

قلت: فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟.

قال: بالتخويف من شدة العذاب والترجي لعظيم الثواب.

قلت: وبم يُنال التخويف؟.

قال: بالذكر والفكر في العاقبة؛ لأن الله عزَّ وجلَّ قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوفه ورجاه لن يخاف ولم يرج إلا بالذكر والفكر؛ لأن الغيب لا يُرى بالعين، وإنما يُرى بالقلب في حقائق اليقين. فإذا احتجب العبد بالغفلة عن الآخرة، واحتجب عنها بأشغال الدنيا لم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه.

وقد أخبر الله أن أولياءه اجتلبوها بذلك، وقال: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ إلى قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٢].

قرأ النبي ﷺ هذه الآية في جوف الليل فقال: **«ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته فلم يتفكر فيها»**، وصلى وبكى عامة ليله، فقيل له في ذلك، فقال: **«أنزلت علي هذه الآيات، فأخبر الله تعالى: أنهم لما تفكروا وتذكروا عظم عليهم خزي دخول النار فخافوا النار، ثم ناجوه بأن يفكهم من النار ومن خزي يوم الحساب؛ لأنهم لما رجوا النجاة بمنته أقبلوا إليه بالتضرع أن ينجيهم من خزي ذلك اليوم»**.

فالذي ينال به الخوف، معرفة عظيم قدر العذاب، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب التخويف، والتخويف ينال بالفكر في المعاد، والفكر ينال بالذكر، والذكر بالتيقظ من الغفلة لأن الله عزّ وجلّ إنما خوّفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجّانا لنرجّيها.

قال الحارث رحمه الله: يا أخي، فإني أحذرك ونفسي مقاماً عنت فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذل فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة، والخضوع لرب العالمين وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك في حكمه، جمعهم بعد طول البلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً أمْره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعد للسؤال جواباً وللجواب صواباً، فإنه لا يصدّق إلا الصادقين، ولا يكذّب إلا الكاذبين[1].

احذروا منه فإن أخذه أليم شديد، يأخذكم من مأمنكم من عافيتكم من أشركم من بطركم، خافوا منه فهو إله السماء وإله الأرض، احفظوا نعمة الشكر قابلوا أمره ونهيه بالسمع والطاعة، قابلوا العسر بالصبر واليسر بالشكر. قوموا من موائد معاصيه، وكلوا من موائد طاعته واحفظوا حدوده إذا جاءكم اليسر فاشكروه، وإذا جاءكم العسر فتوبوا من ذنوبكم وناقشوا أنفسكم فإن الحق عزّ وجلّ ليس بظلّام للعبيد. اذكروا الموت وما وراءه وتنبهوا إلى متى هذا النوم.

الدائرة على الخوف من الله عزّ وجلّ والخشية له، إذا لم يكن لك خوف منه لا أمن لك في الدنيا والآخرة، الخشية من الله عزّ وجلّ هي العلم بعينه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) الرعاية لحقوق الله (٦٢ ـ ٦٥، ٣٦).

ما يخشى الله عزّ وجلّ إلا العلماء العمال بالعلم الذي يعلمون ويعملون يريدون محبته والخلاص من بعده وحجابه. قوم يخشون الله عزّ وجلّ بالغيب وهو غائب عن عيون ظواهرهم، حاضر نصب عيون قلوبهم، كيف لا يخافونه وهو كل يوم في شأن يغير ويبدل ينصر هذا ويخذل هذا يحيي هذا ويميت هذا يقبل هذا ويرد هذا يقرب هذا ويبعد هذا ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

اللهم قربنا إليك ولا تباعدنا عنك.

اجتهد أن لا يبقى شيء في الدنيا تحبه. إذا تم هذا في حقك لا تترك مع نفسك لحظة إن نسيت ذكرت وإن غفلت أوقظت، لا يدعك تنظر إلى غيره في الجملة من ذاق هذا فقد عرفه، قلوبهم حزينة منكسرة بين يدي الحق عزّ وجلّ لا يزالون خائفين وجلين كلما كشف قناع جلاله وعظمته لقلوبهم ازداد خوفهم، تكاد قلوبهم تنقطع وأوصالهم تنفصل، فإذا رأى منهم ذلك فتح أبواب رحمته وجماله ولطفه والرجاء فيسكن ما بهم.

والحق عزّ وجلّ أهل أن يُخاف ويُرجى ولو لم يخلق جنة ولا ناراً، أطيعوه طلباً لوجهه، ما عليكم من عطائه وعقابه، طاعته في امتثال أمره والانتهاء عن نهيه والصبر مع أقداره، توبوا إليه، ابكوا بين يديه، ذلوا له بدموع أعينكم وقلوبكم، البكاء عبادة وهو مبالغة في الذل.

كن عاقلاً ولا تكذب تقول أنا خائف من الله عزّ وجلّ وأنت تخاف من غيره، لا تخف جنياً ولا أنسياً ولا ملكاً. العاقل لا يخاف لومة لائم في جانب الله عزّ وجلّ.

لا تتهم ربك عزّ وجلّ في فعله، نفسك أولى بالتهم واللوم من غيرها.

رؤي سفيان الثوري رحمة الله عليه في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: وقفني بين يديه وقال لي: يا سفيان أما علمت أني غفور رحيم بكيت ذلك البكاء كله من خوفي أما استحييت مني؟.

ما أوقحك على الله عزَّ وجلّ، ما أقل خوفك منه ما أكبر تهاونك برؤيته، عن النبي ﷺ أنه قال: **«خف من الله عزَّ وجلّ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».**

أهل اليقظة رأوا الله عزَّ وجلّ بقلوبهم فاجتمع شتاتها، انسكبت فصارت شيئاً واحدة تتساقط الحجب بينهم وبينه، محيت المباني وبقيت المعاني، تقطعت الأوصال وانخلعت الأرباب فلم يبق لهم سوى الحق عزَّ وجلّ.

احذر من الحق عزَّ وجلّ، غض عينيك عن النظر إلى المحرم، واذكر نظر من لا تبرح من نظره وعلمه، إذا لم تناظر الحق عزَّ وجلّ ولم تنازعه تمت عبوديتك له وصرت عبداً حقاً وتدخل في زمرة من قال في حقهم:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

على قدر تعظيمك لله عزَّ وجلّ يعظمك خلقه على قدر حبك له يحبك خلقه، على قدر خوفك منه يخافك خلقه، على قدر احترامك لأوامره ونواهيه يحترمك خلقه، على قدر تقريبك منه يتقرب إليك خلقه، على قدر خدمتك له يخدمك خلقه، ذكر الموت دواء لأمراض النفوس ومقمعة على رأسها.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

أما أنت يا عامي فيحذرك الله عذابه، وأنت يا خاص فيحذرك الله نفسه، ويا خاص الخاص يحذرك الله به تقليباته، يحذرك يا عامي أن يأخذ سمعك وبصرك وقواك ومالك، وأهلك ثم ينقلك إلى الآخرة فتؤاخذ، ويا خاص الخاص يحذرك منه فكن على قدم الحذر حتى لا تغفل يسار الحق سرك يقول له: إني أنا الله لا تخف ولا تحذر، إذا تم هذا كلما تقدمت إلى الخوف يمنعك، كلما تكدر أمنك بالخوف صفاه، إذا تمت صحة القلب لا يضره ملك ما بين السماء والأرض[١].

❀ ❀ ❀

---

(١) الفتح الرباني (١٦، ٣٦، ٣٧، ٥٤، ٨٨، ١٢١، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٣٢، ٣٥٤).

الموقف السابع:
التسليم لله والانقياد له

(يا قوم) سلموا الأمور إلى الحق عزّ وجلّ فهو أعلم بكم منكم، انتظروا فرجه فإن من ساعة إلى ساعة فرجا، اخدموا الحق عزّ وجلّ واستفتحوا بابه وأغلقوا أبواب الخلق فإنه يريكم عجائب ما ليس في حسابكم.

(ويحك) إن أراد الله عزّ وجلّ أن ينفعك على أيدي الخلق نفعك، وإن أراد أن يضرك على أيديهم كان ذلك هو المسخر والملين والمقسي لقلوبهم، هو المحيي والمميت، والمعطي والمانع، هو المعز والمذل، هو الممرض والمعافي، وهو المشبع والمجوّع، هو المكسي والمعري، هو المحسن والموحش، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، كل ذلك هو لا غيره، اعتقد هذا بقلبك وأحسن معاشرة الخلق بظاهرك، وهذا شغل الصالحين المتقين، يتقون الله عزّ وجلّ في جميع أحوالهم، ويدارون الخلق يحدّثونهم بما يعقلون بقلوبهم بخلق حسن، بخلق الكتاب والسنة ويأمرونهم بما فيهما؛ فإن قبلوا شكروهم على ذلك وإن خرجوا منهما فلا يبقى بينهم وبينهم صداقة ولا محاباة، يتواقحون على الخلق في أمر الله عزّ وجلّ ونهيه، اجعل قلبك مسجداً لا تدع مع الله أحداً كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨].

عمارة قلب العبد بالإسلام، ثم بالتحقيق في حقيقته وهي الاستسلام، سلم كلك إلى الحق عزّ وجلّ يسلم إليك نفسك وغيرك.

كان الجنيد رحمة الله عليه يقول في معظم أوقاته: أي شيء على مني؟ العبد وما يملك لمولاه كان قد سلم نفسه إلى ربه عزّ وجلّ وأزال اختياره ومزاحمته ورضي بتولي قدره له، صلح قلبه واطمأنت نفسه فعمل بقوله:

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦].

كان الفضيل بن عياض رحمة الله عليه إذا لقي سفيان الثوري يقول له تعال حتى نبكي في علم الله عزّ وجلّ فينا. ما أحسن هذا الكلام، هذا كلام عارف بالله عزّ وجلّ عالم به وبتصاريفه، ما علم الله الذي أشار إليه؟ هو قوله «هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي» وخلط الكل موضعاً واحداً فلا يدري من أي القبيلين هو؟ القوم لم يغتروا بما ظهر من أعمالهم لأن الأعمال بخواتيمها. قد صارت الملوك لكثير من الخلق آلهة، قد صارت الدنيا والغنى والعافية والحول والقوى آلهة، ويحكم جعلتم الفرع أصلاً، المرزوق رازقاً، المملوك مالكاً، الفقير غنياً، العاجز قوياً.

اجتهد أن لا تكون أنت بل يكون هو، اجتهد أن لا تتحرك في دفع الضر عنك ولا جلب النفع إليك فإنك إذا فعلت ذلك أقام الحق عزّ وجلّ إليك من يخدمك وينحي الأذى عنك، كن معه كالميت مع الغاسل وكأهل الكهف مع جبريل عليه السلام، كن معه بلا وجود ولا اختيار ولا تدبير في الجملة. اثبت بين يديه على قدمي إيمانك ونفسك وقت نزول أثقال أقضيته وأقدراه، الإيمان يقف ويثبت مع القدر والنفاق يهرب، المنافق كلما مضت عليه الأيام والليالي هزلت بنيته وسمنت نفسه وهواه وطبعه وعميت عينا سره وقلبه، باب داره عامر وداخل الدار خراب، ذكره للحق عزّ وجلّ بلسانه لا بقلبه غضبه لنفسه لا لربه عزّ وجلّ والمؤمن بالضد منه ذكره لله عزّ وجلّ بلسانه وبقلبه وفي أكثر أوقاته يكون قلبه ذاكراً ولسانه ساكتاً، غضبه لله عزّ وجلّ ولرسوله لا لنفسه وهواه وطبعه ودنياه لا يحسد ولا يحسد، ولا ينازع أهل الحظوظ في حظوظهم.

(يا غلام) إياك إياك أن تنازع محظوظاً فإنه يسلم ويرتفع وأنت تهلك

وتنحط وتذل وتفضح، كيف تغير حظه بمنازعتك وقد سبق علم الله بما هو فيه، إذا نازعت الحق عزَّ وجلَّ في علمه السابق فيك وفي غيرك سقطت من عينيه ولا ينفعك علمك، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ [الغاشية: ٣].

تب الآن إلى الله عزَّ وجلَّ، المعصوم كيّس، لا ترجع عن القصد إليه لأجل بلاء أنزله بك، انتظر كشفه عنك ولا تيأس فإن من ساعة إلى ساعة فرجاً ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] ينقل من قوم إلى قوم، اصبر معه وارض بتقديره فإنك ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

إذا صبرت خفف عنك البلاء وأحدث لك أمراً يحبه وتحبه وإذا جزعت واعترضت ثقل عليك البلاء وزادك منه عقوبة لاعتراضك عليه، سبب اعتراضكم عليه عزَّ وجلَّ ومنازعتكم له وقوفكم مع نفوسكم وأهويتكم وأغراضكم وحبكم للدنيا وحرصكم على جمعها.

اتبع ملة إبراهيم الخليل عليه السلام الزاهد في النجم ثم في القمر ثم الشمس ثم:

﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٩].

صار مقام قلبه عند ربه عزَّ وجلَّ وتنحى ما سواه عنه، صار عبداً حراً؛ عبداً لله عزَّ وجلَّ، حراً مما سواه مطلقاً في الأرض والسماء لا يملكه شيء ويملك الأشياء، صار ملكاً لا يملكه سوى الملك.

أنتم في ضياع الزمان بلا شيء اصبوا مع الله عزَّ وجلَّ وقد رأيتم الخير في الدنيا والآخرة، إن أردت تحقيق الإسلام فعليك بالاستسلام، وإن أردت القرب من الله عزَّ وجلَّ فعليك بالاستطراح بين يدي قدره وفعله، بلا لم ولا كيف فبذلك تقرب منه. لا تشأ شيئاً فإنه ما يصح قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

الاعتراض على الحق عزَّ وجلّ عند نزول الأقدار موت الدين، موت التوحيد، موت التوكل والإخلاص. والقلب المؤمن لا يعرف لم وكيف، بل يقول بلى النفس كلها مخالفة منازعة فمن أراد صلاحها فليجاهدها حتى يأمن شرها، كلها شر في شر فإذا جوهدت واطمأنت صارت كلها خيراً في خير.

تصير موافقة في جميع الطاعات وفي ترك جميع المعاصي. فحينئذ يقال لها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

لما صح تسليمه وتوكله قيل للنار ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] معونة الله عزَّ وجلّ للصابر معه في الدنيا بغير حساب، ونعيمه في الآخرة بغير حساب قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

لا يخفى على الله شيء بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، اصبروا معه ساعة وقد رأيتم لطفه وأنعامه سنين، الشجاعة صبر ساعة[(١)].

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني: (٨، ٤٥، ٧٩، ١٨٨ - ١٨٩، ١٩٥ - ١٩٦، ٢٠١، ٣٠١).

الموقف الثامن:
مراقبة الله

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل، فقال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: **«أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره، حلوه ومره»**، قال: صدقت. قال: فتعجبنا من تصديقه النبي ﷺ وهو يسأله، قال فأخبرني ما الإسلام؟ قال: **«الإسلام أن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت»**، قال: صدقت. قال: فأخبرني ما الإحسان؟ قال: **«الإحسان أن تعبدالله تعالى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**، قال: صدقت. الحديث[1]. قال الشيخ القشيري: هذا الذي قاله ﷺ: **«فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** إشارة إلى حال المراقبة؛ لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة ربه، وهذا أصل كل خير له، ولا يكاد (الإنسان) يصل إلى هذه الرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت (نفسه)، ولازم طريق الحق، وأحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب، وحفظ مع الله تعالى الأنفاس، وراقب الله تعالى في عموم أحواله فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب، يعلم أحواله ويرى أفعاله ويسمع أقواله، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة؟.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان برقم (٨).

يقول أحمد الجريري: من لم يحكم بينه وبين الله تعالى التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة.

وقال بعضهم: من راقب الله تعالى في خواطره. عصمه الله تعالى في جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه عزَّ وجلّ لا غير.

وقال ذو النون المصري: علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى.

وقال إبراهيم النصر آباذي: الرجاء يحركك إلى الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤدي بك إلى طرق الحقائق.

يقول أحمد الجريري: أمرنا هذا مبني على فصلين: وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالى، ويكون العلم على ظاهرك قائماً.

وسئل ابن عطاء: ما أفضل الطاعات؟ فقال: مراقبة الحق على دوام الأوقات.

وقال إبراهيم الخواص: المراعاة تورث المراقبة، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى.

أول رتبة في القرب هي القرب من طاعته، والالتزام في جميع الأوقات بعبادته، وأما البعد فهو التدنس بمخالفته والتجافي عن طاعته، فأول البعد بعد عن التوفيق، ثم بعد عن التحقيق، بل إن البعد عن التوفيق هو البعد عن التحقيق، قال ﷺ مخبراً عن الحق سبحانه: **«ما تقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً، فبي يبصر وبي يسمع»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (١١/٢٩٢).

فقرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه، ثم قربه بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق سبحانه ما يخصه اليوم به من العرفان، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان.

ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق، وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون.

فقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عام للكافة، وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين، ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]. ومن تحقق بقرب الحق سبحانه وتعالى فأدونه دوام مراقبته إياه، لأنه عليه رقيب التقوى، ثم رقيب الحفاظ والوفاء، ثم رقيب الحياء، وأنشدوا:

كأن رقيباً منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك منظراً ... يسوؤك إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من فيّ دونك لفظة ... لغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك ... خطرة لغيرك إلا عرّجا بعناني
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم ... وأمسكت عنهم ناظري ولساني
وما الزهد أسلى عنهم غير أنني ... وجدتك مشهودي بكل مكان[1]

و«المراقبة» هي دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه. فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه، ناظر إليه، سامع لقوله. وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة، وكل نفس وكل طرفة عين.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عزّ وجلّ.

---

(١) الرسالة القشيرية: (٨٠ ـ ٨١، ١٨٩ ـ ١٩١).

وقال أبو حفص لأبي عثمان النيسابوري: إذا جلست للناس فكن واعظاً لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك.

وأرباب الطريق مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر: سبب لحفظها في حركات الظواهر. فمن راقب الله في سره، حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته.

و«**المراقبة**» هي التعبد بأسمائه «الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير» فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة.

ومن ألطف ما وصفت به المراقبة أنها:

مراقبة الحق تعالى في السير إليه على الدوام، بين تعظيم مُذهل ومداناة حامله، وسرور باعث. فأما التعظيم المذهل فهو: امتلاء القلب من عظمة الله عزَّ وجلّ، بحيث يذهله ذلك عن تعظيم غيره، وعن الالتفات إليه. فلا ينسى هذا التعظيم عند حضور قلبه مع الله. بل يستصحبه دائماً. فإن الحضور مع الله يوجب أنساً ومحبة، إن لم يقارنهما تعظيم، أورثاه خروجاً عن حدود العبودية ورعونة. فكل حب لا يقارنه تعظيم المحبوب: فهو سبب للبعد عنه، والسقوط من عينه.

وأما المداناة الحاملة فهي: الدنو الحامل له على هذه الأمور الخمسة، وهذا الدنو يحمله على التعظيم الذي يذهله عن نفسه. وعن غيره. فإنه كلما ازداد قرباً من الحق ازداد له تعظيماً، وذهولاً عن سواه، وبعداً عن الخلق.

وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم، واللذة التي يجدها في تلك المداناة فإن سرور القلب بالله وفرحه به، وقرة العين به. لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا البتة. وليس له نظير يقاس به. وهو حال من أحوال أهل الجنة. حتى قال بعض العارفين: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

ولا ريب أن هذا السرور يبعثه على دوام السير إلى الله عزَّ وجلّ،

وبذل الجهد في طلبه، وابتغاء مرضاته. ومن لم يجد هذا السرور، ولا شيئاً منه، فليتهم إيمانه وأعماله. فإن للإيمان حلاوة، من لم يذقها فليرجع، وليقتبس نوراً يجد به حلاوة الإيمان.

وقد ذكر النبي ﷺ ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته. فذكر الذوق والوجد، وعلقه بالإيمان. فقال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**»[1] وقال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. ومن يكره أن يعود في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى في النار**»[2].

والقصد: أن السرور بالله وقربه، وقرة العين به، تبعث على الازدياد من طاعته، وتحث على الجد في السير إليه، والانتقال إلى مراقبة أخرى تحملك على الإعراض عن الاعتراض، بصيانة الباطن والظاهر. فصيانة الظاهر: بحفظ الحركات الظاهرة. وصيانة الباطن: بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة، التي منها رفض معارضة أمره وخبره.

فيتجرد الباطن من كل شهوة وإرادة تعارض أمره، ومن كل إرادة تعارض إرادته. ومن كل شبهة تعارض خبره. ومن كل محبة تزاحم محبته. وهذه حقيقة القلب السليم الذي لا ينجو إلا من أتى الله به. وهذا هو حقيقة تجريد الأبرار المقربين العارفين. وكل تجريد سوى هذا فناقص. وهذا تجريد أرباب العزائم[3].

❀ ❀ ❀

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في باب حلاوة الإيمان (١٦): ١٤/١.

(٣) تهذيب مدارج السالكين: (٣١١ ـ ٣١٣).

الموقف التاسع:
محبة الله

اعلم أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدمتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

إن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

سأل رجل رسول الله ﷺ عن الساعة.

فقال رسول الله: **«ما أعددت لها؟»**.

قال: يا رسول الله، ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال رسول الله: **«المرء مع من أحب»**[١].

فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

---

(١) متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود.

وقال الحسن البصري رحمه الله: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها. المؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن.

وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟.

وقال أيضاً: مثقال خردلة من الحب أحب إلي من عبادة سبعين سنة بلا حب.

ومن أحب غير الله تعالى، لا من حيث نسبته إلى الله، فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول ﷺ فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء؛ لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب. ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه.

فإن الإنسان إذا عرف ربه، عرف قطعاً أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بإيجاده.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله سبحانه وتعالى فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط بها حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النمل: ١٨].

وقال الثوري لرابعة: ما حقيقة إيمانك؟.

قالت: ما عبدته خوفاً من ناره ولا حباً لجنته فأكون كالأجير السوء. بل عبدته حباً له وشوقاً إليه.

وقالت رضي الله عنها في معنى المحبة نظماً.

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى ... فشغلي بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهل له ... فكشفك لي الحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وفي التوراة يقول الله تعالى: **«طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً»**.

وفي أخبار داود عليه السلام: إن الله تعالى قال: «يا داود أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وائنسوا بي أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم، فإني خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي وموسى نجيي ومحمد صفيي، وخلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي».

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٤].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن علامة حب الله تعالى للعبد قول الرسول الكريم: **«إن الله إذا أحب عبداً ابتلاه»**. ومن أقوى العلامات، حُسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذل للخلق، يسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه هما واحداً، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

وأما محبة العبد لله تعالى، فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن

يحب القلب محبوباً ولا يحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولكنه يحب لقاء الله بعد الموت.

ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أُتي به يوماً، فحده، فلعنه رجل. وقال: ما أكثر ما يؤتى به. فقال رسول الله ﷺ: **«لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله»**[1].

فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مُستهتراً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذلك ما يتعلق به.

فعلامة حُب الله حُب ذكره، وحُب القرآن الذي هو كلامه، وحُب رسول الله ﷺ.

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مراراً، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها.

ومنها أن يكون شفيقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على أعدائه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

---

(١) أخرجه البخاري والبيهقي في سننه الكبرى: (٣١٢/٨).

ومنها أن يكون في حبه خائفاً بين الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد[1].

والمحبة هي المنزلة التي تنافس فيها المتنافسون، وعليها تفانى المحبون، فهي قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون.

كما أنها «معقد النسبة» أي النسبة التي بين الرب وبين العبد. فإنه لا نسبة بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب. وليس في العبد شيء من الربوبية، ولا في الرب شيء من العبودية. فالعبد عبد من كل وجه. والرب تعالى هو الإله الحق من كل وجه. ومَعقِد نسبة العبودية هو المحبة. فالعبودية معقودة بها، بحيث متى انحلت المحبة انحلت العبودية. والله أعلم.

وهي روح الإيمان والأعمال، والمقامات والأحوال. التي متى خلت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه. تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشِق الأنفس بالغيها. وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها. وتُبوئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها. وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب. وطريقهم الأقوم الذي يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب. تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله - يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة -: إن المرء مع من أحب. فيا لها من نعمة على المحبين سابغة.

إذا غُرست شجرة المحبة في القلب، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار. وآتت أُكلها كل حين بإذن ربها. أصلها ثابت في قرار القلب. وفرعها متصل بسدرة المنتهى.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٣٥٦ - ٣٧٨).

لا يزال سعي المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

لا تحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «**المحبة**».

قيل: المحبة الميل الدائم، بالقلب الهائم.

وقيل: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب.

وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب.

وقيل: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

وقيل: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وقيل: أن تهب كُلك لمن أحببت. فلا يبقى لك منك شيء.

ومن أجمع ما قيل فيها: ما ذكره أبو بكر الكتاني، قال: جرت مسألة في المحبة بمكة أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم ـ فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً. فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإن تكلم فبالله. وإن نطق فعن الله. وإن تحرك فبأمر الله. وإن سكن فمع الله. فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جزاك الله يا تاج العارفين.

الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها. وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها ـ انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما تنتقي أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجلّ.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المُحِبون إلى منازل المحبة.

والكلام في هذه المنزلة معلق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده. والذي أجمع عليه العارفون: أنه يحبهم، وأنهم يحبونه، على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسائر المحاب إليها. وهي حقيقة لا إله إلا الله: وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه وعطائه. فإن ذلك أثر المحبة وموجبها. فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

وفي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود**

في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يلقى في النار»[1].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«يقول الله تعالى: من عادي لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»** وفي الصحيحين عنه أيضاً عن النبي ﷺ **«إذا أحب الله العبد دعا جبريل، فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبوه. فيحبه أهل السماء. ثم يوضع له القبول في الأرض»**.

وفي جامع الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال **«كان من دعاء داود ﷺ: اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي. ومن الماء البارد»** وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه **«اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً فيما تحب»**.

وأصل «التأله» التعبد. و«التعبد» آخر مراتب الحب. يقال: عبَّده الحب وتيّمه: إذا ملكه وذلَّله لمحبوبه.

«فالمحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى، والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هو زهد المحبين. فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته.

---

(١) أخرجه البخاري في باب حلاوة الإيمان (١٦): ١٤/١.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة: إنما هو حياء المحبين. فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم. وأما ما لا يكون عن محبة: فذلك خوف محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فقر الأرواح إلى محبوبها. وهو أعلى أنواع الفقر. فإنه لا فقر أتم من فقر القلب إلى من يحبه. لا سيما إذا وحده في الحب، ولم يجد منه عوضاً سواه. هذا حقيقة الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغنى» هو غنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق» إلى الله تعالى ولقائه. فإنه لب المحبة وسرها.

❀ ❀ ❀

مراتب المحبة

أولها: «العلاقة» وسميت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية: «الإرادة» وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبه له.

الثالثة: «الصبابة» وهي انصباب القلب إليه. بحيث لا يملكه صاحبه.

الرابعة: «الغرام وهو الحب اللازم للقلب» الذي لا يفارقه. بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه.

الخامسة: «الوداد» وهو صفو المحبة، وخالصها ولُبها، و«الودود» من أسماء الرب تعالى.

السادسة: «الشغف» يقال: شُغِفَ بكذا. فهو مشغوف به. وقد شغفه المحبوب. أي وصل حبه إلى شغاف قلبه. كما قالت النسوة عن امرأة العزيز: ﴿شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠].

السابعة: «العشق» وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه.

الثامنة: «التتيم» وهو التعبد، والتذلل. يقال: تَيَّمَه الحب أي ذَلَّله

وعبده. وتيم الله: عبدالله. وبينه وبين «اليتم» ـ الذي هو الانفراد ـ: تناسب في المعنى. فإن «المتيم» المنفرد بحبه وشجوه. كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه، وكل منهما مكسور ذليل. هذا كسره يتم. وهذا كسره تتيم.

التاسعة: «التعبد» وهو فوق التتيم. فإن العبد هو الذي قد ملك المحبوب رقَّه فلم يبق له شيء من نفسه ألبته. بل كله عبد لمحبوبه ظاهراً وباطناً. وهذا هو حقيقة العبودية. ومن كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيد ولد آدم هذه المرتبة: وصفه الله بها في أشرف مقاماته. مقام الإسراء، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١] ومقام الدعوة. كقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ومقام التحدي كقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وبذلك استحق التقديم على الخلائق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب «طريق معبد» أي قد ذللته الأقدام وسهلته.

العاشرة: «مرتبة الخلة» التي انفرد بها الخليلان ـ إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ـ كما صح أنه قال «**إن الله اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا**»[(١)].

و«الخلة» هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

«المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب، وأنسه

---

(١) رواه عبدالله بن عمرو وأخرجه الديلمي في (الفردوس بمأثور الخطاب: ١/١٧٧ (برقم: ٦٦٠).

بالمحبوب، في حالتي بذله ومنعه، وإفراده بذلك التعلق. بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وبالمحبة تفنى خواطر المحب عن التعلق بالغير. وأول ما يفنى من المحب: خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه؛ لأنه إذا انجذب قلبه بكليته إلى محبوبه انجذبت خواطره تبعاً، كذلك فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب ولا يجد من مسها ما يجد غيره.

ومن أعظم مطالعة منة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصل هذا: نور يقذفه الله في قلب العبد. فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته. فرأى فيه نفسه، وما أُهلت له من الكمالات والمحاسن. فعلت به همته. وقويت عزيمته. وانقشعت عنه ظلمات نفسه وطبعه؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان إلا ويطرد أحدهما صاحبه. فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول.

ومن آثار المحبة: الشوق، قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]. قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم. أنا أعلم أن من كان يرجو لقائي فهو مشتاق إليَّ. فقد أجلت له أجلاً يكون عن قريب. فإنه آت لا محالة. وكل آتٍ قريب.

وقد كان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك**»[1]. و «الشوق» أثر من آثار المحبة، وحكم من أحكامها. فإنه سفر القلب إلى المحبوب في كل حال[2].

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من

---

(١) أخرجه ابن حبان عن عمار بن ياسر: ٣٠٥/٥.

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٥٠٩ ـ ٥٢٥).

أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله تعالى لقاءه»[1].

قال الأستاذ القشيري: المحبة حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد، وأخبر عن محبته للعبد، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحب العبد، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه.

وأما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على تعظيمه، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

وليست محبة العبد له سبحانه متضمنة ميلاً، كيف وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك والإحاطة، والمحب بوصف الاستهلاك في المحبوب أولى منه بأن يوصف بالميل. ولا توصف المحبة بوصف، ولا تُحَدُّ بحد أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة.

وسئل الجنيد عن المحبة، فقال: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، أشار بهذا إلى استيلاء ذكر المحبوب، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه والإحساس بها.

وقال دلف الشبلي: سُميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

يقول أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص: ذهب المحبون لله تعالى بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي ﷺ قال: **«المرء مع من أحب»**[2] فهم مع الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت (١١/٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب عن ابن مسعود وأبي موسى الأشعري.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أني إذا اطلعت على قلب عبد، فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي.

وقال عبدالله بن المبارك: من أعطى شيئاً من المحبة، ولم يُعط مثله من الخشية فهو مخدوع، وقيل: المحبة ما يمحو أثرك.

وعند المحققين: المحبة استهلاك في لذة، والمعرفة شهود في حيرة، وفناء في هيبة.

قال الأستاذ القشيري: الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق.

وقال أبو عبدالله بن خفيف: الشوق ارتياح القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء والقرب.

وقال أبو يزيد البسطامي: إن لله عباداً لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة، كما يستغيث أهل النار من النار.

وقيل: إن المشتاقين يتحسسون حلاوة الموت عند وروده، لما قد كشف لهم من روح الوصول أحلى من الشهد. وسئل الجنيد: من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به، ووجداً من شدة الشوق إليه[(١)].

- اجعل محبته أهم الأشياء إليك لا بد لك منها فهي التي تنفعك كل من الخلق يريدك له والحق عزَّ وجلَّ يريدك لك.

- (يا غلام) لازم الخوف ولا تأمل حتى تلقى ربك عزَّ وجلَّ ويستقر قدما قلبك وبنيتك بين يديه.

من رأى محباً لله عزَّ وجلَّ فقد رأى الله عزَّ وجلَّ بقلبه دخل عليه بسره، يرى اليوم بأعين القلوب وغداً بأعين الرؤوس:

---

(١) الرسالة القشيرية (٣١٧ - ٣٣٣).

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

المحبون له رضوا به دون غيره استعانوا به واقتصروا عمن سواه صارت مرارة الفقر عندهم حلاوة الفقر من الدنيا عندهم والرضا به عندهم.

إذا علم صدق محبتك له أحبك ودل قلبك وقربك منه، ترى عيوبك فتجنبها وترى عيوب غيرك فتهرب منها، فإذا تم لك هذا قربك وأعطاك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

يا غلام أحب من يحبك، اشتغل إلى من يشتاق إليك قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، قد خلقك لعبادته فلا تلعب، أرادك لصحبته فلا تشتغل بغيره، لا تحب معه في محبته أحداً إن أحببت غيره حب رأفة ورحمة ولطف يجوز، حب النفوس يجوز، أما حب القلوب فلا يجوز، حب السر لا يجوز.

المحب للحق عزّ وجلّ الصادق في محبته يسلم إليه نفسه وماله وعاقبته ويترك اختياره فيه وفي غيره، لا تتهمه في تصرفه، لا تستعجله، لا تبخله، يحلو عنده كل ما يصدر إليه منه.

(ويحك) تدعي محبة الله عزّ وجلّ وتحب غيره، هو الصفاء وغيره الكدر، فإذا كدرت الصفاء بمحبة غيره كدر عليك[١].

---

(١) الفتح الرباني: (٨٨، ١٤٣، ١٥٥، ١٦٩).

الموقف العاشر:
الإقبال على الله

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ⁽٨⁾﴾ [المزمل:٨].

و«التبتل» الانقطاع. وهو تَفَعُّل من البتل وهو القطع. وسميت مريم «البتول» لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. ومصدر «بتَّل» «تبتلاً» كالتعلّم والتفهّم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعَّل ـ لسر لطيف. فإن في هذا العمل إيذاناً بالتدريج والتكلف والعمل والتكثر والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره.

فالتبتل: الانقطاع إلى الله بالكلية. وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الرعد: ١٤] أي التجريد المحض، أي التبتل عن ملاحظة الأعواض، بحيث لا يكون المتبتل كالأجير الذي لا يخدم إلا لأجل الأجرة، فإذا أخذها انصرف عن باب المستأجر.

والاستشهاد بقوله (له دعوة الحق) في هذا الموضع: فيه إرادة هذا المعنى، وأنه تعالى صاحب دعوة الحق لذاته وصفاته، وإن لم يوجب لداعية بها ثواباً. فإنه يستحقها لذاته. فهو أهل أن يعبد وحده، ويدعى وحده، ويقصد ويشكر ويحمد، ويحب ويرجى ويخاف، ويتوكل عليه،

ويستعان به، ويستجار به، ويلجأ إليه، ويصمد إليه. فتكون الدعوة الإلهية الحق له وحده.

فقال علي رضي الله عنه دعوة الحق: «التوحيد» وقال ابن عباس رضي الله عنهما «شهادة أن لا إله إلا الله» وقيل: الدعاء بالإخلاص. والدعاء الخالص لا يكون إلا لله. ودعوة الحق دعوة الإلهية وحقوقها وتجريدها وإخلاصها.

و «التبتل» يجمع أمرين: اتصالاً وانفصالاً. لا يصح إلا بهما.

فالانفصال: انقطاع قلبه عن حظوظ النفس المزاحمة لمراد الرب منه. وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله أو رغبة فيه، أو مبالاة به، أو فكراً فيه.

والاتصال: لا يصح إلا بعد هذا الانفصال. وهو اتصال القلب بالله، وإقباله عليه، وإقامة وجهه له، حباً وخوفاً ورجاء، وإنابة وتوكلاً.

ولكن التبتل لا يكتمل حتى يكون انقطاع المتبتل عن النفس، بمجانبة الهوى، وتنسم روح الأنس، فإن في مجانبة الهوى ومخالفة الهوى ونهي نفسه عنه: تنسم روح الأنس بالله، والرَوْح للروح كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الروح لما أعرض عن هواه، فحينئذ يتنسم[1].

ثم مشهد الذل، والانكسار، والخضوع، والافتقار للرب جل جلاله. فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته. وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارةُ حقيقتها. وإنما تدرك بالحصول فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء. بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل، الذي لا شيء فيه، ولا به ولا منه، ولا فيه منفعة، ولا يُرغب في مثله. وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه. فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما منّ ربه إليه من الخير.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٩٥ ـ ٢٩٦).

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه!.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء. فهذا سجود القلب، وإذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى ـ سجدت معه جميع الجوارح. وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم. وخشع الصوت والجوارح كلها. وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم.

فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده، ومن الوالدة بولدها؟ إذا فر عبد إليه، وهرب من عدوه إليه، وألقى بنفسه طريحاً ببابه. يُمَرِّغ خدَّه في ثَرى أعتابه باكياً بين يديه، يقول: يا رب، يا رب، ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك، ولا مؤوي له سواك، ولا مغيث له سواك. مسكينك وفقيرك، وسائلك ومؤملك ومرجيك. لا ملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك. أنت معاذه وبك ملاذه.

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظما أنت جابره

فإذا استبصر في هذا المشهد، وتمكن من قلبه. وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقَّى منه إلى مشهد العبودية والمحبة، والشوق إلى لقائه، والابتهاج به، والفرح والسرور به. فتقر به عينه، ويسكن إليه قلبه. وتطمئن إليه جوارحه ويستولي ذكره على لسان محبه وقلبه. فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية. وإرادات التقريب إليه وإلى مرضاته، مكان إرادة معاصيه ومساخطه، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات، مكان حركاتها بالمعاصي. قد امتلأ قلبه من محبته. ولهج لسانه بذكره. وانقادت الجوارح لطاعته.

ويحكى عن بعض العارفين، أنه قال: دخلت على الله من أبواب

الطاعات كلها. فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام. فلم أتمكن من الدخول، حتى جئت باب الذل والافتقار. فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه. ولا مزاحم فيه ولا معوق. فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته. فإذا هو ـ سبحانه ـ قد أخذ بيدي وأدخلني عليه[(١)].

(يا غلام) اقرن بين الدنيا والآخرة واجعلهما في موضع واحد وانفرد بمولانا عزَّ وجلَّ عريانا من حيث قلبك لا دنيا ولا آخرة، لا تقبل عليه إلا مجرداً مما سواه ولا تتقيد بالخلق عن الخالق، اقطع هذه الأسباب واخلع هذه الأرباب فاجعل الدنيا لنفسك والآخرة لقلبك والمولى لسرك.

إذا دخلت على الله فادخل وقد عزلت علمك وعملك ولسانك ونسبك وحسبك مع نسيان مالك وأهلك، قف بين يديه عريان القلب عما سوى الحق عزَّ وجلَّ حتى يكسوه بقربه وفضله ومنه.

ذُلَّ لله عزَّ وجلَّ وانزل حوائجك به. اغلق أبواب الخلق وافتح الباب بينك وبينه واعترف بذنوبك واعتذر إليه من تقصيرك وتيقن أن لا ضار ولا نافع ولا معطي ولا مانع إلا هو، فحينئذ يزول غم عين قلبك ويحرك البصر والبصيرة[(٢)].

(يا غلام) ما ههنا إلا الخالق عزَّ وجلَّ، فإن كنت مع الخالق فأنت عبده، وإن كنت مع الخلق فأنت عبدهم لا كلام لك حتى تقطع الفيافي والقفار من حيث قلبك وتفارق الكل من حيث سرك.

كل عمل تريد عنه عوضاً فهو لك وكل عمل تريده لله عزَّ وجلَّ فهو له، وإذا عملت لوجه الله تعالى كان جزاؤك قربك منه والنظر إليه ثم لا تطلب العوض على أعمالك في الجملة، اطلب المنعم لا تطلب النعمة. كن أبداً مخفياً بحالك لا تزل كذلك حتى تكمل ويصل قلبك إلى ربك عزَّ وجلَّ.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٢٧ ـ ٢٢٩).

(٢) الفتح الرباني (١٢ ـ ١٦).

واستوى عندك حمدهم وذمهم وإقبالهم وإدبارهم تتصرف فيهم بإذن خالقهم. إنك إذا ثبت هناك بانت لك الخواطر فتعرف خاطر النفس وخاطر الهوى وخاطر القلب وخاطر إبليس.

وخاطر الملك يقال لك هذا خاطر الحق وهذا باطل تعلم كل واحد بعلامة تعرفها، إذا وصلت إلى هذا المقام أتاك خاطر من الحق عزَّ وجلّ يؤدبك ويثبتك ويقيمك ويقعدك ويحركك ويسكنك ويأمرك وينهاك.

المؤمن يستر حزنه ببشره، ظاهره يتحرك في الكسب وباطنه ساكن إلى ربه عزَّ وجلّ، ظاهره لعياله وباطنه لربه عزَّ وجلّ، لا يفشي سره إلى أهله وولده وجاره وجارته ولا إلى أحد من خلق ربه عزَّ وجلّ يسمع قوله ﷺ: **«استعينوا على أموركم بالكتمان»**[1].

ويلك طاعة الله عزَّ وجلّ بالقلب لا بالقالب. اخلع ثياب الشهوات والرعونات والعجب والنفاق وحبك للقبول عند الخلق وإقبالهم عليك وعطاياهم لك، اخلع ثياب الدنيا والبس ثياب الآخرة.

انخلع من حولك وقوتك واستطرح بين يدي الحق عزَّ وجلّ لا حول ولا قوة ولا وقوف مع سبب ولا شرك بشيء من المخلوقات، فإذا فعلت هذا رأيت ألطافه حواليك، تأتيك رحمته تجمعك، ونعمته ومنته تكسوك وتضمك إليها، اهرب إليه انقطع إليه عرياناً بلا أنت ولا غيرك (عليكم بالموت الخاص قبل الموت العام).

كيف تفسد آخرتك بدنياك؟ كيف تفسد طاعة مولاك عزَّ وجلّ بطاعة نفسك وهواك وشيطانك والخلق؟ كيف تفسد تقواك بشكواك إلى غيره؟ أما تعلم أن الله عزَّ وجلّ حافظ للمتقين وناصر لهم وراد عنهم ومعلم لهم ومعرفهم بنفسه وآخذ بأيديهم وينجيهم من المكاره وناظر إلى قلوبهم ورازقهم من حيث لا يحتسبون؟.

قال ﷺ[2]: **«إذا أغلق العبد أبوابه وأرخى أستاره واختفى من الخلق**

---

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم عن معاذ بن جبل.

(٢) لم أقف على نصه.

وخلا بمعاصي الله عزَّ وجلّ يقول الله عزَّ وجلّ يا بن آدم جعلتني أهون الناظرين إليك»[1].

من فاته باب الحق عزَّ وجلّ قعد على أبواب الخلق. من ضيع طريق الحق عزَّ وجلّ وضل عندها قعد على طريق الخلق. من أراد الله به خيراً أغلق أبواب الخلق في وجهه وقطع عطاءهم عنه حتى يرده بذلك إليه، يقيمه من الغدر إلى الشط، يقيمه من لا شيء إلى شيء. كن مع الله عزَّ وجلّ تكن غنياً عزيزاً أميراً مؤمراً دليلاً. من استغنى بالله عزَّ وجلّ احتاج إليه كل شيء.

الإقبال على الخلق هو عين الإدبار عن الحق عزَّ وجلّ، لا فلاح لك حتى تخلع الأرباب وتقطع الأسباب وتترك رؤية الخلق في النفع والضر.

إنما لكل واحد منكم قلب واحد فكيف يحب به الدنيا والآخرة؟ وكيف يكون في الخلق والخالق؟ كل إناء ينضح بما فيه. أعمالك دلائل على اعتقادك، ظاهرك دليل على باطنك، ولهذا قال بعضهم: الظاهر عنوان الباطن.

لو سجدت لله ألف عام على الجمر وأنت تقبل بقلبك على غيره لما نفعك ذلك، ماذا ينفعك إظهار الزهد في الأشياء مع إقبالك عليها بقلبك؟ أما تعلم أن الله عزَّ وجلّ يعلم ما في صدور العالمين؟ أما تستحي أن تقول بلسانك توكلت على الله وفي قلبك غيره؟.

اصبر واعمل حتى ترى بقلبك وسرك وروحك باب القرب من ربك عزَّ وجلّ. المؤمن لا يخاف غير الله عزَّ وجلّ ولا يرجو غيره، قد أعطى القوة في قلبه وسره. كيف لا تكون قلوب المؤمنين قوية بالله عزَّ وجلّ وقد أسرى بها إليه؟.

لا تزال عند القلوب والقالب في الأرض قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٧].

---

(١) الفتح الرباني (٢٦، ٣٠، ٣٥، ٤٣، ٤٦).

- يصطفون على أهاليهم وأهل زمانهم، ولهذا فارقوا الخلق وزهدوا في المألوفات.

(يا غلام) لا بد من الحلاوة والمرارة والصلاح والفساد والكدر والصفاء، فإن أردت الصفاء الكلي ففارق بقلبك الخلق وواصله بالحق عزَّ وجلّ.

- يصنعهم لنفسه كما صنع موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١].

كل من تجرد عما سوى الحق عزَّ وجلّ ووقف بين يديه على أقدام قلبه وسره فقد قال بلسان الحال كما قال موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] عزلت دنياي وآخرتي وجميع الخلق. قطعت الأسباب، وخلعت الأرباب، وجئت إليك مستعجلا لترضى عني وتغفر لي وقوفي معهم من قبل.

(يا غلام) لا تغتر بطاعتك وتعجب بها، اسأل الحق سبحانه وتعالى قبولها واحذر وخف أن ينقلك إلى غيرها. من عرف الله عزَّ وجلّ لا يقف مع شيء ولا يغتر بشيء، لا يأمن حتى يخرج من الدنيا على سلامة دينه وحفظ ما بينه وبين الله عزَّ وجلّ[(١)].

(ويحك) يا جاهل تعرض عن الحق عزَّ وجلّ وتخليه وراء ظهر قلبك وتشتغل بخدمة الخلق، القوم اشتغلوا بخدمة الحق عزَّ وجلّ فقرب قلوبهم إليه فعرفته. أحدهم إذا عرف الحق عزَّ وجلّ وفرغ من محاربة نفسه وهواه وطبعه وشيطانه وتخلص منهم ومن دنياه وفتح له الحق عزَّ وجلّ باب قربه يطلب شغلاً يعمله.

(يا غلام) احذر أن يرى الحق عزَّ وجلّ في قلبك غيره فتنهتك، احذر أن يرى في قلبك خوف غيره أو رجاء غيره أو حب غيره، طهروا قلوبكم من غيره لا تروا الضر والنفع إلا منه أنتم في داره وضيافته.

(١) الفتح الرباني (٤٧، ٤٨، ٥٥، ٦٠ - ٦٢، ٧٩).

كل مخلوق حجاب عن الخالق عزّ وجلّ، مهما وقفت معه فهو حجاب، لا تلتفت إلى الخلق ولا إلى الدنيا ولا إلى ما سوى الحق عزّ وجلّ حتى تأتي إلى باب الحق عزّ وجلّ بأقدام سرك وصحة زهدك فيما سواه عريانا عن الكل متحيراً فيه مستغيثاً إليه مستعيناً به ناظراً إلى سابقته وعلمه.

من لم يكن قلبه مجرداً عن الخلق والأسباب لا يقدر أن يسلك جادة النبيين والصديقين والصالحين حتى يقنع بالسير من الدنيا ويسلم الكثير إلى القدر.

إذا أشكل عليك الأمر ولم تفرق بين الصالح والمنافق فقم من الليل وصل ركعتين ثم قل: يا رب دلني على الصالحين من خلقك، دلني على من يدلني عليك، ويطعمني من طعامك ويسقيني من شرابك، ويكحل عين قربي بنور قربك، ويخبرني ما رأى عيانا لا تقليدا، القوم أكلوا من طعام فضل الله عزّ وجلّ.

اشتغل بالله عزّ وجلّ لا بغيره، لا تستأنس بغيره، اجعل الخلق خراج قلبك وإن لم تعمل فعلى نفسك المقت والحرمان، قال تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٢٨٦].

اترك غدا إلى جنب أمس لعل غدا يأتي وأنت ميت. وأنت يا غني لا تشتغل بغناك عنه لعل غدا يأتي وأنت فقير، لا تكن مع شيء بل كن مع خالق الأشياء الذي هو شيء لا يشبهه شيء، لا تستروح إلى غيره راحة، قال رسول الله ﷺ: **«لا راحة لمؤمن من دون لقاء ربه»**[1].

اسألوه على قدر قدرته، اسألوه من حيث القدرة لا من حيث الحكمة، اسألوه من حيث علمه لا من حيث علمكم، اسألوه بقلوبكم وأسراركم لا بلقلقة اللسان، اسألوه من وراء تجوز علمكم وقدرتكم، فقوا

(١) رواه وكيع في الزهد عن ابن مسعود، والديلمي عن أبي هريرة.

بين يديه على قدم الإفلاس من جميع الأشياء، ولا تتعالوا عليه، ولا تتمقدروا عليه، ولا تتمعلقوا عليه، ولا تردوا تدبيره بتدبيركم إلى الجهال[1].

(يا قوم) فروا إلى الله عزّ وجلّ اهربوا إليه من الخلق والدنيا ومما سواه في الجملة صيروا إليه بقلوبكم، أما سمعتم قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

(يا غلام) لا تنظر إلى الخلق بعين البقاء بل انظر إليهم بعين الفناء، لا تنظر إليهم بعين الضر والنفع بل انظر إليهم بعين العجز والذل.

وإن جاءته الأسباب والعيال فيعان عليهم ويعطى القوة على مقاساتهم فقلبه في جميع الأحوال فارغ عما سوى ربه عزّ وجلّ لا يبرح في غيبته ولا يزول، لا يطلب منه التغيير والتبديل لأنه يعلم أن الذي قد قضى لا يتغير والقسم قد فرغ منه لا يزيد ولا ينقص فلا يطلب زيادة ولا نقصاناً لا يطلب تأخير قسمه ولا الإسراع في مجيئه لأنه قد تحقق أن له وقتاً مقدراً مخصوصاً فهو وأمثاله هم العُقَّل من الخلق، والطالبون للزيادة والنقصان والإسراع والتأخير هم المجانين. من رضي عن الله عزّ وجلّ وافقه في جميع أحواله وفي غيره أحبه وعرَّفه إياه واستصحبه بقية عمره على جادة مراده يوفقه ثم يقربه ويقول له: (أنا ربك) عند تحيره وتقطعه. كما قال لموسى عليه الصلاة والسلام: (أنا ربك).

قال لموسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ظاهراً ويقول لقلب هذا العارف باطناً يسمعه ذلك رحمة له ولطفاً به وكرامة لنبيه عليه الصلاة والسلام معجزات الأنبياء عليهم السلام ظاهرة وكرامة الأولياء باطنة هم الوارثون للأنبياء.

من غلب علمه هواه فذلك العلم النافع كيف لا يكون نافعاً وقد أغلق أبواب الخلق وفتح باب الحق عزّ وجلّ الذي هو الباب الأكبر.

---

(١) الفتح الرباني (٨٩، ٩٣، ٩٧، ١١٩ ـ ١٥٦، ١٨٣، ٢١٤).

إذا صح هذا الغلق والفتح لعبد ذهبت عنه الرحمة وجاءته الخلوة جاءت الخلع إلى قلبه والنثار عليه، جاءته المفاتيح تناثر عنه القشور وبقي اللب، انسد طريق الهوى وانغلب وانقهر وانفتحت الطريق إلى الحق عزَّ وجلَّ وظهرت الجادة عليه جادة مراده التي هي جادة من تقدم من الأنبياء والمرسلين والأولياء، ما تلك الجادة الصفاء بلا كدر، جادة التوحيد بلا شرك، جادة الاستسلام بلا منازعة، جادة الصدق بلا كذب، جادة الحق عزَّ وجلَّ بلا خلق، جادة المسبب بلا سبب.

قيل لبعض الصالحين: هل رأيت ربك؟ فقال: لو لم أره لتقطعت مكاني. إن قال قائل: كيف تراه؟ فأقول: إذا خرج الخلق من قلب العبد ولم يبق فيه سوى الحق عزَّ وجلَّ يريه ويقربه كما يشاء، يريه باطناً كما أرى غيره ظاهراً، يريه كما أرى نبينا محمداً ﷺ نفسه ليلة المعراج، كما يرى هذا العبد نفسه ويقربه ويحدثه مناماً قد يحدث قلبه إليه يقظة، يغمض عيني وجوده فيراه بعينيه كما هو عليه من حيث الظاهر ويعطيه معنى آخر فيراه به، يرى قربه، يرى صفاته، يرى كراماته وفضله وإحسانه واللطف به، يرى بره وكنفه. من تحققت عبوديته ومعرفته لا يقول أرني، ولا لا ترني، لا أعطني، ولا لا تعطني، يصير فانياً مستغرقاً[1].

وقال آخر: أريد أن أكون من الذين يريدون وجهه، لقد لمح قلبي باب القرب ورأى المحبين داخلين فيه وخارجين منه وعليهم خلع الملك فما ثمن الدخول إليه؟ قلنا له: ابذل كلك واترك شهواتك ولذاتك وافن فيه عنك ودع الجنة وما فيها واتركها ودع النفس والهوى والطبع ودع الشهوات الدنيوية والأخروية ودع الكل واتركهم وراء ظهر قلبك ثم ادخل فإنك ترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من تم له هذا وثبتت أقدام قلبه فيه كانت له الدنيا والآخرة، يكونان له نعمة مجردة بلا نقمة، يصيران نزلاً له، وآخرته القرب والنظر؛ القرب في الدنيا بقلبه والنظر يوم القيامة بعينه.

---

(١) الفتح الرباني (٢٢١، ٢٣٥، ٢٥٦).

(يا غلام) ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] قل ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

يا زاهد في الدنيا إذا خرج قلبك منها طالباً للآخرة فقل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨].

إبراهيم عليه السلام لما ترك في المنجنيق حتى يرمى في النار قطع الوسائط عنه ولم يلتفت إلى غير ربه عزَّ وجلّ، لا جرم قال للنار: ﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٢٦٩]، يا نار انعزلي وتغيري وتبدلي، كفي حرك وسرك، كفي سنانك وسيفك، وحرّك وغضبك، انبرمي انجعدي كوني برداً وقراً بلا أذية، كل هذا ببركة التوحيد والإخلاص فيه. العبد إذا وحد ربه عزَّ وجلّ وأخلص له: تارة يكون له فيدخل في تكوينه، وتارة يسلم إليه التكوين ويكون هو لنفسه هذا الخواص من خلقه، كل من دخل إلى الجنة، يقول للشيء كن فيكون.

قال بعضهم: العارف يشغله معروفه عن القبول والرد والحمد والذم، إذا زالت النفس صار مكانها أمر الله، وإذا زالت الدنيا صار مكانها الآخرة، وإذا زالت الآخرة صار مكانها قرب الله عزَّ وجلّ، يستأنس بقربه ويرتاح إليه. الصلاة تقطع بك نصف الطريق، والصوم يقيمك على الباب، والصدقة تدخلك إلى الدار. هكذا قال بعض المشايخ واستعينوا على قطع الطريق إلى الله بالصبر والصلاة.

عند الصلاة تستقبل القبلة وعند البلاء أيضاً تستقبل قبلة وهو أن تستقبل بوجه قلبك الحق عزَّ وجلّ، كما استقبلت بوجهك الكعبة، فإن استقبلت بوجهك الخلق عند الآفات كان إيمانك باطلاً؛ لأن البلاء عند الإيمان منكسر، انكسار القلوب فيه كبيرة لكن انكسار قلوب العوام للدنيا، والخواص حظ الأخرى(١).

❀❀❀

(١) الفتح الرباني (٢٩٢ ـ ٢٩٤، ٣٤٧).

الموقف الحادي عشر:
الأدب مع الله

الأدب: اجتماع خصال الخير في العبد، ومنه المأدبة. وهي الطعام الذي يجتمع عليه الناس.

وعلم الأدب: هو علم إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل. وهو شعبة من الأدب العام. والله أعلم.

و «الأدب» ثلاثة أنواع: أدب مع الله سبحانه. وأدب مع رسوله ﷺ وشرعه. وأدب مع خلقه. فالأدب مع الله ثلاثة أنواع:

أحدهما: صيانة معاملته: أن يشوبها بنقيصة.

الثاني: صيانة قلبه: أن يلتفت إلى غيره.

الثالث: صيانة إرادته: أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله.

وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم.

وسئل الحسن البصري رحمه الله عن أنفع الأدب؟ فقال: التفقه في الدين. والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهل: القوم استعانوا بالله على مراد الله. وصبروا لله على آداب الله.

وقال ابن المبارك: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون. وقال: الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف.

وقال أبو حفص ـ لما قال له الجنيد: لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين ـ فقال: حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن. فالأدب مع الله حسن الصحبة معه، بإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على مقتضى التعظيم والإجلال والحياء. كحال مجالس الملوك ومصاحبهم.

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبدالله بن المبارك: قد أكثر الناس القول في «الأدب» ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات.

وقال أبو عثمان: إذا صحت المحبة تأكدت على المحب ملازمة الأدب.

وتأمل أحوال الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله، وخطابهم وسؤالهم. كيف تجدها كلها مشحونة بالأدب قائمة به.

وفي بعض الآثار «حملة العرش أربعة: اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على حلمك بعد علمك. واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك. لك الحمد على عفوك بعد قدرتك» ولهذا يقترن كل من هاتين الصفتين بالأخرى، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٢] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهراً وباطناً. فما أساء أحد الأدب في الظاهر إلا عُوقب ظاهراً. وما أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً.

وقال عبدالله بن المبارك رحمه الله: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن. ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض. ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة، وقيل: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وحقيقة «الأدب» استعمال الخلق الجميل. ولهذا كان الأدب: استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل.

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّنٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَنٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] فعبر عن خلق النفس بالتسوية والدلالة على الاعتدال والتمام. ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى. وإن ذلك نالها منه امتحاناً واختباراً. ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها. ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه. وهي التقوى. ثم حكم بالشقاء على من دساها. فأخفاها وحقرها. وصغرها وقمعها بالفجور. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧] قيل: حفظ آداب الحضرة.

وكأنهم نظروا قول من قال من أهل التفسير: إن هذا وصف لأدبه ﷺ في ذلك المقام. إذ لم يلتفت جانباً. ولا تجاوز ما رآه. وهذا كمال الأدب.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾؟ [النجم: ١١، ١٢] أي ما كذب الفؤاد ما رآه ببصره.

ولم يتجاوز البصر حده فيطغى ولم يمل عن المرئي فيزيغ، بل اعتدل البصر نحو المرئي. ما جاوزه ولا مال عنه، كما اعتدل القلب في الإقبال على الله، والإعراض عما سواه. فإنه أقبل على الله بكليته. وللقلب زيغ وطغيان، كما للبصر زيغ وطغيان. وكلاهما منتف عن قلبه وبصره. فلم يزغ قلبه التفاتاً عن الله إلى غيره. ولم يطغ بمجاوزته مقامه الذي أقيم فيه.

وهذا غاية الكمال والأدب مع الله الذي لا يلحقه فيه سواه، فإن عادة النفوس، إذا أقيمت في مقام عال رفيع: أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه وفوقه. ألا ترى أن موسى ـ ﷺ ـ لما أقيم في مقام التكليم والمناجاة: طلبت نفسه الرؤية؟.

ونبينا ﷺ لما أقيم في ذلك المقام، وفاه حقه: فلم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه البتة؟.

ولهذا كان مركوبه في مسراه يسبق خطوة الطرف. فيضع قدمه عند منتهى طرفه، مشاكلاً لحال راكبه، وبُعدِ شأوه، الذي سبق العالم أجمع في سيره، فكان قدم البراق لا يختلف عن موضع نظره، كما كان قدمه ﷺ لا يتأخر عن محل معرفته.

فلم يزل ﷺ في خفارة كمال أدبه مع الله سبحانه، وتكميل مراتب عبوديته له، حتى خرق حجب السموات. وجاوز السبع الطباق. وجاوز سدرة المنتهى. ووصل إلى محل من القرب سبق به الأولين والآخرين. فانصبت إليه هناك أقسام القرب انصباباً. وانقشعت عنه سحائب الحجب ظاهراً وباطناً حجاباً حجابا. وأقيم مقاماً غبطه به الأنبياء والمرسلون.

ومن الأدب مع الله: السكون في الصلاة. وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبه بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا. ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه، ولا عن شماله ولا خلفه. قلت: هما أمران. الدوام عليها. والمداومة عليها. فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي. ويعظم الله تعالى، حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه. ويتضاءل ويتصاغر في نفسه. حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه، والتأدب بآدابه ظاهراً وباطناً. ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه، وما يحب وما يكره. ونفس مستعدة قابلة لينة، متهيئة لقبول الحق علماً وعملاً وحالاً. والله المستعان.

وقال بعض السلف: دين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

فإضاعة الأدب بالجفاء: كمن لم يكمل أركان الوضوء. ولم يوف الصلاة آدابها التي سنها رسول الله ﷺ وفعلها. وهي قريب من مائة أدب: ما بين واجب ومستحب.

وإضاعته بالغلو: كالوسوسة في عقد النية. ورفع الصوت بها. والجهر بالأذكار والدعوات التي شرعت سراً. وتطويل ما السُنة تخفيفه وحذفه.

ومن الأدب: منع الخوف: أن يتعدى إلى اليأس، وحبس الرجاء: أن يخرج إلى الأمن، وضبط السرور: أن يضاهئ الجرأة.

فالأديب لا يدع الخوف يفضي به إلى حد يوقعه في القنوط، واليأس من رحمة الله. فإن هذا الخوف مذموم[1].

وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: من لم يعرف ما لله عزَّ وجلّ عليه في نفسه، ولم يتأدب بأمره ونهيه، كان في الأدب في عزلة.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله عزَّ وجلّ أدبني فأحسن أدبي»**[2].

وقال يحيى بن معاذ: إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين.

وقيل للحسن البصري: قد أكثر الناس في علم الآداب، فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً؟ فقال: التفقه في الدين، والزهد في الدنيا، والمعرفة بما لله عزَّ وجلّ عليك[3].

❀ ❀ ❀

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤٤٥ ـ ٤٥٥).

(٢) رواه ابن مسعود وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٣١٠/١).

(٣) الرسالة القشيرية (٢٨٤ ـ ٢٨٦).

الموقف الثاني عشر:
طاعة الله وعبادته

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وقال جل شأنه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٢].

قلت: فما أول ما تأمرني أن أبتدي به؟.

قال الحارث: أن تعلم أنك عبد مربوب، لا نجاة لك إلا بتقوى سيدك عزّ وجلّ ومولاك، ولا هلكة عليك بعدها. فتذكر وتفكر لأي شيء خُلِقتَ؟ ولم وُضعت في هذه الدار الفانية؟ فتعلم أنك لم تُخلق عبثاً، ولم تترك سُدَى، وإنما خُلقت ووُضعت في هذه الدار للبلوى والاختبار، لتطيع الله عزّ وجلّ تعالى أو تعصي، فتنقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد.

فإذا علمت أنك عبد مربوب، ثم عَقلت لم خُلقت؟ ولماذا عُرّضت؟ وإلى أي شيء لا محالة مصيرك، إلى عذاب الأبد، أو الثواب ونعيم الأبد؟ كان ذلك أول ما يجب عليك أن تبدأ به؛ لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره ـ وهو أول الرعاية ـ أن تعلم أنها مربوبة متعبدة، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه[1].

---

(١) الرعاية لحقوق الله (٤٤).

إن أردتم أن يكون الحق عزَّ وجلّ لكم فاشتغلوا بطاعته والصبر معه والرضا بأفعاله فيكم وفي غيركم، وعظوا نفوسهم ثم عظوا نفوس غيرهم.

ويحك تدعي أنك عبده وتطيع سواه، لو أنك عبده على الحقيقة لعاديت فيه وواليت فيه.

دع عنك الشرك بالخلق ووحد الحق عزَّ وجلّ هو خالق الأشياء جميعها وبيده الأشياء جميعها يا طالب الأشياء من غيره ما أنت عاقل، هل شيء ليس هو في خزائن الله عزَّ وجلّ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١].

(يا غلام) أين عبودية الحق عزَّ وجلّ، هات حقيقة العبودية وخذ الكفاية في جميع أمورك: أنت عبد آبق من مولاك، ارجع إليه وذلّ له، تواضع لأمره بالامتثال، ولنهيه بالانتهاء ولقضائه بالصبر والموافقة، إذا تم لك هذا تمت عبوديتك لسيدك وجاءتك منه الكفاية. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦] ربنا عزَّ وجلّ لكل شيء شاهد في كل شيء حاضر، على كل شيء رقيب ومن كل شيء قريب لا غنية لكم عنه، ما أمرّ الإنكار بعد المعرفة؟ ويحك تعرف الله عزَّ وجلّ وترجع تنكره، لا ترجع عنه فإنك تحرم الخير كله، اصبر معه ولا تصبر عنه. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

(يا غلام) كن صحيحاً تكن فصيحاً. كن صحيحاً في الحكم تكن فصيحاً في العلم، كن صحيحاً في السر تكن فصيحاً في العلانية، كل السلامة في طاعة الحق عزَّ وجلّ وهي امتثال جميع ما أمر به والانتهاء عن جميع ما نهى عنه والصبر على جميع ما قضى به، من استجاب لله عزَّ وجلّ أجابه، ومن أطاعه طوّع له جميع خلقه.

أدّ الأمر وانته عن النهي واصبر على هذه الآفات وتقرب بالنوافل، وقد سميت مستيقظاً عاملاً لطلب التوفيق من ربك عزَّ وجلّ مع اجتهادك وترك تكلف الحضور باب العمل وهو المستعمل لك، سله وتذلل بين يديه حتى يهيئ لك أسباب الطاعة فإنه إذا أرادك لأمر هيأك له، قد أمرك

بالمسارعة من حيثك ويوجه إليك التوفيق من حيثه، الأمر ظاهر والتوفيق باطن، النهي عن المعاصي ظاهر والحمية عنها باطنة، بتوفيقه تتمسك وبحميته وعصمته تترك وبقوّته تصبر.

قال الله عزَّ وجلّ في بعض كلامه: «إذا أُطِعت رضيت وإذا رضيت باركت، وليس لبركتي نهاية وإذا عُصيت غضبت وإذا غضبت لعنت، وتبلغ لعنتي إلى الولد السابع»، هذا زمان بيع الدين بالتين، زمان طول الأمل وقوة الحرص، اجهد أن لا تكون ممن قال الله فيهم:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

كل عمل يراد به غير الله عزَّ وجلّ فهو هباء منثور.

اعلم أن الأشياء كلها محركة بتحريكه ومسكنة بتسكينه، إذا ثبت هذا له استراح من ثقل الشرك بالخلق واستراح الخلق منه؛ لأنه لا يعيب عليهم ولا يطالبهم بشيء مما يليه إنما يطالبهم بما طالبهم به الشرع فحسب، يطالبهم شرعاً ويعذرهم علماً جمعاً بين الحكم والعلم، رؤية فعل الله عزَّ وجلّ في الخلق عقيدة لا ينقض بها الحكم، هو المقدر وهو المطالب.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

(يا قوم) عليكم بالكرم والإيثار في طاعة الحق عزَّ وجلّ لا في معصيته كل نعمة تصرف في المعصية هي معرضة للزوال، تشاغلوا بالاكتساب مع ملازمة الطاعة إلى أن يأتيكم القرب منه فتجتمع همومكم به ومعه لا بغيره ولا مع غيره فحينئذ يصير أكلكم من طبق فضله وكرمه من حيث لا تدرون ولا تعقلون.

أطيعوه فإنه يعز من أطاعه، لا تعصوه فإنه يذل من عصاه، النصر والخذلان بيده يعز بالنصر من يشاء ويذل بالخذلان من يشاء، يعز بالعلم من يشاء ويذل بالجهل من يشاء، يعز بالقرب من يشاء ويذل بالبعد من يشاء.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

إياك نطيع وإياك نوحد، متى وحدت الحق عزَّ وجلّ، متى أخلصت العمل، متى زهدت في الخلق والرياء والنفاق والصحب، متى تذللت للحق الذلة من حيث القلب، من حيث الخلوة[1].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥].

العبادة والاستعانة: هما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين. فنصفهما له تعالى وهو «إياك نعبد» ونصفهما لعبده. وهو «إياك نستعين».

و«العبادة» تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل. والتعبد: التذلل والخضوع. فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له. ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً. ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوباً لهم، بل هو غاية مطلوبهم ـ ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم ـ: منكرين لكونه إلهاً، وإن أقروا بكونه رباً للعالمين وخالقاً لهم.

و«الاستعانة» تجمع أصلين: الثقة بالله والاعتماد عليه. فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه. وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه. فيحتاج إلى اعتماده عليه. مع أنه غير واثق به.

و«التوكل» معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد. وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ وهذان الأصلان ـ وهما التوكل، والعبادة ـ قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها؛ هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) الفتح الرباني (٨، ٩، ٣١، ٨٤، ١٤٢، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٩، ٢٦٤، ٣٢٦).

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٨، ٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، و«الاستعانة» تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن «العبادة» حقه الذي أوجبه عليك، و«الاستعانة» طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك. وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن «العبادة» شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، و«الإعانة» فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها. فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

و«العبودية» محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نحبه.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين».

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم.

وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين. ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه،

فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف. كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره، ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف.

فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها. ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى: الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال **«يا معاذ، والله إني لأحبك. فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**(١).

فأنفع الدعاء: طلب العون على مرضاته. وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب.

واعلم أن سر العبودية، وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عزَّ وجلّ، ولم يعطلها. وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهاً، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل. وإن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها.

فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها، وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟.

وقد صرح تعالى بهذا في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] فالعبادة: هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها.

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لكمال محبته. مع الخضوع له والانقياد لأمره.

---

(١) صحيح ابن خزيمة: ٣٦٩/١ برقم (٧٥١).

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه. فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها. فهي إنما تتحقق باتباع أمره. واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة. ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم.

فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله.

ودل على أن متابعة الرسول ﷺ: هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره. ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواه. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله[1].

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

عن أبي سعيد الخدري وعن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»[2].

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: العبودية أتم من

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٦٣ ـ ٧٨).

(٢) رواه البخاري: ١١٩/٢، ومسلم (١٠٣١).

العبادة، فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة: فالعبادة للعوام من المؤمنين، والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص، وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين، والعبودية لمن له عين اليقين، والعبودة لمن له حق اليقين. وسمعته يقول: العبادة لأصحاب المجاهدات، والعبودية لأرباب المكابدات، والعبودة صفة أهل المشاهدات، فمن لم يدخر عند نفسه فهو صاحب عبادة، ومن لم يضن عليه بقلبه فهو صاحب عبودية، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة.

ويقال: العبودية ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار.

ويقال: العبودية التبري من الحول والقوة، والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة.

ويقول العبودية معانقة ما أمرت به، ومفارقة ما زجرت عنه.

وقيل: العبودية أن تسلم إليه كُلك، وتحمل عليه كَلّك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: أنت عبد من أنت في رقه وأسره، فإن كنت في أسر نفسك، فأنت عبد نفسك، وإن كنت في أسر دنياك، فأنت عبد دنياك.

يقول إسماعيل بن نجيد: لا تصفو لأحد قدم في العبودية حتى يشاهد أعماله عنده رياء وأحواله دعاوى.

يقول ابن عطاء: العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود[1].

❀ ❀ ❀

(١) الرسالة القشيرية (١٩٧ ـ ١٩٩).

الموقف الثالث عشر:
الرضا بالقضاء والقدر

قال النبي ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»**[1].

وقال: **«من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً. غفرت له ذنوبه»**[2].

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له، والرضا بدينه، والتسليم له.

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه. فعل الراضي بمحبوبه كل الرضا. وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه. وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به.

(١) أخرجه البزار في مسنده عن العباس: ١٤٥/٤ برقم: ١٣١٨.

(٢) صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص برقم ٣٨٦: ٢٩٠/١.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به.

والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وههنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم فإياك أن تستوحش من التفرد. فإنه والله عين العزة. والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به. والرضا به رباً، وبمحمد ﷺ رسولاً وبالإسلام ديناً.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته، وتنسم روحه. قال: اللهم زدني اغتراباً، ووحشة من العالم، وأنساً بك. وكلما ذاق حلاوة هذه الاغتراب، وهذا التفرد: رأى الوحشة عين الأنس بالناس، والذل عين العز بهم. والجهل عين الوقوف مع آرائهم. وزبالة أذهانهم.

قيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت. وأن منعتني رضيت. وإن تركتني عبدت. وإن دعوتني أجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلب. فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا، وليس من شرط «الرضا» ألا يُحس بالألم والمكاره. بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه.

فطريق الرضا والمحبة: تُسير العبد وهو مستلق على فراشه. فيصبح أمام الركب بمراحل.

وثمرة الرضا: الفرح والسرور بالرب تبارك وتعالى.

وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما: إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إلي من الغنى، والسقم أحب إلي من الصحة. فقال: رحم الله أبا ذر. أما أنا، فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمنَّ غير ما اختار الله له.

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي: الرضا أفضل من الزهد في الدنيا؛ لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته.

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ «أسألك الرضا بعد القضاء».

فقال: لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا. والرضا بعد القضاء هو الرضا.

وقيل: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقيل: رفع الاختيار. وقيل: استقبال الأحكام بالفرح.

وقيل: سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى رضي الله عنهما «أما بعد، فإن الخير كله في الرضا. فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر».

والرضا ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه. ورضا الخواص بما قدره وقضاه. ورضا خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

والنفس إنما تنال الرضا بالطمأنينة والسكينة، فمن درب نفسه على الطمأنينة حصل له الرضا عن الله تعالى، ورضي الله عنه، وذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى (٢٩) وَٱدْخُلِى جَنَّتِى (٣٠)﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وأرفع الرضا: الرضا بالله رباً، وتسخط عبادة ما دونه. وهذا قطب رحى الإسلام.

الرضا بالله رباً: أن لا يتخذ رباً غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما (سيداً وإلهاً) يعني فكيف أطلب رباً غيره، وهو رب كل شيء؟.

ثم يتلوه: الرضا عن الله، وبه أيضاً نطقت آيات التنزيل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى وقدّر.

وإنما كان هذا الرضا تالياً لأن الرضا بالله رباً أعلى شأناً وأرفع قدراً، ودرجته مختصة بالمؤمنين، بينما درجة الرضا عن الله مشتركة. فإن الرضا

بالقضاء يصح من المؤمن والكافر. وغايته التسليم لقضاء الله وقدره. فأين هذا من الرضا به رباً وإلهاً ومعبوداً؟.

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته. والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه.

ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب: كان ذلك الميل حاملاً على طاعته وتعظيمه. وكلما كان الميل أقوى: كانت الطاعة أتم، والتعظيم أوفر. وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولُبُّه. فأي شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة؟.

وإنما ترتب هذا وهذا على الرضا به وحده رباً، والبراءة من عبودية ما سواه، وميل القلب بكليته إليه، وانجذاب قُوى المحب كلها إليه. ورضاه عن ربه تابع لهذا الرضا به. فمن رضي بالله رباً رضيه الله له عبداً. ومن رضي عنه في عطائه ومنعه وبلائه وعافيته: لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به رباً، وبنبيه رسولاً، وبالإسلام ديناً.

فقد قال النبي ﷺ:

«من قال كل يوم: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً: إلا كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة»(١) وقد نطق التنزيل بهذا الرضا أيضاً كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] وقال تعالى في آخر سورة المجادلة: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقال في آخر سورة «لم يكن» ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم: ١٠٤٠٠: ١٤٥/٦ بلفظ: **«من قال حين يصبح وحين يمسي»**.

﴿... أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

وللرضا ثمرات إيمانية كثيرة وافرة تنتج عنه، يرتفع بها الراضي إلى أعلى المنازل.

منها: أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه. ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه. فلا تتم له عبوديته - من الصبر، والتوكل، والرضا، والتضرع، والافتقار، والذل، والخضوع، وغيرها - إلا بجريان القدر له بما يكرهه.

وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة. إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع بأن يعلم أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه.

ومنها: أن السخط باب الهَم والغَمّ والحزن، وشتات القلب، وكسف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله. والرضا يخلصه من ذلك كله ويفتح له باب جنة الدنيا قبل جنة الآخرة.

فالرضا يوجب له الطمأنينة، وبرد القلب، وسكونه وقراره. والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته وانزعاجه، وعدم قراره.

كما أن الرضا يُنزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها. ومتى نزلت عليه السكينة: استقام وصلحت أحواله، وصلح باله والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته.

ومنها: أن الرضا يخلص العبد من مخاصمة الرب تعالى في أحكامه وأقضيته. فإن السخط عليه مخاصمة له فيما لم يرض به العبد. وأصل مخاصمة إبليس لربه: من عدم رضاه بأقضيته وأحكامه الدينية والكونية.

ومنها: أن حُكم الرب تعالى ماض في عبده، وقضاءه عدل فيه، كما في الحديث «ماضٍ فيّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيّ قضاؤك» ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

ومنها: أن الرضا يفتح له باب السلامة. فيجعل قلبه سليماً نقياً من الغش والدغل والغل ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم. كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا.

ومنها: أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله، وقضائه وقدره، وحكمته وعلمه. فقلَّ أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به. فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولاً مدخولاً. فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان. والشك والسخط قرينان. وهذا معنى الحديث الذي في الترمذي - أو غيره «**إن استطعت أن تعمل بالرضا مع اليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره النفس خيراً كثيراً**».

فالرضا يفرغ القلب لله، والسخط يفرغ القلب من الله.

ومنها: أن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها؛ لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

ومنها: أن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات لم يتخير عليه المسائل. وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك. وجعل ذكره في محل سؤاله. بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه. فهذا يُعطى أفضل ما يعطاه سائل. كما جاء في الحديث: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين**»[1].

ومنها: أن الرضا يثمر سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٥٧٣): ٤١٤/١.

وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مُهلع من أمور الدنيا، وبرد القناعة، واغتباط العبد بقسمه من ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلامه لمولاه في كل شيء، ورضاه منه بما يجريه عليه، وتسليمه له الأحكام والقضايا. واعتقاد حسن تدبيره، وكمال حكمته. ويذهب عنه شكوى ربه إلى غيره وتبرمه بأقضيته، ولهذا سمى بعض العارفين الرضا: حسن الخلق مع الله. فإنه يوجب ترك الاعتراض عليه في ملكه، وحذف فضول الكلام التي تقدح في حسن خُلقه. وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: أصبحت ومالي سرور إلا في مواقع القدر.

ومنها: أن الرضا يفرغ قلب العبد. ويقلل همه وغمه. فيتفرغ لعبادة ربه بقلب خفيف من أثقال الدنيا وهمومها وغمومها. كما ذكر ابن أبي الدنيا عن بشر بن بشار المجاشعي ـ وكان من العلماء ـ قال: قلت لعابد: أوصني قال: ألق نفسك مع القدر حيث ألقاك. فهو أحرى أن يُفرغ قلبك. ويقلل همك. وإياك أن تسخط ذلك، فيحل بك السخط وأنت عنه في غفلة لا تشعر به. فيلقيك مع الذين سخط الله عليهم.

وقال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله «لقد تركتني هؤلاء الدعوات، ومالي في شيء من الأمور كلها أرَب، إلا في مواقع قدر الله. وكان كثيراً ما يدعو: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته. ولا تأخير شيء عجلته».

والدعاء لا ينافي الرضا، بل إذا ألح العبد على الله في سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه: فإن ذلك لا يقدح في مقام الرضا. وفي الأثر: «إن الله يحب الملحين في الدعاء» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ يوم بدر ـ للنبي ﷺ: «يا رسول الله، قد ألححت على ربك. كفاك بعضُ مناشدتك لربك»(١) فهذا الإلحاح عين العبودية.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عباس برقم (٢٧٥٨): ١٠٦٧/٣.

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[1]، فالراضي بالله تعالى هو الذي لا يعترض على تقديره.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا ألا تعترض على الحكم والقضاء.

وقال المشايخ: الرضا باب الله الأعظم، يعنون أن من أكرم بالرضا فقد لوقي بالترحيب الأوفى، وأكرم بالتقريب الأعلى.

وقيل: قال موسى عليه السلام: إلهي دُلّني على عمل إذا عملته رضيت به عني، فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى عليه السلام ساجداً متضرعاً، فأوحى الله تعالى إليه: يا بن عمران، إن رضاي في رضاك بقضائي.

قال عبدالرحمن الداراني: إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض.

وقال أبو عبدالله بن خفيف: الرضا سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضي الله تعالى به واختاره.

وسئلت رابعة العدوية: متى يكون العبد راضياً؟ فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة.

يقول ذو النون المصري: ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء. وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء.

وقال أبو عمر الدمشقي: الرضا ارتفاع الجزع في أي حكم كان.

وقال الحارث المحاسبي: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النوري: الرضا سرور القلب بِمُرِّ القضاء.

وقال أبو علي الجوزجاني: الرضا دار العبودية، والصبر بابه،

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٣٦٣ ـ ٣٨١).

والتفويض بيته، فالصوت على الباب، والفراغة في الدار، والراحة في البيت[1].

قال عبدالواحد بن زيد: قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة؟.

فقال: لو ذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك.

قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟.

قال: إذا صفا الودّ، خلصت المعاملة.

قلت: متى يصفو الودّ؟.

قال: إذا اجتمع الهم، فصار هماً واحداً في الطاعة.

فإن قيل: ما علامة الأنس؟.

قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

وأما الرضا بقضاء الله تعالى، فهو من أعلى مقامات المقربين، وهو من ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

ومن فضائل الرضا ما ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبد خيراً أرضاه بما قسم له»**[2].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائي.

ودخل أبو الدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال له أبو الدرداء: «أصبت، إن الله عزَّ وجلَّ إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به».

---

(١) الرسالة القشيرية (١٩٣ ـ ٢٠٠).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس برقم (٩٤٦): ٢٤٤/١.

قال الجنيد رحمه الله: سألت سرياً: هل يجد المحب ألم البلاء؟ قال: لا.

فالرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً، وإذا كان ذلك ممكناً في حق الخلق وحظوظهم، كان ممكناً في حق الله سبحانه، وحظوظ الآخرة بطريق الأولى.

وإمكان ذلك في ثلاثة أوجه:

أولاً: علم المؤمن بأن تدبير الله تعالى خير من تدبيره.

ثانياً: الرضا بالألم، لما يتوقع من الثواب المدّخر.

ثالثاً: الرضا به لا لحظ وراءه، بل لكونه مراد المحبوب، فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضا محبوبه، ولو كان في ذلك هلاك نفسه، كما قال بعضهم: «فما لجرح إذا أرضاكم ألم».

الدعاء لا يناقض الرضا، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعي في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[1]. [الأنبياء: ٩٠].

موافقتي للقدر تقدمني إلى القادر.

(يا قوم) تعالوا نذل لله عزَّ وجلّ ولقدره وفعله، ونطأطىء رؤوس ظواهرنا وبواطننا نوافق القدر ونمشي في ركابه، ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٣٤].

الزموا موافقة الله عزَّ وجلّ في البأساء والضراء والفقر والغنى والشدة والرخاء في السقم والعافية في الخير والشر في العطاء والمنع ما أرى لكم دواء إلا التسليم إلى الحق عزَّ وجلّ، إذا قضى عليكم بشيء لا تستوحشوا

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٣٧٩ ـ ٣٨٣).

منه، ولا تنازعوه منه، ولا تشكو منه إلى غيره، فإن ذلك مما يزيدكم بلاء بل سكونا وسكوتا وخمولا. اثبتوا بين يديه وانظروا ماذا يعمل فيكم وبكم تفرحوا على تغيره وتبديله، إذا كنتم معه هكذا لا جرم يغير الوحشة بالأنس والتوحيد بالفرحة به. اللهم اجعلنا في جنابك ومعك. و﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

(يا غلام) كن مع الله صامتاً عند مجيء قدره وفعله حتى ترى منه ألطافاً كثيرة، حكمة الله عزَّ وجلّ لا تجيء إلى قلبك من كثرة هذيانك ومنازعتك له واعتراضك عليه.

اللهم ارزقنا الموافقة وترك المنازعة و﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

يا طوبى لمن وافق القدر، وانتظر فعل المقدر، وعمل بالقدر وسار مع القدر ولم يكفر نعمة الأقدار، وآية نعمة المقدر رحمته والقرب منه والغنى به عن كل خلقه. إذا وصل قلب العبد إلى ربه عزَّ وجلّ أغناه به عن الخلق، يقربه ويمكنه ويملكه ويقول له:

﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

قال مالك بن دينار لبعض مريديه: إن أردت معرفة الله عزَّ وجلّ فارض بتدبيره وتقديره ولا تجعل نفسك وهواك وطبعك وإرادتك شركاء له فيهما.

يا قليل الدراية إذا كان القدر لا يمكنك رده وتغييره ومحوه ومخالفته فلا ترد غير ما يريد إذا كان لا يأتيك إلا بما يريد فلا تريد إذا كان لا يريد شيئاً لا يتم فلا تتعب نفسك وقلبك فيه، سلم الكل إلى ربك عزَّ وجلّ. تعلق بذيل رحمته بيد توبتك إليه فإذا دمت على هذا تزول الدنيا من عين قلبك ورأسك وتهون عليك مصائبها وترك شهواتها ولذاتها ولا تشكو من قرصاتها ولسعاتها تصير نفسك وألم البلاء كآسية رضي الله تعالى عنها زوجة فرعون لما تحقق أنها مؤمنة بالله عزَّ وجلّ أمر بها فضرب في يديها ورجليها أوتاداً من حديد وجعل يعاقبها بالسياط ورفعت رأسها إلى السماء فرأت

أبواب الجنة مفتحة والملائكة تبني فيها بيتاً وجاءها ملك الموت ليقبض روحها فقال لها: هذا البيت لك فضحكت وذهب عنها ألم العقوبة وقالت:

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

فهكذا تصير أنت لأنك تنظر بعين قلبك ويقينك إلى ما ثم فتصبر على ما ههنا من البلاء والآفات وتخرج من حولك وقوتك ولا تأخذ ولا تعطي ولا تتحرك ولا تسكن إلا بحول الله وقوته.

(يا غلام) إذا عدمت الصبر والرضا كان ذلك سبباً لخروجك من عبوديتك للحق عزَّ وجلّ، قال تعالى: **«من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتخذ إلهاً سواي»**[١].

اقنعوا به دون غيره والقدر كائن لكم وعليكم، حققوا الإسلام حتى تصلوا إلى الإيمان ثم حققوا الإيمان حتى تصلوا إلى الإيقان فحينئذ ترون ما لم تروه من قبل، اليقين يريكم الأشياء كما هي على صورتها يصير الخبر معاينة، هو يوقف القلب على الحق عزَّ وجلّ ويريه الأشياء منه، إذا وقف القلب على باب الحق عزَّ وجلّ خرجت إليه يد الكرامة فتكرمت عليه فيصير كريماً مؤثراً يتكرم على الخلق ولا يبخل عليهم بشيء.

كونوا سباعاً عند أمر الله عزَّ وجلّ ورسوله، ومرضى عند نهيهما، وموتى عند مجيء الأقضية والأقدار، ومع هذا عاشروا الناس بخلق حسن، لا تطلبوا من الله عزَّ وجلّ بغير علة فيكم ووافقوه في حكمه وقدره فيكم وفي غيركم، عن النبي ﷺ أنه قال: **«لما خلق الله عزَّ وجلّ القلم قال له: اكتب، قال: ما الذي أكتب؟ قال: اكتب حُكمي في خلقي إلى يوم القيامة»**[٢].

وكان معاذ رحمة الله عليه يقول: اللهم إن لم تفعل بي ما أريد فصبرني على ما تريد.

(يا غلام) الرضا بالقضاء أطيب من تناول الدنيا مع المنازعة، حلاوته

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، وابن حبان في الضعفاء بلفظ آخر.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب.

أحلى في قلوب الصديقين من تناول الشهوات واللذات، هو أحلى عندهم من الدنيا جميعها وما فيها من طيب العيش.

لا تترك الخوف من يد قلبك ولا تعجز قدرته واقرأ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] وقال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

لا تقف مع ذلك المكتوب فإن الذي كتبه هو القادر على محوه، الذي بناه هو القادر على نقضه. كن أبداً على قدم الطاعة والخوف والوجل والحذر إلى أن يأتيك الموت وتعبر من الدنيا إلى الآخرة على قدم السلامة.

من أراد أن يحصل له الرضا بقضاء الله عزَّ وجلَّ فليدم ذكر الموت فإن ذكره يهون المصائب والآفات ولا تتهمه على نفسك وعلى مالك وعلى ولدك بل قل ربي أعلم بي مني، فإذا دمت على ذلك جاءتك لذة الرضا والموافقة فتذهب الآفات بأصولها وفروعها ويجيئك بدلها النعم والطيبات لما وافقت وتلذذت بالرضا في حال البلاء جاءتك النعم من كل جانب، ويحك يا غافلاً عنه لا تشتغل عنه بطلب غيره، كم تطلب منه سعة الرزق ولعله فتنة لك وأنت لا تعلم ما تدري الخيرة في أي شيء فاسكت ووافق واطلب منه الرضا بأفعاله والشكر في سائر الأحوال، سعة الرزق فتنة مع عدم الشكر، وضيق الرزق فتنة مع عدم الصبر.

إذا تحيرت قل يا دليل المتحيرين دلني، إذا أبليت وعجزت عن الصبر قل إلهي أعني وصبرني واكشف عني.

اطلب الرضا والموافقة واقنع بقسمك ولا تطلب ما لم يقسم لك، عن النبي ﷺ أنه قال:[١] **«أشد عقوبات الله عزَّ وجلَّ لعبده في الدنيا طلبه ما لم يقسم له»**[٢].

---

(١) لم أقف على نصه.

(٢) الفتح الرباني (١٠، ٣١، ٥٢، ١٠١، ١٠٤، ١٦٩، ١٩٩، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٣٩، ٢٤٨).

الموقف الرابع عشر:
الصبر والابتلاء

الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر. وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى، إذ سمّى نفسه صبوراً وشكوراً. فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان.

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

فما من مقربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأجل كون الصوم من الصبر فإن الله تعالى يقول: «الصوم لي وأنا أجزي به»(١). وقد وعد الله الصابرين بأنه معهم، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«الصبر نصف الإيمان»**(٢).

وقال أيضاً: **«في الصبر على ما تكره خير كثير»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (٧٠٥٤): ٢٧٢٣/٦.
(٢) أخرجه أبو نعيم من حديث ابن مسعود.
(٣) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه: «ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر».

قال علي بن أبي طالب: «بُنِيَ الإيمان على أربع دعائم: «اليقين والجهاد والصبر والعدل».

وقال أيضاً: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له».

وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر».

فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوات، فإن ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين، وأن ضَعُف حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها، التحق بأتباع الشياطين(1).

وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً.

الأول: الأمر به. نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وقوله: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

الثاني: النهي عن ضده كقوله: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥] فإن تولية الأدبار: ترك للصبر والمصابرة.

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ الآية [آل عمران: ١٧] وقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧] وهو كثير في القرآن.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٢٨٢ ـ ٢٨٤).

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم. كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

الخامس: إيجاب معيته لهم. وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم. ليست معية عامة، وهي معية العلم، والإحاطة. كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩ والأنفال: ٦٦].

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه. كقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦] وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٤].

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم. كقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [يونس: ٣٩].

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر. كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم. كقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٥] ومنه قول النبي ﷺ: **«واعلم أن النصر مع الصبر»**(١).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يُلقَّى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس برقم (٦٣٠٤): ٣/٦٢٤.

العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠].

وقوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر. كقوله تعالى لموسى: ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥].

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر. كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

السادس عشر: اقترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان. وبالتقوى والتوكل. وبالشكر والعمل الصالح والرحمة.

وفي الحديث الصحيح **«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صبر، فكان خيراً له»**[1].

وأخبر ﷺ أن الصبر خير كله، وأنه **«ما أعطي أحد عطاء خيراً له وأوسع من الصبر»**.

والصبر في اللغة: الحبس والكفّ.

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب برقم (٢٩٩٩): ٢٢٩٥/٤.

فالصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط. وحبس اللسان عن الشكوى. وحبس الجوارح عن التشويش.

وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله. وصبر عن معصية الله. وصبر على امتحان الله. فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب. والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه.

وهو على ثلاثة أنواع: صبر بالله. وصبر لله. وصبر مع الله.

فالأول: الاستعانة به، ورؤيته أنه هو المصَبِّر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه. كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [النحل: ١٢٧] يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

والثاني: الصبر لله. وهو أن يكون الباعث له على الصبر محبة الله، وإرادة وجهه.

والثالث: الصبر مع الله. وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية. صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها.

قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن. وهجران الخلق في جنب الله شديد. والمسير من النفس إلى الله صعب شديد. والصبر مع الله أشد.

وسئل عن الصبر؟ فقال: تجرع المرارة من غير تعبس.

وقيل: تعويد النفس الهجوم على المكاره.

وقيل: المقام مع البلاء بحسن الصحبة، كالمقام مع العافية.

وقال عمرو بن عثمان: هو الثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة.

وقيل: مراتب الصابرين خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار. فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور العظيم الصبر الذي صبره

أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر، فهذا في القدر والكَمْ. والذي قبله في الوصف والكيف.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠] إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى. فـ «الصبر» دون «المصابرة». و«المصابرة» دون «المرابطة» و«المرابطة» مفاعلة من الربط وهو الشد. وسمي المرابط مرابطاً: لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع.

وقيل: اصبروا على النعماء. وصابروا على البأساء والضراء. ورابطوا في دار الأعداء. واتقوا إله الأرض والسماء. لعلكم تفلحون في دار البقاء.

«فالصبر» مع نفسك، و«المصابرة» بينك وبين عدوك. و«المرابطة» الثبات وإعداد العدة. وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو. فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب. لئلا يهجم عليه الشيطان.

وقيل: الصبر لله غناء وبالله تعالى بقاء. وفي الله بلاء. ومع الله وفاء. وعن الله جفاء. والصبر على الطلب عنوان الظفر وفي المحن عنوان الفرج.

وفي كتاب الأدب للبخاري سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان؟ فقال: **«الصبر، والسماحة»**.

والشكوى إلى الله عزَّ وجلَّ لا تنافي الصبر. فإن يعقوب ـ عليه السلام ـ وعد بالصبر الجميل. والنبي إذا وعد لا يخلف، ثم قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] وكذلك أيوب أخبر الله عنه: أنه وجده صابراً مع قوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وإنما ينافي الصبر شكوى الله، لا الشكوى إلى الله. كما رأى بعضهم رجلاً يشكو إلى آخر فاقة وضرورة فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك؟ ثم أنشد:

وإذا عرتك بلية فاصبر لها　　　صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما　　　تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ومن هٰهنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة؛ لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى. فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة. ولم يثبت معه إلا الصابرون. فلولا تحمل المشاق، وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم. وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبراً. ولهذا وصف الله تعالى بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه. فقال عن حبيبه أيوب ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ ثم أثنى عليه. فقال ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

أما الصبر في المحن على أذى الظالمين، وعند النوازل والبلاء، فإن العبد يستجلبه ويستعين عليه بثلاثة أشياء:

إحداها: «ملاحظة حسن الجزاء»، وعلى حسب ملاحظته والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء، لشهود العوض.

وأجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم. وإن من رافق الراحة: حصل على المشقة وقت الراحة في دار الراحة، فإن على قدر التعب تكون الراحة.

والثاني: «انتظار الفرج».

أي راحته ونسيمه ولذته. فإن انتظاره ومطالعته وترقبه يخفف حمل المشقة. ولا سيما عند قوة الرجاء، أو القطع بالفرج. فإنه يجد في حشو البلاء من روح الفرج ونسيمه وراحته: ما هو من خفي الألطاف، وما هو فرج معجل. وبه ـ وبغيره ـ يفهم معنى اسمه «اللطيف».

والثالث: «تهوين البلية» بأمرين:

أحدهما: أن يعد نعم الله وأياديه عنده. فإذا عجز عن عدها، وأيس من حصرها، هان عليه ما هو فيه من البلاء ورآه ـ بالنسبة إلى أيادي الله ونعمه ـ كقطرة من بحر.

الثاني: يذكر سوالف النعم التي أنعم الله بها عليه. فهذا يتعلق بالماضي.

والصبر ثلاثة أنواع:

صبر لله. أي رجاء ثوابه، وخوف عقابه. وصبر المريدين: إنما هو بالله. فهم لا يرون لأنفسهم صبراً، ولا قوة لهم عليه. بل حالهم التحقق بـ «لا حول ولا قوة إلا بالله» علماً ومعرفة وحالاً.

فالصبر لله فوق الصبر بالله، وأعلى درجة منه وأجل. فإن الصبر لله متعلق بإلهيته. والصبر به: متعلق بربوبيته. وما تعلق بإلهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته.

ولأن الصبر له: عبادة. والصبر به استعانة. والعبادة غاية. والاستعانة وسيلة. والغاية مرادة لنفسها. والوسيلة مرادة لغيرها.

وأما الصبر له: فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين، وأصحاب مشهد «إياك نعبد وإياك نستعين».

ولأن الصبر له: صبر فيما هو حق له، محبوب له مرضي له. والصبر به: قد يكون في ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له. وقد يكون في مكروه أو مباح، فأين هذا من هذا؟.

والثالث: «الصبر على أحكامه».

فهذا هو الصبر على أقداره[1].

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«إن الصبر عند الصدمة الأولى»**[2].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٣٥١ ـ ٣٦٠).

(٢) أخرجه البخاري عن أنس (١٣٨/٣).

وقال ذو النون المصري: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال ابن عطاء: الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: الصبر هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى.

يقول أبو محمد أحمد الجريري: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيها، والتصبر هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة، وأنشد بعضهم:

صبرت ولم أطلع هواك على صبري ... وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميري صبابتي ... إلى دمعتي سراً فتجري ولا أدري

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله تعالى معيته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقيل:

والصبر عنك فمذموم عواقبه ... والصبر في سائر الأشياء محمود

وأنشدوا:

وكيف الصبر عمن حل مني ... بمنزلة اليمين من الشمال
إذا لعب الرجال بكل شيء ... رأيت الحب يلعب بالرجال

وكان ابن شبرمة إذا نزل به بلاء قال: سحابة ثم تنقشع.

وفي الخبر أن النبي ﷺ سُئل عن الإيمان فقال: **«الصبر والسماحة»**[1].

قال أبو سعيد الخدري: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من شيء**

(١) أخرجه أبو يعلى والبيهقي عن جابر (كنز العمال: ١/٢٨٧).

يصيب العبد المؤمن من وصب أو نصب أو حزن أو ألم يهمه، إلا كفَّر الله تعالى عنه من سيئاته»[1].

الحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة، والحزن من أوصاف أهل السلوك.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه سنين.

وسمعت رابعة العدوية رجلاً يقول: وا حزناه، فقالت: قل واقلة حزناه، لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس.

وقال سفيان بن عيينة: لو أن محزوناً بكى في أمة، لرحم الله تلك الأمة ببكائه.

وقيل: الحزن يمنع من الطعام، والخوف يمنع من الذنوب.

وسئل بعضهم: بماذا يُستدل على حزن الرجل؟ فأجاب: بكثرة أنينه[2].

(يا غلام) إذا جاءك الداء فاستقبله بيد الصبر واسكن حتى يجيء الدواء فإذا جاء الدواء فاستقبله بيد الشكر همك ما أهمك فليكن همك ربك عزَّ وجلّ وما عنده، لا تفرح بجميع ما أنت فيه فهو شيء زائل عن قريب قال الله عزَّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

إنما يظفر بما عند الله عزَّ وجلّ بالصبر. المحبون يبتلون فيصبرون ويلهمون فعل الخيرات مع بلائهم.

(يا قوم) اصبروا فإن الدنيا كلها آفات ومصائب والنادر منها غير ذلك، ما من نعمة إلا وفي جنبها نقمة، ما من فرحة إلا ومعها ترحة، ما من سعة إلا ومعها ضيق.

---

(١) مسند أحمد (٣٠٣/٢) ـ البخاري (٩١/١٠) ـ مسلم (٢٥٧٣).

(٢) الرسالة القشيرية (١٨٣ ـ ١٨٧، ١٣٨ ـ ١٣٩).

عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا يعذب حبيبه ولكن قد يبتليه**»[1].

المؤمن يثبت عنده أن الله عزَّ وجلّ ما يبتليه بشيء إلا لمصلحة تعقب ذلك إما دنيا أو آخرة.

(يا غلام) إن أردت سعة الصدر وطيب القلب فلا تسمع ما يقول الخلق ولا تلتفت إلى حديثهم أما تعلم أنهم ما يرضون عن خالقهم فكيف يرضون عنك، أما تعلم أن كثيراً منهم لا يعقلون ولا يبصرون ولا يؤمنون؟ بل يكذبون ولا يصدقون، اتبع القوم الذين لا يعقلون غير الحق عزَّ وجلّ، ولا يسمعون من غيره ولا يبصرون غيره. اصبر على أذية الخلق طلباً لرضا الخالق عزَّ وجلّ، اصبر على ما يبتليك به بأنواع البلايا، هذا دأب الله عزَّ وجلّ مع عباده المصطفين المخبتين يقطعهم عن الكل ويبتليهم بأنواع البلايا والآفات والمحن ويضيق عليهم الدنيا والآخرة، وما تحت العرش إلى الثرى، يفني بذلك وجودهم، حتى إذا أفنى وجودهم أوجدهم له لا لغيره، أقامهم معه لا مع غيره، ينشئهم خلقاً آخر كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

لا تهرب من الحق لأجل بلائه، إنما يبتليك ليعلم هل ترجع إلى السبب وتترك بابه أم لا؟ هل ترجع إلى الظاهر أو إلى الباطن؟ إلى ما يدرك أو إلى ما لا يدرك؟ إلى ما يرى أو إلى ما لا يرى؟ اللهم لا تبتلينا، اللهم ارزقنا القرب منك بلا بلاء، اللهم قرباً ولطفاً. اللهم قرب بلا بعد، لا طاقة لنا على البعد منك ولا على مقاساة البلاء فارزقنا القرب منك مع عدم نار الآفات.

كن في الدنيا كمن يداري جرحه ويصبر على مرارة الدواء رجاء لزوال البلاء، كل البلايا والأمراض في شركك بالخلق ورؤيتهم في الضر والنفع والعطاء والمنع، وكل الدواء وزوال البلاء في الخروج عن الخلق من قبلك وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار، وأن لا تطلب الرياسة على الخلق

(١) أخرجه الطبراني وابن ماجه (فيض القدير: ٢٧٦/٣).

والعلو عليهم، وأن يتجرد قلبك لربك عزَّ وجلّ ويصفو سرك له وتعلو همتك إليه.

عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا قصر العبد في العمل ابتلاه الله عزَّ وجلّ بالهمّ»**(١).

يبتليه بهمّ ما لم يقسم له وهمّ العيال وأذية الأهل ونقصان الربح في المعيشة وعصيان الولد له ومنافرة الزوجة وأينما توجه يعثر كل ذلك عقوبة لتقصيره في طاعة ربه عزَّ وجلّ واشتغاله عنه بالدنيا والخلق قال الله تعالى:

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

الصبر سبب للنصرة والرفعة والمعزة. اللهم إنا نسألك الصبر معك، ونسألك التقوى والكفاية والفراغ من الكل والاشتغال بك ورفع الحجب بيننا وبينك.

إذا لم تصبر على النقم ولم تشكر على النعم فلست بمؤمن، ومن حقيقة الإسلام الاستسلام. اللهم أحي قلوبنا بالتوكل عليك، وبالطاعة لك، بالذكر لك، بالموافقة لك، بالتوحيد لك لولا رجال في قلوبهم هذه الحياة هم مبددون في الأرض لهلكتهم، لأن الحق عزَّ وجلّ يصرف عذابه عن أهل الأرض بدعائهم، صورة النبوة ارتفعت ومعناها باق إلى يوم القيامة، وإلا فعلى أي شيء كان يبقى في الأرض أربعون منهم، من فيه معنى من معاني النبوة قلبه كقلب واحد من الأنبياء، منهم خلفاء الله ورسله في الأرض أقام الغلمان في النيابة عن الأستاذين، ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: **«العلماء ورثة الأنبياء»**(٢).

سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من مرض ليلة واحدة وهو راضٍ عن الله عزَّ وجلّ صابر على ما نزل به خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٩٢٧): ١٨٢/٧.

(٢) رواه أبو داوود والترمذي.

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ولفظه: **«من مرض ليلة فصبر ورضي بها عن الله خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**.

وكان معاذ رضي الله تعالى عنه يقول للصحابة: قوموا نؤمن ساعة: أي قوموا ذوقوا ساعة، قوموا ادخلوا الباب ساعة رفقاً بهم، كان يشير إلى الاطلاع على أشياء غامضة، يشير إلى النظر بعين اليقين، ليس كل مسلم مؤمناً ولا كل مؤمن موقناً.

(يا غلام) إن أردت أن تكون متقياً متوكلاً واثقاً فعليك بالصبر فإنه أساس لكل خير، إذا صحت لك النية في الصبر فصبرت لوجه الله عزَّ وجلَّ كان جزاؤه لك أن يدخل قلبك حبه وقربه دنيا وآخرة، الصبر موافقة الحق عز جل في قضائه وقدره الذي سبق به علمه ولا يقدر أحد من خلقه على محوه.

كيف تدعي الإيمان ولا صبر لك؟ كيف تدعي المعرفة ولا رضا لك؟ هذا شيء لا يجيء بمجرد الدعوى.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. إنما يبتليك لحبه لك، كلما امتثلت أوامره وانتهيت عن نواهيه ازددت حباً وكلما صبرت على بلائه ازددت قرباً منه.

عن بعضهم رحمة الله عليه قال: أبى الله أن يعذب حبيبه ولكن يبتليه ويصبره وكان النبي ﷺ يقول: **«كأن الدنيا لم تكن، وكأن الآخرة لم تزل»**[1].

(يا غلام) اجهد أن تموت ههنا بين يدي الحق عزَّ وجلَّ، اجهد أن تموت نفسك قبل خروج روحك من بدنك، موتها بالصبر والمخالفة فعن قريب تحمد عاقبة ذلك، صبرك يفنى وجزاؤه لا يفنى.

إذا كان لا يتم لك ما تشاء فلا تشأ أن تنازعه في أفعاله، إذا أخذ عرضك ومالك وعافيتك وولدك وكسر أعراضك فتبسم في وجه قدره وإرادته وتبديله، كن على ذلك إن أردت قربه إن أردت الصفاء معه، إن أردت وصول قلبك إليه وأنت في الدنيا اكتم حزنك وأظهر بشرك، خالق الناس

---

(١) أخرجه أبو نعيم عن عمر بن عبدالعزيز.

بخلق حسن. قال رسول الله ﷺ: **«بِشر المؤمن في وجهه وحزنه في قلبه»**[1].

لا تشكو إلى أحد فإنك إن شكوت من الحق عزَّ وجلّ سقطت من عينه ومع ذلك لا يزول من عندك ما شكوت منه ولا تعجبن بشيء من أعمالك فإن العجب يفسد العمل ويهلكه، من رأى توفيق الله عزَّ وجلّ له انتفى عنه العجب بشيء من الأعمال، اجعل كل قصدك إليه فإن يجعل رحمته لك ويهيئ لك أسباب الوصول إليه، كيف تقدر أن تجعل قصدك إليه وأنت كاذب في أقوالك وأفعالك.

إذا ابتلاك فاثبت وارجع إلى ذنوبك وأكثر الاستغفار والتوبة واسأله الصبر والثبات عليها، وقف بين يديه وتعلق بذيل رحمته واسأله كشف ذلك عنك وبيان وجه المصلحة فيه.

والحرمان للمحب والعطاء للمحبوب، ما دام العبد محباً فهو في الهيمان والتقطع والتمزق والكسب لأجل القوت فإذا انقلبت التوبة فصار محبوباً انقلب الأمر في حقه فجاء الدلال والرفاهية والسكون وسعة الرزق وتسخير الخلق، كل هذا ببركة صبره وثباته في حال محبته صحبة العبد لله عزَّ وجلّ ومحبة الله عزَّ وجلّ للعبد ليست كمحبة المخلوق للمخلوق.

لا بد لك من بلية فاسأل الله عزَّ وجلّ أن يأتيك معها بالصبر والموافقة حتى يسلم ما بينك وبينه فيكون الخدش في القالب لا في القلب، في الظاهر لا في الباطن في المال لا في الدين «من كان في الله تلفه كان على الله خلفه».

اسمك غداً محاسب ومناقش أنت في القبر مذموم لا تدري أمن أهل النار أنت أم من أهل الجنة؟ عاقبتك مبهمة فلا تغتر بصفاء حالك، ما تدري ما اسمك غداً، يا بني إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، ذهب أمس بما فيه شاهد لك وعليك وغداً لا

(١) لم أقف على نصه والمعنى صحيح.

تدري تلحقه أولاً إنما أنت ابن يومك ما أغفلك، علامة غفلتك مصاحبتك الغفلة.

لعين تكرم ألف عين، إذا أكرمت الكرام البررة في خلوتك أطعت مولاك ولم تعصه، أكرمت القوم ولم تفضح نفسك عندهم سميت كريماً، فإذا صرت كريماً أكرم لأجلك ألف عين يدفع البلاء عن أهلك وجارك وأهل بلدك أبد الدهر[١].

❀❀❀

(١) الفتح الرباني: (١٣، ٤١، ٤٤، ٥٠، ٥١، ٧٠، ١٠١، ١٥٠، ١٥٨، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٠، ٢٠١، ٢١٠، ٢٤٠، ٢٥١، ٣٣٤، ٣٣٦).

الموقف الخامس عشر:
الزهد في الدنيا

قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠].

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والأخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها. فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة.

وقال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل. ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء.

ذلك أن الزهد في الشيء في لغة العرب ـ التي هي لغة الإسلام ـ الانصراف عنه احتقاراً له، وتصغيراً لشأنه للاستغناء عنه بخير منه.

وقال الجنيد: الزهد في قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٣] فالزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود. ولا يأسف منها على مفقود.

وقال يحيى بن معاذ: الزهد يورث السخاء بالملك، والحب يورث السخاء بالروح.

وقال ابن الجلاء: الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال. فتصغر في عينك، فيسهل عليك الإعراض عنها.

وقيل: هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال الإمام أحمد: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

وعنه رواية أخرى: أنه عدم فرحه بإقبالها. ولا حزنه على إدبارها. فإنه سئل عن الرجل يكون معه ألف دينار. هل يكون زاهداً؟ فقال: نعم. على شريطة أن لا يفرح إذا زادت، ولا يحزن إذا نقصت.

وقال أبو سليمان الداراني: ترك ما يشغل عن الله.

وسأل رويم الجنيد عن الزهد؟ فقال: استصغار الدنيا، ومحو آثارها من القلب. وقال مرة: هو خلو اليد عن الملك، والقلب عن التتبع.

وقال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعز بلا رياسة.

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه. الأول: ترك الحرام. وهو زهد العوام. والثاني: ترك الفضول من الحلال. وهو زهد الخواص. والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة. وعلى هذا صنف المتقدمون كتب الزهد. كالزهد لعبدالله بن المبارك، وللإمام أحمد، ولوكيع، ولهناد بن السري، ولغيرهم.

ومتعلقه ستة أشياء. لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها. وهي المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

ومن أحسن ما قيل في الزهد، كلام الحسن أو غيره: ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال. ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها -

أرغب منك فيها لو لم تصبك. فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه. وقد روي مرفوعاً.

والتحقيق: أنها إن شغلته عن الله. فالزهد فيها أفضل. وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكراً لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها.

الزهد في الزهد. وهو بثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه. واستواء الحالات فيه عندك. والذهاب عن شهود الاكتساب.

فالزهد في الزهد يفسر بثلاثة أشياء.

أحدها: احتقاره ما زهد فيه. فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يجعل قرباناً؛ لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوي عند الله جناح بعوضة.

وأما استواء الحالات عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه متساويين عنده. إذ ليس له عنده قدر. وهذا من دقائق فقه الزهد. فيكون زاهداً في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همته أعلى عن ملاحظته أخذاً وتركاً، لصغره في عينه.

وأما «الذهاب عن شهود الاكتساب» فمعناه:

أن يشاهد تفرد الله بالعطاء والمنع. فلا يرى أنه ترك شيئاً ولا أخذ شيئاً، بل الله وحده هو المعطي المانع. فما أخذه فهو مجرى لعطاء الله إياه، كمجرى الماء في النهر. وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه. فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه[١].

وقال النبي ﷺ: **«إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يلقن الحكمة»**[٢].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٨٣ ـ ٢٨٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم والبيهقي عن أبي خلاد (كنز العمال: ١٨٣/٣، رقم: ٦٠٦٣٩).

ويقول السري: إن الله تعالى سلب الدنيا عن أوليائه وحماها عن أصفيائه، وأخرجها من قلوب وداده؛ لأنه لم يرضها لهم.

وقيل: من صدق في زهده أتته الدنيا راغمة. ولهذا قيل: لو سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها.

وقال الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

وقال عبدالله بن المبارك: الزهد هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر، وبهذا قال شقيق البلخي، ويوسف بن أسباط، وهذا أيضاً من إمارات الزهد فإن العبد لا يقوى على الزهد إلا بالثقة بالله تعالى.

وقال أبو عثمان: إن الله تعالى يعطي الزاهد فوق ما يريد، ويعطي الراغب دون ما يريد، ويعطي المستقيم موافقة ما يريد.

وقال حاتم الأصم: الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه، والمتزهد يذيب نفسه قبل كيسه.

سمعت الفضيل بن عياض يقول: جعل الله الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا[1].

إن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضاً زاهد، ولكنه دون الأول.

وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالكدر يبقى، قويت

---

(١) الرسالة القشيرية (١١٥ ـ ١١٩).

رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء: ٧٧].

وقال رسول الله ﷺ: **«من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همّه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»**(١).

وعن بعض الصحابة أنه قال: قلنا يا رسول الله، أي الناس خير؟.

قال: **«كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان»**.

قلنا: يا رسول الله، وما محموم القلب؟.

قال: **«التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغي ولا حسد»**.

قلنا: يا رسول الله، فمن على أثره؟.

قال: **«الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة»**(٢).

(يا غلام) ما خلقت للبقاء في الدنيا والتمتع فيها، فغيّر ما أنت فيه من مكاره الحق عزّ وجلّ.

(يا مسكين) دع عنك الكلام فيما لا ينفعك اترك التعصب في المذهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة. فرغ قلبك من هموم الدنيا فإنك مأخوذ منها عن قريب، لا تطلب طيب العيش فيها قال ﷺ **«العيش عيش الآخرة»**(٣).

قصّرْ أملك وقد جاءك الزهد في الدنيا؛ لأن الزهد كله قصر الأمل. اهجر أقران السوء واقطع المودة بينك وبينهم وواصلها بينك وبين الصالحين، اهجر القريب منك إذا كان من أقران السوء، وواصل البعيد منك

---

(١) أخرجه ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بسند جيد.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٣٤٠ ـ ٣٤٢).

(٣) رواه البخاري برقم (٢٦٧٩): (١٠٤٣/٣).

إذا كان من أقران الخير. كل من وادته صار بينك وبينه قرابة فانظر لمن توادد. قال ﷺ: **«من جملة عقوبات الله تعالى لعبده طلب ما لم يقسم له»**[(١)].

(يا غلام) لا تَشْكُ من الخالق إلى الخلق، بل اشك إليه هو الذي يقدر وأما غيره فلا.

احذر من بحر الدنيا فقد غرق فيه خلق كثير ما ينجو منه أحد من الخلق، هو بحر عميق يغرق الكل غير أن الله عزَّ وجلَّ ينجي منه من يشاء من عباده كما ينجي المؤمنين يوم القيامة من النار؛ لأن الكل يعبرون عليها وينجي الله من يشاء من عباده ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم: ٧١] يقول تعالى: يا بحر الدنيا يا ماء لا تُغرق هذا العبد. المراد المحبوب فينجو منه ويصير على السر كما نجى موسى عليه السلام وقومه يؤتي فضله من يشاء ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] الخير كله بيده والعطاء والمنع بيده والغنى والفقر بيده والعز والذل بيده، ما لأحد معه شيء، فالعاقل من يلزم بابه ويعرض عن باب غيره. تخرب آخرتك بعمارة دنياك!!.

(يا غلام) لا تكن في أخذك للدنيا كحاطب الليل ما يدري ما يقع بيده، وهو في رحلة كثيرة الدغل والحشرة القاتلة فيوشك أن يقتلك شيء منها، عليك بالاحتطاب نهاراً فإن ضوء الشمس يمنعك أن تأخذ ما يضرك، كن في تصرفاتك مع شمس التوحيد والشرع والتقوى، فإن الشمس تمنعك عن الوقوع في شبكة الهوى والنفس والشيطان والشرك بالخلق وتمنعك عن العجلة في السير.

التفكير في الدنيا عقوبة وحجاب والتفكير في الآخرة علم وحياة للقلب، ما أعطي عبد التفكير إلا أعطي العلم بأحوال الدنيا والآخرة.

ويحك تضيع قلبك في الدنيا وقد فرغ الله عزَّ وجلَّ من أقسامك منها،

---

(١) لم أقف على نصه.

وقد قدر لها أوقاتها معرفة عنده كل يوم يتجدد لك رزق جديد طلبته أم لم تطلبه.

ما أجهل من نسي المسبب واشتغل بالسبب وقف مع الثاني وترك الأول، نسي الباقي وفرح بالفاني.

(ويحك) يا جاهلاً بالقدر والمقدر، أتظن أن أبناء الدنيا يقدرون أن يعطوك ما لم يقسم لك الطامع في أخذ الدنيا من أيدي الخلق يبيع الدين بالتين، يبيع ما يبقى بما يفنى، فلا جرم لا يقع بيده، لا هذا ولا هذا. فإذا قوي إيمانك وكمل فدونك.

كان ﷺ يقول: «تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم»[1].

(يا غلام) إن قدرت أن تتفرغ من هموم الدنيا فافعل وإلا فهرول بقلبك إلى الحق عزَّ وجلّ وتعلق بذيل رحمته حتى يخرج هم الدنيا من قلبك.

(يا غلام) قدم الآخرة على الدنيا فإنك تربحهما جميعاً. وإذا قدمت الدنيا على الآخرة خسرتهما جميعاً. عقوبة لك. كيف اشتغلت بما لم تؤمر به. إذا لم تشتغل بالدنيا أمدك الله عزَّ وجلّ بالمعونة عليها ورزقك التوفيق وقت الأخذ منها، وإذا أخذت منها شيئاً وضعت فيه البركة. المؤمن يعمل لدنياه وآخرته.

الجاهل كل همه الدنيا والعارف كل همه الآخرة. كل من يعمل بعمله صار بينه وبين الله عزَّ وجلّ باب يدخل قلبه منه عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١] لا لغيري لا للشهوات واللذات والترهات، لا للأرض ولا للسماء، لا للجنة ولا للنار، لا للملك ولا للهلك، لا يقيدك شيء مني، ولا يشغلك شاغل غيري، ولا تقيدك عني صورة ولا تحجبك عني خليقة، ولا تغنيك عني شهوة.

---

(١) مسند الشهاب عن عائشة برقم (٦٩٥): ٤٠٤/١.

المؤمن يتزود والكافر يتمتع، المؤمن يتزود لأنه على طريق يقنع باليسير من ماله ويقدم الكثير إلى الآخرة، يترك لنفسه بقدر زاد الراكب بقدر ما يحمله، كل ما له في الآخرة، كل قلبه وهمته هناك، هو منقطع القلب هناك من الدنيا، يبعث جميع طاعاته إلى الآخرة لا إلى الدنيا وأهلها.

اصدق في طلب مولاك عزَّ وجلّ وطر بقلبك حتى تقع على ساحل بحر قربك من ربك عزَّ وجلّ، هذه الدنيا بحر والإيمان السفينة والملاح الطاعات والساحل الآخرة، دنياكم قد أعمت قلوبكم فما تبصرون بها شيئاً، احذروا منها فهي تمكنكم من نفسها تارة بعد أخرى حتى تدرجكم وفي الأخيرة تذبحكم، تسقيكم من شرابها وبنجها ثم تقطع أيديكم وأرجلكم وتسمل أعينكم، فإذا ذهب البنج وجاءت الإفاقة رأيتم ما صنعت بكم، هذا عاقبة حب الدنيا والعدْو خلفها والحرص عليها وعلى جمعها، هذا فعلها فاحذروا منها.

(يا غلام) لا فلاح لك وأنت تحبها. العارف المحب لا يحب هذه ولا هذه ولا ما سوى الحق عزَّ وجلّ.

(يا قوم) امحكم توقيع من الحق عزَّ وجلّ بالحياة، ما أقل تدبيركم، من يعمر دنيا غيره بخراب آخرته، يجمع الدنيا لغيره بتفرق دينه. لو علم وتيقن أنه ميت عن قريب حاضر بين يدي الله عزَّ وجلّ وأنه محاسب على جميع تصرفاته لأقصر من كثير من أعماله.

(يا قوم) إن أعرضتم عن بابها وأقبلتم على باب الحق عزَّ وجلّ خرجت وتبعتكم، اطلبوا من الله عزَّ وجلّ العقل. إذ أقبلت الدنيا على أولياء الله عزَّ وجلّ قالوا لها: غري غيرنا نحن قد عرفناك قد رأيناك، لا تجربينا قد عرفنا مختبرك لا تتبهرجي علينا فإن دينارك محسن، زينتك على صنم من خشب لا روح فيه، أنت ظاهر بلا معنى، منظر بلا مخبر المنظر والمخبر للآخرة. لما ظهرت عيوب الدنيا عند القوم هربوا منها، ولما ظهرت عيوب الخلق عندهم غايروا عنهم وهربوا منهم واستوحشوا منهم

واستأنسوا بالصحاري والبراري والخراب والكهوف والجن والملائكة السائحين في الأرض.

والزاهد الكامل في زهده لا يبالي منهم لا يهرب منهم بل يطلبهم لأنه يصير عارفاً لله عزَّ وجلَّ، ومن عرف الله لا يهرب من شيء سواه، المبتدي يهرب من الفساق والعصاة والمنتهي يطلبهم، كيف لا يطلبهم وكل دوائهم عنده، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلا العارف، من كملت معرفته لله عزَّ وجلَّ صار دالاً عليه يصير شبكة يصطاد بها الخلق من بحر الدنيا يعطى القوة حتى يهزم إبليس وجنده.

ولهذا قال ﷺ: **«الفقر أسرع إلى من يحبني من سيل الماء إلى منتهاه»**[1].

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما زالت الدنيا علينا كدرة عسرة ما دام رسول الله ﷺ فينا، فلما قبض صبت الدنيا علينا صباً، فشرط حب الرسول الفقر، وشرط حب الله عزَّ وجلَّ البلاء.

وعن بعضهم أنه قال: وكل البلاء بالولاء، كيلا يدعي أحد محبة الله عزَّ وجلَّ مع كذبه ونفاقه وريائه.

(ويحك) عمرك يذوب وما عندك خبر، إلى متى هذا الإعراض عن الآخرة والإقبال على الدنيا؟.

(ويحك) رزقك لا يأكله غيرك، موضعك من الجنة والنار لا يسكنه غيرك، قد ملكتك الغفلة وأسرك الهوى، كل همك في الأكل والشرب والنكاح والنوم وبلوغ أغراضك.

(يا قوم) الدنيا تذهب، والأعمار تفنى، والآخرة قريبة منكم وما همكم لها، بل همكم للدنيا وجمعها، أنتم أعداء نعم الله عزَّ وجلَّ، إن كان منه

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل عن عبدالله بن مغفل بلفظ: **«فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه»**.

إليكم شر تظهرون، وإن كان منه إليكم خير تكتمون، إذا كتمتم نعم الله عزّ وجلّ ولم تشكروه عليها سلبها منكم، عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا أنعم الله عزّ وجلّ على عبده نعمة أحب أن تُرى عليه»**.

يا عالم إن أردت خير الدنيا والآخرة فاعمل بعلمك وعلم الناس، ويا غني إن أردت خير الدنيا والآخرة فواس الفقراء بشيء من مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: **«الناس عيال الله وأحب الناس إلى الله عزّ وجلّ أنفعهم لعياله»**[1].

اللهم وسع علينا في الدنيا وزهدنا فيها ولا تزوها عنا وترغبنا فيها فنهلك بطلبها، اللهم الطف بنا في أقضيتك وأقدارك.

يا طوبى لمن اعترف لله عزّ وجلّ بنعمه وأضاف الكل إليه وعرى نفسه وأسبابه، وحوله وقوته. العاقل الذي لا يحسب على الله عز جل عملاً ولا يطلب منه جزاء في جميع الأحوال.

المتزهد يخرج الدنيا من يديه والزاهد المتحقق في زهده يخرجها من قلبه، زهدوا في الدنيا بقلوبهم فصار الزهد طبعاً لهم، خالط ظواهرهم وبواطنهم، انطفت نارية طباعهم انكسرت أهويتهم، اطمأنت نفوسهم واستحال شرها.

(يا غلام) إذا صح لك الزهد في الدنيا فازهد في اختيارك وفي الخلق فلا تخافهم ولا ترجوهم وفي جميع ما تأمرك به نفسك فلا تقبل منها إلا بعد مجيء أمر الله عزّ وجلّ.

من تكون الدنيا بيده ولا يحبها، يملكها ولا تملكه، تحبه ولا يحبها، تعدو خلفه ولا يعدو خلفها، يستخدمها ولا تستخدمه يفرقها ولا تفرقه، قد صلح قلبه لله عزّ وجلّ، ولا تقدر الدنيا أن تفسده، فيتصرف فيها ولا تتصرف فيه ولهذا قال النبي ﷺ: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**[2].

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار عن أنس (مجمع الزوائد: ١٩١/٨).

(٢) أخرجه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص.

هذه الدنيا سوق بعد ساعة لا يبقى فيه أحد، عند مجيء الليل يذهب أهله منه، اجتهدوا أنكم لا تبيعون ولا تشترون في هذا السوق إلا ما ينفعكم غداة في سوق الآخرة فإن الناقد بصير.

(يا غلام) كن عاقلاً ولا تستعجل فإنه ما يقع بيدك شيء بعجلتك. أنت مشغول بزرع الدنيا لا بزرع الآخرة، وإن أردت الحق عزَّ وجلّ فعليك بترك الحظوظ والخلق وقد وصلت إليه فإذا صح لك هذا جاءت إليك الدنيا والآخرة والحظوظ والخلق تبعاً طوعاً وكرهاً لأن الأصل معك وكل الفروع تبع لهذا الأصل.

قال ﷺ: **«الدنيا سجن المؤمن»**[1] كيف يفرح المسجون في سجنه؟ ما يفرح ولكن بشره في وجهه وحزنه في قلبه.

المؤمن غريب في الدنيا، والزاهد غريب في الآخرة، والعارف غريب فيما سوى المولى، المؤمن مسجون في الدنيا وإن كان في سعة الرزق والمنزل، أهله يتقلبون في ماله وجاهه ويفرحون ويضحكون حواليه وهو في سجن باطن، بشره في وجهه وحزنه في قلبه عرف الدنيا فطلقها بقلبه أول ما طلقها طلقة واحدة لأنه خاف من تقليب الأعيان فبينما هو كذلك إذ فتحت الآخرة بابها فجاء بَرْقُ حُسْنِ وجهها فطلق الدنيا طلقة أخرى فجاءته الأخرى فعانقته فطلق الدنيا الطلقة الثالثة ووقف مع الآخرة بكليته، فبينما هو معها إذ برق نور الحق عزَّ وجلّ فطلق الأخرى قالت له الدنيا: لم طلقتني؟ قال لها: رأيت أحسن منك، وقالت له الأخرى: لم طلقتني؟ قال لها: لأنك محدثة مصورة فحينئذ تحققت معرفته لربه عزَّ وجلّ فصار حراً مما سواه غريباً في الدنيا والآخرة في غيبة عن الكل في محو الكل فتقف الدنيا في خدمته.

يا معجبين بأعمالهم ما أجهلكم! لولا توفيقه ما صليتم وصمتم وصبرتم، أنتم في مقام الشكر لا في مقام العجب، أكثر العباد معجبون بعبادتهم وأعمالهم، طالبون للحمد والثناء من الخلق راغبون في إقبال الدنيا

---

(١) أخرجه مسلم ومالك والترمذي عن أبي هريرة.

وأربابها عليهم وسبب ذلك وقوفهم مع نفوسهم وأهويتهم، الدنيا محبوبة النفوس والأخرى محبوبة القلوب والحق عزَّ وجلَّ محبوب الأسرار.

(يا قوم) إن كان ولا بد فتكون نفوسكم على باب الدنيا وقلوبكم على باب الآخرة وأسراركم على باب المولى إلى حين تنقلب النفس قلباً وتذوق مما ذاق، وينقلب القلب سراً ويذوق مما ذاق، وينقلب السر فناء فيه لا يذاق، ثم يحييه له لا لغيره فحينئذ يصير كماء كل درهم منه يقع في ألف مثقال من الشبه يجعلها ذهباً فهذا هو الغاية الكلية الأصلية الباقية. طوبى لمن عرف ما أقول وآمن به، طوبى لمن عمل به وأخلص فيه، طوبى لمن أخذ العمل بيده فقربه إلى المعمول له.

الدنيا سجن المؤمن فإذا نسي سجنه جاءه الفرج، المؤمنون في سجن، والعارفون في شكر فهم غائبون عن السجن قد سقاهم ربهم شراب الشوق إليه، شراب الأنس به، شراب الطلب له، شراب الغفلة عن الخلق واليقظة به، سقاهم هذه الأشربة فتبنجوا عن الخلق وفاقوا به ومعه، غابوا عن السجن والمسجونين قد عجل لهم في الدنيا نارهم وجنتهم، المنازعة نارهم والرضا بالقضاء جنتهم.

كان النبي ﷺ يقول: **«تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم»**(١).

يا جاهلاً بالدنيا لو عرفتها ما طلبتها. إن جاءت إليك أتعبتك، وإن تولت حسرتك، لو عرفت الله عزَّ وجلَّ لعرفت به غيره ولكنك جاهل به وبرسله وأنبيائه وأوليائه.

يا شيخاً في السن صبياً في الطبع إلى متى تعدو الصبوة طبعك خلف شكاسة الدنيا قد جعلتها لك همك؛ أما تعلم أن همك ما أهمك وأنك عبد من زمامك بيده، إن كان زمامك بيد الدنيا فأنت عبد لها، وإن كان زمامك بيد الأخرى فأنت عبد لها وإن كان زمامك بيد الحق عزَّ وجلَّ فأنت عبد له، وإن كان زمامك بيد نفسك فأنت عبد نفسك وإن كان زمامك بيد هواك

---

(١) سبق تخريجه.

فأنت عبد هواك، وإن كان زمامك بيد الخلق فأنت عبد الخلق فانظر إلى من تسلم زمامك.

(ويحك) الدنيا في اليد يجوز، في الجيب يجوز، ادخارها لسبب بنية صالحة يجوز، أما في القلب فلا يجوز، وقوفها على الباب يجوز أما دخولها إلى ما وراء الباب لا ولا كرامة لك، إذا فني هذا العبد عنه وعن الخلق صار كأنه مفقود محمولاً يتغير باطنه عند مجيء الآفات يوجد عند مجيء أمر الله عزّ وجلّ فيمتثله.

كما قيل: الدنيا لا تقر فيها عين حكيم، عين ذاكر للموت، من كان السبع بحذائه فاتحاً فمه قريباً إليه كيف يستقر قراره وتنام عينه، يا غافلون القبر فاتح فمه، سبع الموت وثعبانه فاتحان فمهما، سياف سلطان القدر بيده السيف وهو منتظر الأمر من كل ألف ألف واحد يكون على هذه الحكمة مستيقظ بلا غفلة.

(ويحك) لا يغرك مقالات الناس أنت تعرف ما أنت فيه وعليه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: ١٤].

ما أحسنك عند العوام وما أقبحك عند الخواص، يا راغبين في الدنيا فرحين بها وهم يدعون العقل والضبط أما سمعتم قول ربكم عزّ وجلّ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾ [الحديد: ٢٠].

اللعب واللهو والزينة للصبيان الجهال لا للرجال العقلاء، قد أعلمكم أنها للجهال الناقصي العقول، تفكروا في الدنيا والآخرة ورجحوا بينهما.

(يا قوم) أنتم تَغدُون خلف الدنيا حتى تعطيكم وهي تعدو خلف أولياء الله حتى تعطيهم تقف بين أيديهم ورأسها مطأطئ، اضرب نفسك بصمصامة التوحيد والبس لها خوذة التوفيق وخذ لها رمح المجاهدة وترس التقوى وسيف اليقين فتارة مطاعنة وأخرى مضاربة، لا تزال كذلك حتى تذلل لك وتصير راكباً لها لجامها، بيدك تسافر بها براً وبحراً فحينئذ يباهي بك ربك عزّ وجلّ.

(يا غلام) قصر أملك وقلل حرصك، صل صلاة مودع، لا ينبغي لمؤمن أن ينام إلا ووصيته مكتوبة تحت رأسه فإن أيقظه الحق عزَّ وجلَّ في عافية كان مباركاً وإلا فيجد أهله وصيته ينتفعون بها بعد موته ويترحمون عليه، يكون أكلك أكل مودع ووجودك بين أهلك وجود مودع ولقاؤك لإخوانك لقاء مودع فأوجد في قلبك أنا مودع كيف لا يكون كذلك من أمره في يد غيره إنما آحاد أفراد من الخلق يطلعون على ما يكون لهم ومنهم وأي وقت يموتون وهو مخزون في قلوبهم يرون ذلك عياناً كما ترون أنتم هذه.

(الزهد) عمل ساعة والورع عمل ساعتين والمعرفة عمل الأبد، إذا قايسنا أحوالك بأحوال من تقدم لم نجدك في شيء منها أطعت نفسك فناظرتك.

إن فطمتها عن الحرام والشبهات المشتبهات سكنت ثائرتها، لو قللت من المباح ذابت عدة فضولها وانقلعت الشهوات منها، ونبتت أشجار الخوف والرجاء فيها واستضاءت ظلمة باطنها واطمأنت إلى قلبها نوديت:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

العامي ينادي بها عند الموت أين أنت من سماط القرب من مخدع الحضرة:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٧].

عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن هذه القلوب لتصدأ، وإن جلاءها قراءة القرآن وذكر الموت وحضور مجالس الذكر**»(١).

القلب يصدأ، فإن تداركه صاحبه بما وصف النبي ﷺ وإلا انتقل إلى السواد، يسود لبعده عن النور، يسود لحبه الدنيا والتحويز عليها من غير ورع لأن من تمكن من قلبه حب الدنيا زال ورعه فيجمعها من حلال وحرام.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر.

بداية أمر القوم الكسب يأخذون من الدنيا على قدر الحاجة بيد الشرع حتى إذا عجزت مبانيهم عن الكسب وجاء التوكل فختم على قلوبهم وقيد جوارحهم، جاءتهم أقسامهم من الدنيا مهنأة مكفاة من غير تعب ولا عناء، الواحد من المقربين في الآخرة يتلبس بنعيم الجنة على غير إرادة منه، بل يوافق الحق عزّ وجلّ في ذلك كما وافقه في التلبس بالأقسام التي كانت في الدنيا، يوفيهم أقسامهم دنيا وآخرة لأنه ليس بظلام للعبيد.

(يا غلام) ما دام حب الدنيا في قلبك لا ترى شيئاً من أحوال الصالحين، ما دمت مكدياً من الخلق مشركاً بهم لا تنفتح عينا قلبك، لا كلام حتى تزهد في الدنيا والخلق، كن مجتهداً ترى ما لا يراه غيرك تخرق لك العادة، إذا تركت ما هو في حسابك جاءك ما هو في غير حسابك، إذا اعتمدت على الحق عزّ وجلّ واتقيته خلوة وجلوة رزقك من حيث لا تحتسب، اترك أنت يعطيك هو، ازهد أنت يرغبك هو، في البداية الترك وفي الآخرة الأخذ.

أما سمعت قوله ﷺ: **«حب الدنيا رأس كل خطيئة»**(١).

ما دمت مبتدئاً معتداً طالباً سالكاً فحب الدنيا في حقك رأس كل خطيئة(٢).

الدنيا عدوّة لله وعدوة لأوليائه وعدوة لأعدائه. أما عداوتها لله فإنها قطع الطريق على عباد الله، ولذلك لم ينظر الله إليها منذ خلقها.

وأما عداوتها لأولياء الله، فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها.

وأما عداوتها لأعداء الله، فإنها استدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بإسناد حسن إلى الحسن البصري مرسلاً.

(٢) الفتح الرباني: (١٥، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٦٣، ٧٢، ٨١، ٨٧، ٩٤، ٩٥، ١٠٦، ١٠٩، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٤٩، ١٦٦، ١٧٤، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٦، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٦، ٢١٩، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٣٥٠).

بشبكتها حتى وثقوا بها، وعوّلوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها، فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد. ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. بل يقال لهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٦].

وإذا عظمت غوائل الدنيا وشرورها فلا بد أولاً من معرفة حقيقة الدنيا وما هي؟ وما الحكمة في خلقها مع عداوتها؟ وما مدخل غرورها وشرورها؟ فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ويوشك أن يقع فيه.

رُوي أن رسول الله ﷺ مرّ على شاة ميتة فقال: **«أترون هذه الشاة هيّنة على أهلها؟»** قالوا: من هوانها ألقوها. قال: **«والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[(١)]، **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**[(٢)]. **«الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها»**[(٣)]. **«إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له، وعليها يعادي من لا علم له، وعليها يحسد من لا فقه له، ولها يسعى من لا يقين له»**[(٤)]، **«من أحب دنياه أضرّ بآخرته، ومن أحب آخرته أضرّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى»**[(٥)].

قال علي رضي الله عنه: «من جُمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً، أولها: من عرف الله وأطاعه، وعرف الشيطان فعصاه، وعرف الحق فاتبعه، وعرف الباطل فاتقاه، وعرف الدنيا فرفضها، وعرف الآخرة فطلبها».

---

(١) أخرجه ابن ماجة والحاكم من حديث سهل بن سعد.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الترمذي وحسّنه.

(٤) أخرجه أحمد من حديث عائشة بسند جيد.

(٥) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه.

وقال أيضاً: «من نافسك في دينك فنافسه ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره». وقال الفضيل: «لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى؟ وقال لقمان لابنه: «يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً».

وقال مالك بن دينار: «اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء»، (يعني الدنيا).

وقال بعضهم: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا».

وقال بشر: من سأل الله الدنيا، فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه.

قال بعضهم: «يا أيها الناس اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وجل، ولا تغتروا بالأمل ونسيان الأجل، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدارة خداعة، قد تزخرفت لكم بغرورها وفتنتكم بأمانيها، وتزينت لخطّابها فأصبحت كالعروس المجلية، العيون إليها ناظرة والقلوب عليها عاكفة والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشق لها قتلت، ومطمئن إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنها دار كثير بوائقها وذمها خالقها، جديدها يبلى، وملكها يفنى، وعزيزها يُذل، وكثيرها يقل، ودّها يموت، وخيرها يفوت، فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم».

فالدنيا سريعة الفناء قريبة الانقضاء، تعِد بالبقاء ثم تخلف في الوفاء، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة، وهي سائرة سيراً عنيفاً ومرتحلة ارتحالاً سريعاً، ولكن الناظر إليها قد لا يحس بحركتها فيطمئن إليها، وإنما يحس عند انقضائها، ومثالها الظلّ فإنه متحرك ساكن، متحرك في الحقيقة ساكن الظاهر، لا تدرك حركته بالبصر الظاهر بل بالبصيرة الباطنة.

اعلم أن الأحوال ثلاثة:

حالة لم تكن فيها شيئاً وهي ما قبل وجودك إلى الأزل.

وحالة لا تكون فيها مشاهداً للدنيا وهي ما بعد موتك إلى الأبد.

وحالة متوسطة بين الأبد والأزل وهي أيام حياتك في الدنيا، فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد، حتى تعلم إنه أقل من منزل قصير في سفر بعيد. ولذلك قال ﷺ: «**مالي وللدنيا! وإنما مثلي ومثل الدنيا، كمثل راكب سار في يوم صائف فرفعت شجرة فقال تحت ظلها ساعة ثم راح وتركها**».

وقيل: «مثل طالب الدنيا، مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شرباً، ازداد عطشاً حتى يقتله».

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا». فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: «انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم»[١].

❀ ❀ ❀

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٧٢ ـ ١٧٦).

الموقف السادس عشر:

الحياء

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؟ [العلق: ١٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩].

وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مَرَّ برجل ـ وهو يعظ أخاه في الحياء ـ فقال: «**دَعْه، فإن الحياء من الإيمان**»[١].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة ـ أو بضع وستون شعبة ـ فأفضلها قول لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من شعب الإيمان**»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خِدْرِها. فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٧٦٧): ٢٢٦٨/٥.

(٢) رواه مسلم (مسند الشهاب: ٧٦/١).

(٣) صحيح ابن حبان (٣٨٨/١).

(٤) رواه مسلم (١٨٠٩/٤) برقم: (٢٣٢٠).

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»[1].

وفي الترمذي مرفوعاً: «**استحيوا من الله حق الحياء**». قالوا: إنا نستحي يا رسول الله. قال: «**ليس ذلكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى. وليحفظ البطن وما حوى. وليذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا. فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء**».

وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء. وقلة الحياء من موت القلب والروح. فكلما كان القلب أحيا كان الحياء أتم.

قال الجنيد ـ رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء. ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء. وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح. ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق.

وقال السري: إن الحياء والأنس يطرقان القلب. فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب. وجمود العين. وقلة الحياء. والرغبة في الدنيا. وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعاً استحيى الله منه وهو مذنب.

وقد قسم «الحياء» على عشرة أوجه: حياء جناية وحياء تقصير. وحياء إجلال. وحياء كرم. وحياء حشمة. وحياء استصغار للنفس واحتقار لها. وحياء محبة. وحياء عبودية. وحياء شرف وعزة. وحياء المستحي من نفسه.

فأما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فرَّ هارباً في الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٤/٣) برقم: (٣٢٩٦).

قال الله تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا رب. بل حياء منك[1].

وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذي يسبحون الليل والنهار لا يفترون، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك! ما عبدناك حق عبادتك.

وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة. وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

وحياء الكرم: كحياء النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا الجلوس عنده. فقام واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا.

وحياء الحشمة: كحياء علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه.

وحياء الاستحقار، واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عزّ وجلّ حين يسأله حوائجه، احتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها.

وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه. ولا يدري ما سببه. وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومفاجأته له روعة شديدة.

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها. فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة.

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان. فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة. حتى أن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي بن كعب (تفسير ابن كثير: ٨١/١).

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون. فيجد نفسه مستحياً من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى. وهذا أكمل ما يكون من الحياء. فإن العبد إذا استحيى من نفسه. فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

وأول الحياء: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه. فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة. ويحمله على استقباح الجناية. ويسكته عن الشكوى.

فإن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه. يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة.

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة. فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف. ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله. فيكون قد شكا الله إلى خلقه.

ثم أرفع منه: حياء يتولد من النظر في علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة. ويربطه بروح الأنس. ويُكرِّه إليه ملابسة الخلق.

والنظر في علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. فإن المعية نوعان:

عامة: وهي معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧].

خاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣] وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

القصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة. وكلما ازداد حباً ازداد قرباً. فالمحبة بين قربين: قرب قبلها، وقرب بعدها.

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله، تعلقاً لازماً لا يفارقه. بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة.

ولا ريب أن هذا يُكَرِّه إليه ملابسة الخلق. بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه، وقرة عينه بحبه وقربه منه.

ولكن لما كان «الحياء» من شيم الأشراف، وأهل الكرم والنفوس الزكية: كان صاحبه أحسن حالاً من أهل الخوف ومطالعة الوعيد.

لأن في الحياء من الله ما يدل على مراقبته وحضور القلب معه.

ولأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف.

فمن وازعه الخوف: قلبه حاضر مع العقوبة. ومن وازعه الحياء: قلبه حاضر مع الله. والخائف مراع جانب نفسه وحمايتها. والمستحي مراع جانب ربه وملاحظ عظمته. وكلا المقامين من مقامات أهل الإيمان.

غير أن الحياء أقرب إلى مقام الإحسان، وألصق به، إذ أنزل نفسه منزلة من كأنه يرى الله. فنبعت ينابيع الحياء من عين قلبه وتفجرت عيونها[1].

ويقول ابن عطاء: العلم الأكبر: الهيبة والحياء، فإذا ذهبت الهيبة والحياء لم يبق فيه خير.

وقيل: من علامات المستحيي أن لا يرى بموضع يُستحيا منه.

وفي بعض الكتب: ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أرده، ويعصيني فلا يستحيي مني[2].

قال الشيخ القشيري: واعلم أن الحياء يوجب التذويب، فيقال: الحياء ذوبان الحشا لاطلاع المولى.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٣٨٩ ـ ٣٩٣، ٣٥٨).

(٢) لم أقف على نصه، ومعناه صحيح يقويه الحديث القدسي: «يا عبدي خيري إليك نازل وشرّك إلي صاعد».

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: الحياء ترك الدعوى بين يدي الله عزَّ وجلّ[(١)].

قلت: قد أكثر الناس في الحياء، فكل مداهن ومراء يدعي الحياء، والصادق يدعي الحياء فهل من الحياء ضعف ومنه خير؟.

قال: الحياء كله خير، كما جاء عن النبي ﷺ.

وقال عليه السلام: **«إن الله يحب الحيي الحليم»**[(٢)].

فالحياء: فعل من الطبيعة الكريمة، يختص به من يشاء من خلقه، ينفع العاصي والمطيع.

أما المطيع فقد زايل كل خلق دنيء، وأما الفاسق فلم يجمع مع فسقه فسوقاً وتهتكاً.

وقد جاء الحديث: **«إن العصاة إذا تركوا الحياء وتهتكوا، فلم يُغيِّر عليهم، عاقب الله عزَّ وجلّ العامة والخاصة»**[(٣)].

قال أبو بكر: عن النبي ﷺ أنه قال: **«إذا ظهر السوء فلم يُغَيِّرهُ الناس، أوشك أن يعمهم الله بعقاب»**[(٤)].

ومن ذلك ما يروى عن النبي ﷺ أن رجلاً من أهل اليمن أراد أن يشرب سويقاً عند النبي ﷺ، فاستتر بثوبه من الناس، فقال رجل: ما هذا؟ فقال النبي ﷺ: **«هذا الحياء يعطيه الله قوماً ويمنعه آخرين»**[(٥)].

ولكن الصادق إذا بُلي بالذنب تستر لذلك حياء لغير طلب الرياء، ولما جاء عن الله عزَّ وجلّ: أنه «لا يحب إظهار المعاصي» وعلى ما أجمع عليه

---

(١) الرسالة القشيرية (٢١٥ ـ ٢١٨).

(٢) أخرجه أبو داوود (الباب: ٢٣)، والنسائي (الباب السابع: كتاب الغسل) مسند أحمد (٢٢٤/٤) بألفاظ متقاربة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٢/٤).

(٤) مسند أحمد (٤١٨/٦).

(٥) لم أقف على نصه ويقويه حديث: ألا إن لكل دين خلق وخلق الإسلام الحياء.

المسلمون أنه من أظهر سوءاً فهو المتهتك، وهو أعظم عند الله عزّ وجلّ ممن استتر بستر الله تعالى[1].

(يا قوم) اعملوا للقاء الحق عزّ وجلّ واستحيوا منه قبل لقائه، حياء المؤمن من الله عزّ وجلّ من خلقه إلا فيما يرجع إلى الدين وخرق حدود الشرع فإنه لا يحل له أن يستحي بل يتواقح في دين الله عزّ وجلّ ويقيم حدوده ويمتثل أمره عزّ وجلّ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢].

كونوا عقلاء ولا تسيئوا أدبكم بين يدي الحق عزّ وجلّ تأيدوا وتحققوا وأنيبوا وتفكروا، أنتم اشتغلتم بما يزول وفاتكم ما لا يزول.

قل واحياء واويلاه وافضيحتاه فكيف يطلع الحق عزّ وجلّ على جميع أفعالي في ليلي ونهاري وهو ناظر وأنا لا أستحي من نظره، تب من وقاحتك عليه وتقرب إليه بأداء الفرائض والانتهاء عن النواهي، اترك الذنوب الظاهرة والباطنة وافعل الخيرات الظاهرة فبذلك تصل إلى بابه وتقرب منه ويحبك ويحببك إلى خلقه ويحبك دون خلقه ثم ينقل ذلك إلى خلقه[2].

❀❀❀

(١) الرعاية لحقوق الله (٢٧٩ ـ ٢٨٢).

(٢) الفتح الرباني (١٠٧، ١٧٤، ٢٢٩).

الموقف السابع عشر:
الصدق

قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١].

وقال جل وعلا: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ٥٤].

وقال رسول الله ﷺ: **«إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً»**[١].

والصدق درجات، الأولى: صدق اللسان: وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق.

الثانية: الصدق في النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى فإن ما زجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية.

---

(١) متفق عليه من حديث أبي مسعود.

الثالثة: صدق العزم: وهو الجزم فيه بقوة. والصادق فيه هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات كمن يقول إن رزقني الله مالاً تصدقت بشطره.

الرابعة: الصدق في الأعمال: وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به.

الخامسة: الصدق في مقامات الدين: وهو أعلى الدرجات، كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والحب والتوكل، فإن هذه الأمور لها مبادئ ينطلق عليها الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق، فالصادق المحقق من نال حقيقتها، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمّي صادقاً.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[1]. [الحجرات: ١٥].

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين. وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فهم الرفيق الأعلى ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ ولا يزال الله يُمدُّهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحساناً منه وتوفيقاً. ولهم مرتبة المعية مع الله. فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه. إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه: ذروة سَنام الصديقية، سُمي (الصديق) على الإطلاق، و«الصديق» أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٣٩٥ ـ ٣٩٨).

وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق. فقال ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين. فقال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق. فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت، المتصل بالله، الموصل إلى الله. وهو ما كان به وله، من الأقوال والأعمال. وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه. ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي - مرفوعاً - من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**الصدق طمأنينة. والكذب ريبة**».

قال عبدالواحد بن زيد: الصدق الوفاء لله بالعمل.

وقيل: موافقة السر النطق.

وقيل: استواء السر والعلانية. يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته. كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه.

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة.

وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة. والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة.

لكن مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا. فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي.

وأيضاً: فإن الصادق مطلوبه رضا ربه، وتنفيذ أوامره، وتتبع محابه. فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها.

وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره.

وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه، أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب.

وقيل: ثلاث لا تخطئ الصادق: الحلاوة، والملاحة، والهيبة[(١)].

قال أحمد بن خضرويه: من أراد أن يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق، فإن الله تعالى مع الصادقين.

وقيل: الصدق موافقة السر النطق.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود من صدقني في سريرته، صدقته عند المخلوقين في علانيته.

وقال بعضهم: من لم يؤدِّ الفرض الدائم، لا يُقبل منه الفرض المؤقت. قيل: ما الفرض الدائم؟ قال: الصدق[(٢)].

عن بعضهم رحمة الله عليه أنه قال: الصدق سيف الله عزَّ وجلّ في أرضه. ما وضع على شيء إلا قطعه.

(يا غلام) كن بين يدي الحق عزَّ وجلّ والآفات تنزل عليك، أنت قائم على قدم محبته لا تتغير.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٣٩٥ ـ ٤٠١).

(٢) الرسالة القشيرية: (٢١٠ ـ ٢١٧).

لا تزيلك الرياح والأمطار ولا تخرقك الرماح تكون ثابتاً ظاهراً وباطناً قائماً في مقام لا خلق فيه، لا دنيا فيه ولا آخرة فيه، لا حقوق فيه ولا حظوظ فيه، لا ألم فيه، لا كيف فيه، ولا تتغير بالقلة والكثرة لا بالذم ولا بالحمد لا بالإقبال ولا بالإدبار.

الصبر والإخلاص والصدق أساس لما قد شرحت لك.

عليك بصدق الحديث لا تتأول فإن المتأول غادر، لا تخف الخلق ولا ترجهم فإن ذلك من ضعف الإيمان على همتك وقد علوت. إن الله عزّ وجلّ يعطيك على قدر همتك وصدقك وإخلاصك.

إذا حققت حالك رأيت رجال الحق عزّ وجلّ. وقد رأيت هناك الصدق يحملك ويقدمك ويوقظك والكذب يردك وينومك. كن مع الصادقين حتى تعامل بما عوملوا به. فالصدق هو التوحيد والإخلاص والتوكل على الله عزّ وجلّ.

(يا قوم) الحق عزّ وجلّ يتولى تربية قلوب الصديقين من حال صغرهم إلى كبرهم كلما اختبرهم بشيء من البلايا ورأى صبرهم ازداد قربهم منه، يا خيبة من يؤذي قلوبهم، يا مقت الله عزّ وجلّ له، يا حرمان الله عزّ وجلّ له، يا غضب الله عزّ وجلّ له.

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

ملائكتكم تتعجب من وقاحتكم، تتعجب من كثرة كذبكم في أحوالكم، تتعجب من كذبكم في توحيدكم، كل حديثكم في الغلاء والرخص، وأحوال السلاطين والأغنياء، أكل فلان لبس فلان تزوج فلان استغنى فلان افتقر فلان، كل هذا هوس ومقت وعقوبة. توبوا واتركوا ذنوبكم وارجعوا إلى ربكم دون غيره، اذكروه وانسوا غيره[١].

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني: (١٠٣، ١٣٧، ١٣٨، ٢٠٦، ٢٣٧، ٢٩٦).

الموقف الثامن عشر:
صدق النية

النية: إرادة العبد أن يعمل بمعنى من المعاني، إذا أراد أن يعمل ذلك العمل لذلك المعنى، فتلك الإرادة نيّة، إما لله عزّ وجلّ وإما لغيره، لقول النبي ﷺ: **«وإنما لكل امرئ ما نوى»**، لأنها نيّة للمعنيين: نية أن يعمل العمل ونية أن يعمله لمعنى من المعاني، دنيا أو آخرة.

فالنية في العمل لله عزّ وجلّ: أن يريد به ثواب الله عزّ وجلّ لا يريد غيره[1].

فالعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، وهو للنطاق كفاء، ومع العصيان سواء، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء.

وقال رسول الله ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات. ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»**[2].

وفي حديث أنس بن مالك، لما خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال: **«إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة»**.

---

(١) الرعاية لحقوق الله: (٢٤٦).

(٢) متفق عليه من حديث عمر.

قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟.

قال: «**حبسهم العُذر فشركوا بحسن النية**»[1].

وقال: «**يُبعث كل عبد على ما مات عليه**»[2].

فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى».

وقال الحسن: «إنما خلّد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات»[3].

(يا غلام) إذا تكلمت فتكلم بنية صالحة، وإذا سكت فاسكت بنية صالحة، كل من لم يقدم النية قبل العمل فلا عمل له[4].

❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه البخاري وأبو داود من حديث أنس.

(٢) رواه مسلم من حديث جابر.

(٣) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٣٨٦ ـ ٣٨٨).

(٤) الفتح الرباني: (١١٩).

الموقف التاسع عشر:
القناعة

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال كثير من المفسرين: الحياة الطيبة في الدنيا هي القناعة.

عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**القناعة كنز لا يفنى**»[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كن ورعاً تكن أعبد الناس، وكن قانعاً تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً، وأقلل الضحك إن كثرة الضحك تميت القلب**»[٢].

وقال بشر الحافي: القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن.

يقول أبو سليمان الداراني: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد، هذا أول الرضا وهذا أول الزهد.

وقال أبو بكر المراغي: العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (السيوطي: الجامع الصغير برقم: ٦١٩٣).

(٢) رواه البيهقي عن أبي هريرة (الكنز: ٢٤٣/١٦ برقم: ٤٤٣١٥).

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨] يعني: القناعة.

وقال محمد بن علي الترمذي: القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق.

ويقال: القناعة الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بحاصل.

وفي الزبور: القانع غني ولو كان جائعاً.

وقيل: وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع: العز في الطاعة، والذل في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

وقيل: من قنع استراح من الشغل واستطال على الكل.

وقال محمد الكتاني: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعز والمروءة.

وقيل: من تابعت عيناه ما في أيدي الناس طال حزنه.

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣] يعني البخل والطمع، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ يعني بالسخاء والإيثار.

وقيل لأبي يزيد البسطامي: بماذا وصلت إلى ما وصلت؟ فقال: جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة، ووضعتها في منجنيق الصدق، ورميت بها في بحر اليأس فاسترحت[(١)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»**[(٢)]. **«ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»**[(٣)].

---

(١) الرسالة القشيرية: (١٥٩ ـ ١٦٢).
(٢) رواه مسلم من حديث ابن عمر.
(٣) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: «قد جربنا العيش كله، لينه من شديده، فوجدناه يكفي منه أدناه».

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عظني وأوجز فقال: «**إذا صليت فصل صلاة مودع، ولا تحدثن بحديث تعتذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس**»[1].

قال عمر رضي الله عنه: «إن الطمع فقر وإن اليأس غنى وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم».

وقال سفيان: «خير دنياكم ما لم تبتلوا به وخير ما ابتليتم به خرج من أيديكم».

وقال ابن مسعود: «ما من يوم إلا وملك ينادي: يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك».

وكتب بعض بني أمية إلى أبي حازم يعزم عليه إلا رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: قد رفعت حوائجي إلى مولاي، فما أعطاني منها قبلت وما أمسك عني قنعت».

وقال بعضهم: لو قيل للطمع: من أبوك؟ قال: الشك في المقدور، ولو قيل له: ما حرفتك؟ قال: اكتساب الذل، ولو قيل له: ما غايتك؟ قال: الحرمان.

وقيل أيضاً: «الطمع يذل الأمير، واليأس يعز الفقير».

اعلم أن الدواء الذي يكتسب به صفة القناعة مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل. ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: الاقتصاد في المعيشة، والرفق في الإنفاق.

---

(١) أخرجه ابن ماجة والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص.

قال النبي ﷺ: **«ما عال من اقتصد»**[1] وفي حديث آخر: **«التدبير نصف المعيشة»**[2]، **«ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب»**[3].

الثاني: إذا تيسر له في الحال ما يكفيه، فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الأمل، واليقين بأن رزقه لا بد أن يأتيه، وليعلم أن الشيطان يعده الفقر. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء، وما في الطمع والحرص من الذل.

الرابع: أن يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى وأراذل الناس والحمقى منهم، ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والصالحين، ويسمع أحاديثهم ويطالع أخبارهم، ويخير عقله بين مشابهة أرذال العالمين أو صفوة الخلق عند الله تعالى، حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير.

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر، وينظر إلى ثواب الفقر، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى من دونه في الدنيا، وإلى من فوقه في الدين. لقول رسول الله ﷺ[4]: **«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**[5].

اقنع باليسير ووطن نفسك عليه، فإن جاء الكثير من يد السابقة والعلم كنت فيه. إذا قنعت باليسير ما تهلك نفسك ولا يفوتها ما قسم لها.

علم أولادك الصنائع وتفرغ لعبادة الله عزّ وجلّ فإن الأهل والولد

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود.
(٢) رواه الديلمي من حديث أنس ووثقه ابن معين.
(٣) أخرجه البيهقي والطبراني وأبو نعيم من حديث أنس.
(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
(٥) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (١٨٣ ـ ١٨٦).

لا يغنون عنك من الله شيئاً، ألزم نفسك وأهلك وولدك القناعة بما لا بد لك منه وتفرغ أنت وهم لطاعة مولاكم عزّ وجلّ، فإن كان لكم في الغيب سعة الرزق فهي تأتي في وقتها المقدر عند الله تراها من الحق عزّ وجلّ.

المؤمن القانع إذا احتاج إلى شيء من الدنيا دخل إلى ربه عزّ وجلّ بأقدام سؤاله وتضرعه وذله وتوبته، فإن أعطاه الذي يريد شكره على عطائه وإن لم يعطه وافقه في المنع وصبر معه على إرادته من غير اعتراض ولا منازعة.

يا من قد فضحه حرصه لو اجتمعت أنت وأهل الأرض على أن تجلب لك شيئاً لم يقسم لك لم تقدر فدع عنك الحرص على طلب ما قد قسم لك وطلب ما لم يقسم لك، كيف يحسن العاقل أن يضيع زمانه فيما قد فرغ منه.

إن الخير والشر بيده يجريهما على أيدي الخلق فإذا تحققت صرت سفيراً بين الخلق والخالق، ترى العصاة لربهم عزّ وجلّ بعين الجنون والجهل فتداريهم وتصبر على أذاهم وجهلهم[1].

❀❀❀

(١) الفتح الرباني: (٨٦، ١٠٢، ٢٠٤).

الموقف العشرون:
فضل التواضع وذم الكبر والغرور

قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] أي سكينة ووقارا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين. قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمد بن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

و«الهون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين. و«الهون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان. والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد. ولا يبغي أحد على أحد»**.

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**.

وفي الصحيحين مرفوعاً: **«ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر»**.

وفي حديث احتجاج الجنة والنار: **«أن النار قالت: مالي لا يدخلني**

إلا الجبارون، والمتكبرون؟ وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطهم» وهو في الصحيح[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد وعن أبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ **«يقول الله عزَّ وجلّ: العِزة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني عذبته»**.

وفي جامع الترمذي مرفوعاً عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: **«لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في ديوان الجبارين. فيصيبه ما أصابهم»**.

وكان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وكانت الأمَة تأخذ بيده ﷺ. فتنطلق به حيث شاءت.

وكان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث.

وكان ﷺ يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط.

وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب دعوة من دعاه. ولو إلى أيسر شيء.

وكان ﷺ هين المؤنة، لين الخلق. كريم الطبع. جميل المعاشرة. طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذِلَّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين، ليّن الجانب لهم.

وقال ﷺ: **«ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ - أو تحرم عليه النار - تحرم على كل قريب هَين لَيّن سهل»** رواه الترمذي. وقال: حديث حسن.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي برقم: ١١٥٢٢: ٤٦٨/٦ عن أبي هريرة.

سئل الفضيل بن عياض عن المتواضع؟ فقال: يخضع للحق، وينقاد له. ويقبله ممن قاله.

وقيل: التواضع أن لا ترى لنفسك قيمة. فمن رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب. وهذا مذهب الفضيل وغيره.

وقال الجنيد بن محمد: هو خفض الجناح، ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: هو قبول الحق ممن كان. والعِزُّ في التواضع. فمن طلبه في الكبر فهو كتطلب الماء من النار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف في التواضع. والعز في التقوى. والحرية في القناعة.

وقال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عاتقه قِرْبة ماء، فقلت: «يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين. دخلت نفسي نخوة. فأردت أن أكسرها».

ومرّ الحسن على صبيان معهم كِسر خبز. فاستضافوه. فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله. فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم؛ لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه.

ويذكر أن أبا ذر رضي الله عنه عيَّر بلالاً رضي الله عنه بسواده، ثم ندم. فألقى بنفسه. فحلف: لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خَدِّي بقدمه. فلم يرفع رأسه حتى فعل بلال.

وروح التواضع: أن يتواضع العبد لصولة الحق.

بأن يتلقى سلطان الحق بالخضوع له، والذل، والانقياد، والدخول تحت رقِّه. بحيث يكون الحق متصرفاً فيه تصرف المالك في مملوكه. فبهذا يحصل للعبد خُلق التواضع. ولهذا فسر النبي ﷺ الكبر بضده. فقال: **«الكبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس»**[1] فبطر الحق: رَدُّه وجحده، والدفع في

---

(١) صحيح مسلم عن ابن مسعود برقم (٩١): ٩٣/١.

صدره. كدفع الصائل. و«غمط الناس» احتقارهم، وازدراؤهم. ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم. وجحدها، واستهان بها.

ولما كان لصاحب الحق مقال وصولة: كانت النفوس المتكبرة لا تُقِرُّ له بالصولة على تلك الصولة التي فيها، ولا سيما النفوس المبطلة. فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. فكانت حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها. فلا يقابلها بصولته عليها.

ولا تصح لك درجة «التواضع» حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض، فتقبله من عدوك كما تقبله من وليك. وإذا لم ترد عليه حقه، فكيف تمنعه حقاً له قبلك؟ بل حقيقة «التواضع» أنه إذا جاءك قبلته منه. وإذا كان له عليك حق أديته إليه. فلا تمنعك عدواته من قبول حقه، ولا من إيتائه إياه.

وكذلك من أساء إليك ثم جاء يعتذر عن إساءته فإن «التواضع» يوجب عليك قبول معذرته، حقاً كانت أو باطلاً. وتكِلُ سريرته إلى الله تعالى. كما فعل رسول الله ﷺ في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو. فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه. فقبل أعذارهم. ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

وعلامة الكرم والتواضع: أنك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه. وقل: يمكن أن يكون الأمر كما تقول. ولو قضي شيء لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك.

وتمام التواضع: أن لا يرى العابد لنفسه حقاً على الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمتى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت. ولا ينافي هذا ما أحقه سبحانه على نفسه، من إثابة عابديه وإكرامهم[1].

وقيل: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٤٢٧ ـ ٤٣٣).

سمعت أبا سعيد بن الأعرابي يقول: بلغني أن سفيان الثوري قال: أعز الخلق خمسة أنفس: عالم زاهد، وفقيه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكر، وشريف سني.

وقيل ركب زيد بن ثابت فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه، فقال: مه، يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا، فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبّلها، وقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ.

ورؤي أبو هريرة وهو أمير المدينة المنورة، وعلى ظهره حزمة حطب، وهو يقول: طرّقوا للأمير.

وقال شعيب بن حرب: بينما كنت في الطواف إذ لكزني إنسان بمرفقه، فالتفت إليه فإذا هو الفضيل بن عياض، فقال: يا أبا صالح إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر مني فبئسما ظننت(١).

قال رسول الله ﷺ: **«ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»**(٢).

وقال أيضاً: **«الكرم التقوى والشرف والتواضع واليقين الغنى»**(٣).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«أربع لا يعطيهن الله إلا من يحب: الصمت وهو أول العبادة، والتوكل على الله والتواضع، والزهد في الدنيا»**(٤).

وقالت عائشة رضي الله عنها: «إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات، التواضع».

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو؟ فقال: «أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ولو سمعته من أجهل الناس قبلته».

---

(١) الرسالة القشيرية: (١٤٧ ـ ١٥٠).

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه الحاكم من رواية الحسن بن سمرة.

(٤) أخرجه الطبراني والحاكم من حديث أنس.

وقال ابن المبارك: «رأس التواضع أن تضع نفسك عند من دونك في نعمة الدنيا حتى تعلمه أنه ليس لك بدنياك عليه فضل».

وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك في الدنيا حتى تعلمه أنه ليس له بدنياه عليك فضل.

وقال الفضيل: «من أحب الرياسة لم يفلح أبداً».

وقال أبو سليمان: «لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه».

وقال أبو زيد: «ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، وتواضع كل إنسان على قدر معرفته بربه عزَّ وجلَّ ومعرفته بنفسه».

وقال عروة بن الورد: «التواضع أحد مصايد الشرف وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع». وقال أبو بكر الصديق: «وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع».

قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته**»(١). فالكبر والعجب داءان مهلكان، والمتكبر والمعجب سقيمان مريضان، وهما عند الله ممقوتان بغيضان، وقد ذم الله الكبر في موضع من كتابه وذمّ كل جبار متكبر فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(٢).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صور الذر تطؤهم الناس لهوانهم على الله تعالى**»(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود.

(٣) أخرجه البزار من حديث أبي هريرة وإسناده حسن.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير».

وقال محمد بن الحسين بن علي: «ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قَلَّ أو كثر».

الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر.

فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح. وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. وخلق الكبر موجب للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق، والانقياد له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين.

قال الله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وفي معالجته مقامان:

أحدهما: استئصال أصله، وقلع شجرته من مغرسها في القلب.

الثاني: دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره.

مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فأرباب البصائر قلوبهم كمشكاة فيها مصباح، والمغترون قلوبهم كظلمات في بحر لجيّ.

والمغرور هو الذي تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً، والشيطان دليلاً ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢].

فالله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال أيضاً: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤].

وقد قال رسول الله ﷺ: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»**(١).

ومن العصاة من يغتر فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء: «من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا الغفران مع الإصرار، فهو مغرور»(٢).

(يا قوم) دعوا التكبر على الله عزَّ وجلّ وعلى خلقه، اعرفوا قدركم وتواضعوا في نفوسكم، أولكم نطفة قذرة من ماء مهين، وآخركم جيفة ملقاة، لا تكونوا ممن يقوده الطمع، ويصيده الهوى، ويحمله الهوى إلى أبواب السلاطين في تطلب شيء منهم لم يقسم له أو بالطلب منهم ما قد قسم له بالذل والمهانة. قال ﷺ: **«أشد عقوبات الله تعالى لعبده طلبه ما لم يقسم له»**(٣).

إذا تواضعت للصالحين فقد تواضعت لله عزَّ وجلّ، فتواضع فإن من تواضع رفعه الله عزَّ وجلّ، أحسن الأدب بين يدي من هو أكبر منك فإن النبي ﷺ قال: **«البركة في أكابركم»**(٤).

اعرفوا أقداركم ولا تنزلوا أنفسكم منزلاً لم ينزلها الله عزَّ وجلّ فيه، ولهذا قال بعضهم (من لم يعرف قدره عرَّفته الأقدار قدره) لا تقعد في

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث شداد بن أوس.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٢١٦ ـ ٢٣٧).

(٣) لم أقف على نصه.

(٤) رواه الحاكم وابن حبان في صحيحيهما عن ابن عباس مرفوعاً.

موضع تقام منه. إذا دخلت داراً فلا تقعد موضعاً لم يقعدك فيه صاحب الدار فإنك تقام منه بلا أمرك، وإن امتنعت أقمت وأهنت وأخرجت.

لا تتكبر فما يتكبر إلا جاهل بالله عزَّ وجلّ وبرسوله والصالحين من عباده. يا قليل العقل تطلب الرفعة بالتكبر اعكس تصب، فإن النبي ﷺ قال: **«من تواضع لله رفعه الله عزَّ وجلّ، ومن تكبر وضعه الله»**[١].

من رضي بالآخرة صار في الأولى، من رضي بالقليل جاءه الكثير، من رضي بالذل جاءه العز. ارض بالدون حتى ينقلب الأمر في حقك. من ذل للقدر ورضي به رفعه الله عزَّ وجلّ القادر على جميع الأشياء. التواضع وحسن الأدب يقربك والتكبر وسوء الأدب يبعدك الطاعة تصلحك وتقربك والمعصية تفسدك وتبعدك[٢].

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري.

(٢) الفتح الرباني: (٣٨، ٤٩، ٢٤٦).

الموقف الحادي والعشرون:
الورع

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المدثر: ٤] قال قتادة ومجاهد: نفسك فطهر من الذنب. فكني عن النفس بالثوب. وهذا قول إبراهيم النخعي والضحاك، والشعبي، والزهري، والمحققين من أهل التفسير. قال ابن عباس: لا تلبسها على معصية ولا غدر.

والمقصود: أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته، كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته.

وقد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة. فقال: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**[1] فهذا يعم الترك لما لا يعني من الكلام، والنظر والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة. فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

قال اسحاق بن خلف: الورع في المنطق أشد منه في الذهب والفضة، والزهد في الرياسة: أشد منه في الذهب والفضة؛ لأنهما يبذلان في طلب الرياسة.

---

(١) الترمذي باب الزهد: رقم (٢٣١٨).

وقال يحيى بن معاذ: من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقيل: الورع الخروج من الشهوات، وترك السيئات.

وقال يونس بن عبيد: الورع الخروج من كل شبهة، ومحاسبة النفس في كل طرفة عين.

قال (الهروي): «الورع: توقٍ مستقصىً على حذر. وتحرّج على تعظيم».

يعنى أن يتوقى الحرام والشبه، وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقي؛ لأن التوقي والحذر متقاربان. إلا أن «التوقي» فعل الجوارح. و«الحذر» فعل القلب. فقد يتوقى العبد الشيء لا على وجه الحذر والخوف. ولكن لأمور أخرى: من إظهار نزاهة، وعزة، وتصوف.

والورع عموماً يبعث على تجنب القبائح، لصون النفس، وتوفير الحسنات، وصيانة الإيمان. فهذه ثلاث فوائد من فوائد تجنب القبائح.

وصون النفس: هو حفظها وحمايتها عما يشينها، ويعيبها ويزري بها عند الله عزّ وجلّ وملائكته، وعباده المؤمنين وسائر خلقه. فإن من كرمت عليه نفسه وكبرت عنده صانها وحماها، وزكاها وعلاها، ووضعها في أعلى المحال.

وأما «صيانة الإيمان» فلأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وقد حكاه الشافعي وغيره عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم. وإضعاف المعاصي للإيمان أمر معلوم بالذوق والوجود. فإن العبد ـ كما جاء في الحديث ـ «**إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء. فإن تاب واستغفر صقل قلبه. وإن عاد فأذنب نكت فيه نكتة أخرى، حتى تعلو قلبه**». وذلك الران الذي قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[1] [المطففين: ١٤].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة برقم (٦): ١/٤٥.

فالقبائح تسود القلب، وتطفئ نوره. والإيمان هو نور القلب. والقبائح تذهب به.

فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته. ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام.

واعلم أن الخوف يثمر الورع والاستعانة وقصر الأمل. وقوة الإيمان باللقاء تثمر الزهد. والمعرفة تثمر المحبة والخوف والرجاء. والقناعة تثمر الرضا. والذكر يثمر حياة القلب. والإيمان بالقدر يثمر التوكل. ودوام تأمل الأسماء والصفات يثمر المعرفة. والورع يثمر الزهد أيضاً. والتوبة تثمر المحبة أيضاً، ودوام الذكر يثمرها. والرضا يثمر الشكر. والعزيمة والصبر يثمران جميع الأحوال والمقامات. والإخلاص والصدق كل منهما يثمر الآخر ويقتضيه. والعفة تثمر الخلق. والفكر يثمر العزيمة. والمراقبة تثمر عمارة الوقت، وحفظ الأيام والحياء، والخشية والإنابة. وإماتة النفس وإذلالها وكسرها: يوجب حياة القلب وعزه وجبره. ومعرفة النفس ومقتها يوجب الحياء من الله عزَّ وجلّ، واستكثار ما منه، واستقلال ما منك من الطاعات. ومحو أثر الدعوى من القلب واللسان وصحة البصيرة تثمر اليقين. وحسن التأمل لما ترى وتسمع من الآيات المشهودة والمتلوة يثمر صحة البصيرة.

وملاك ذلك كله: أمران. أحدهما: أن تنقل قلبك من وطن الدنيا فتسكنه في وطن الآخرة. ثم تقبل به كله على معاني القرآن واستجلائها وتدبرها. وفهم ما يراد منه وما نزل لأجله. وأخذ نصيبك وحظك من كل آية من آياته، وتنزلها على داء قلبك[1].

وقال الأستاذ الإمام رضي الله عنه: أما الورع فإنه ترك الشبهات، كذلك قال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢٨٩ - ٢٩٣).

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: كنا ندع سبعين باباً من الحلال، مخافة أن نقع في باب من الحرام.

وقال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: **«كن ورعاً تكن أعبد الناس»**[1].

وسمعت يحيى بن معاذ يقول: الورع على وجهين: ورع في الظاهر وهو أن لا يتحرك إلا لله تعالى، وورع في الباطن وهو أن لا يدخل قلبك سواه تعالى.

وقال سفيان الثوري: ما رأيت أسهل من الورع، ما حاك في نفسك تركته.

وسئل سهل بن عبدالله عن الحلال الصافي، فقال: هو الذي لا يُعصى الله تعالى فيه، وقال سهل: الحلال الصافي هو الذي لا يُنسى الله تعالى فيه.

ودخل الحسن البصري مكة فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد أسند ظهره إلى الكعبة المعظمة يعظ الناس، فوقف عليه الحسن، وقال: ما ملاك الدين؟ فقال: الورع. قال: فما آفة الدين؟ فقال: الطمع، فتعجب الحسن منه، وقال: مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة.

وقيل: خاطت رابعة العدوية شقاً في قميصها في ضوء شعلة سلطان، ففقدت قلبها زماناً حتى تذكرت، فشقت قميصها فوجدت قلبها[2].

من يفعل الخير كثيراً ولا يترك الذنوب إلا الصديقون. الصديق يترك الكبائر والصغائر، ثم يدقق ورعه يترك الشهوات ثم المباح المشترك ويطلب

(1) أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة (باب الزهد ـ رقم: ٤٢١٧).

(2) الرسالة القشيرية: (١٠٩ ـ ١١٤).

الحلال المطلق، الصديق لا يزال معظم نهاره وليله في عبادة ربه عزّ وجلّ، يخرق عوائد الخلق فلا جرم تخرق له العادة، ويرزق من حيث لا يحتسب يعطى ويؤمر بالتناول[1].

❀❀❀

(١) الفتح الرباني: (٧٠).

الموقف الثاني والعشرون:
الرجاء

الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها؛ لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار المحبوب، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه بماء الطاعات، وطهّر القلوب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر فضل الله تعالى لتثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات.

واعلم أن الرجاء محمود؛ لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم؛ لأنه صارف عن العمل.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلّبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عزَّ وجلّ، والتنعم بمناجاته، والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لا بد أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى؟.

اعلم أن العمل على الرجاء أكلّ منه على الخوف؛ لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم له، والحب يغلب الرجاء، ولذلك ورد في الرجاء وحُسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت: قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال ﷺ في حديث قدسي: **«أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء»**[١]. وروي في الصحيحين من حديث أبي هريرة وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب! كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني[٢].

لا فلاح لمن لا يحسن ظنه بالله عزَّ وجلّ وبعباده الصالحين ويتواضع لهم. الشجاعة في الدين تكون في قضاء حقوق الحق عزَّ وجلّ، لا تستهينوا بكلمات الحكماء والعلماء فإن كلامهم دواء وكلماتهم ثمرة وحي الله عزَّ وجلّ. اصحبوا العلماء المتقين فإن صحبتكم لهم بركة عليكم ولا تصحبوا العلماء الذين لا يعملون بعلمهم فإن صحبتكم لهم شؤم عليكم.

واصل ربك عزَّ وجلّ وقاطع غيره من حيث قلبك. قال ﷺ: **«صلوا الذي بينكم وبين ربكم تسعدوا»**[٣].

صفّوا ما بينكم وبين ربكم عزَّ وجلّ بحفظ قلوب الصالحين[٤].

قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة. فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٣١١ ـ ٣١٤).

(٣) رواه ابن ماجة عن جابر بن عبدالله.

(٤) الفتح الرباني: (٦٩).

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ قبل موته بثلاث ـ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»**.

«الرجاء» حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب. وهو الله والدار الآخرة. ويطيب لها السير. وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى. والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه.

وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين «التمني» أن «التمني» يكون مع الكسل. ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد. و«الرجاء» يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

قال يحيى بن معاذ: يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أصفيها وأحرزها وأنا بالآفات معروف؟ وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك، وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف؟.

وقال أيضاً: إلهي، أحلى العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك.

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء. فكل محب راج خائف بالضرورة فهو أرجى ما يكون لحبيبه أحب ما يكون إليه. وكذلك خوفه. فإنه يخاف سقوطه من عينه، وطرد محبوبه له وإبعاده، واحتجابه عنه. فخوفه أشد خوف. ورجاؤه ذاتي للمحبة. فإنه يرجوه قبل لقائه والوصول إليه. فإذا لقيه ووصل إليه اشتد الرجاء له، لما يحصل له به من حياة روحه، ونعيم قلبه من ألطاف محبوبه، وبره وإقباله عليه، ونظره إليه بعين الرضا، وتأهيله في محبته وغير ذلك مما لا حياة للمحب، ولا نعيم ولا فوز إلا بوصوله إليه من محبوبه، فرجاؤه أعظم رجاء، وأجله وأتمه.

فتأمل هذه الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار عظيمة من أسرار العبودية والمحبة.

وكما أن الرجاء يُبرد حرارة الخوف، فإن له فوائد كثيرة أُخر مشاهدة:

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلى ما يرجوه من ربه. ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغنى عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه. ويسألوه من فضله؛ لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى. وأحب ما إلى الجواد: أن يرجَى، ويؤمل ويسأل.

وفي حديث: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها. فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى، وشكراً له، ورضا به وعنه.

ومنها: أنه يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية. فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضا والإنابة وغيرها. ولهذا قَدَّر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء - من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله - ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته. وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة.

وأعلى من هذا الرجاء: رجاء أرباب القلوب. وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق.

هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها. قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ﴾ [العنكبوت: ٥].

وكذلك يزهد في الخلق غاية التزهيد؛ لأن صاحبه طالب للأنس بالله والقرب منه. فهو أزهد شيء في الخلق، إلا من أعانه على هذا المطلوب منهم وأوصله إليه. فهو أحب خلق الله إليه، ولا يأنس من الخلق بغيره. ولا يسكن إلى سواه. فعليك بطلب هذا الرفيق جهدك. فإن لم تظفر به فاتخذ الله صاحباً. ودع الناس كلهم جانباً(١).

عن أبي الدرداء عن نبي الله ﷺ عن جبريل عليه السلام، قال: قال **«ربكم عزَّ وجلَّ: عبدي: ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بمثلها مغفرة فأغفر لك ولا أبالي»**(٢). الرجاء تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل.

وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان، فكذلك الرجاء يحصل لما يؤمل في الاستقبال، وبالرجاء يكون عيش القلوب واستقلالها.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن التمني يورث صاحبه الكسل، ولا يسلك طريق الجهد والجد، وبعكسه يكون صاحب الرجاء، فالرجاء محمود والتمني معلول.

وتكلموا في الرجاء فقال شاه الكرماني: علامة الرجاء حسن الطاعة.

وقيل: الرجاء ثقة الموجود من الكريم الودود.

وقيل: هو قرب القلب من ملاطفة الرب.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢٩٧ ـ ٣٠٥).

(٢) رواه الطبراني عن أبي الدرداء (كنز العمال: ١/٦٧) ـ مجمع الزوائد (٢١٦/١٠) بلفظ (يا بن آدم).

وقيل: سرور الفؤاد بحسن المعاد.

وقيل: هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالى.

وقال أبو عبدالله بن خفيف: الرجاء استبشار بوجود فضله. وقال أيضاً: ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب.

سمعت أبا بكر بن أشكيب يقول: رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام على هيئة حسنة جداً، فقلت له: يا أستاذ بماذا نلت هذا؟ فقال: بحسن ظني بربي.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: **«يقول الله عزَّ وجلّ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هو خير منهم، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»**[1].

وقيل: كان ابن المبارك يقاتل علجاً، فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله فأمهله، فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه فسمع من الهواء قائلاً يقول: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] فأمسك، فلما سلّم المجوسي قال له: لماذا أمسكت عما هممت به، فذكر له ما سمع، فقال له المجوسي: نعم الرب رب يعاتب وليّه في عدوه، فأسلم وحسن إسلامه.

وقيل: إنما أوقعهم في الذنب حين سمّى نفسه عفوّاً.

ويروى عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي، فكانت ليله ظلماء، فيها مطر شديد، فخلا المطاف فدخلت الطواف وكنت أقول فيه: اللهم اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول لي:

---

(١) أخرجه البخاري: ٤٢٨/١٣ عن أبي هريرة.

يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة، وكل الناس يسألونني العصمة فإذا عصمتكم فمن أرحم؟.

وقيل: حج رباح القيسي حجات كثيرة، فقال يوماً وقد وقف تحت الميزاب:

إلهي وهبت من حجاتي كذا للرسول ﷺ، وعشرة لأصحابه العشرة، واثنتين لوالدي، والباقي للمسلمين، ولم يترك شيئاً لنفسه، فسمع هاتفاً يقول: هو ذا يتسخى علينا، لأغفرن لك ولأبويك ولمن شهد شهادة الحق.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم إني لم أخلقهم لأربح عليهم، وإنما خلقتهم ليربحوا عليّ[1].

❀ ❀ ❀

(١) الرسالة القشيرية: (١٣١ ـ ١٣٧).

الموقف الثالث والعشرون: الخشوع

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾؟ [الحديد: ١٦]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين». وقال ابن عباس: «إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن». وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

و«الخشوع» في أصل اللغة: الانخفاض، والذل، والسكون. قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت. ومنه وصف الأرض بالخشوع.

و«الخشوع» قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه.

وقيل: «الخشوع» الانقياد للحق. وهذا من موجبات الخشوع. فمن علاماته: أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق، استقبل ذلك بالقبول والانقياد.

وقيل: «الخشوع» خمود نيران الشهوة. وسكون دخان الصدور. وإشراق نور التعظيم في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وأجمع العارفون على أن «الخشوع» محله القلب. وثمرته على الجوارح.

وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.

وكان بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وهو حذيفة، يقول: «إياكم وخشوع النفاق. فقيل له: وما خشوع النفاق. قال: أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع» ورأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً طأطأ رقبته في الصلاة. فقال: «يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب؛ إنما الخشوع في القلوب».

وقال الفضيل بن عياض: كان يُكرَه أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما في قلبه. وقال حذيفة رضي الله عنه: «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورُبَّ مصلٍ لا خير فيه. ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً».

وجماع الخشوع: التذلل للأمر. والاستسلام للحكم، والاتضاع لنظر الحق.

التذلل للأمر: تلقيه بذِلة القبول والانقياد والامتثال.

وأما الاستسلام للحكم الشرعي: فبعدم معارضته برأي أو شهوة.

وأما الاتضاع لنظر الحق: فهو اتضاع القلب والجوارح، وانكسارها لنظر الرب إليها، وإطلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦] وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [النازعات: ٤٠] وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية.

فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة. وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً. وإنما يفارق القلب إذا غَفَل عن اطلاع الله عليه، ونظره إليه.

ويكمل الخشوع بتصفية الوقت من مراءاة الخلق، وتجريد رؤية

الفضل، فيُخفي أحواله عن الخلق جهده، كخشوعه وذله وانكساره، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها، ورؤيتهم لها. فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك؟ والمعصوم من عصمه الله. فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل، وأنه لا شيء. وأنه ممن لم يصح له بعدُ الإسلام حتى يدَّعي الشرف فيه.

وقال بعض السلف: «يا ابن آدم، لا تدري أي النعمتين عليك أفضل: نعمته فيما أعطاك، أو نعمته فيما زَوَى عنك؟»[1].

الخشوع: الانقياد للحق، والتواضع هو الاستسلام للحق وترك الاعتراض على الحكم.

وسئل بعضهم عن الخشوع فأجاب: الخشوع قيام القلب بين يدي الحق سبحانه.

وقيل: من علامات الخشوع للعبد: أنه إذا غضب أو خولف أو رُدَّ عليه أن يستقبل ذلك بالقبول.

وقال بعضهم: خشوع القلب قيْد العيون عن النظر.

وقال محمد بن علي الترمذي: الخاشع من خمدت نيران شهوته، وسكن دخان صدره، وأشرق نور التعظيم في قلبه، فماتت شهواته، وحيي قلبه فخشعت جوارحه.

وقال الحسن البصري: الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب.

وسئل الجنيد عن الخشوع فقال: تذلل القلوب لعلاّم الغيوب، قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر، منكسر الشاهد، وقد زوى منكبيه، فقال له: يا فلان الخشوع ههنا، وأشار إلى صدره، لا ههنا وأشار إلى منكبيه.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢٧٥ ـ ٢٧٨).

وروي أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يعبث في صلاته بلحيته فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»**[1].

ويقال: الخشوع ذوبان القلب وانخفاضه عند سلطان الحقيقة.

وقيل: من لم يتضع عند نفسه لم يرتفع عند غيره[2].

❀ ❀ ❀

(١) أخرجه الترمذي في النوادر عن أبي هريرة.

(٢) الرسالة القشيرية: (١٤٤ ـ ١٤٦).

الموقف الرابع والعشرون: ذكر الله تعالى

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله»، وقال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»**[١].

وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها، فقيل له: وما رياض الجنة؟ فقال: مجالس الذكر»**[٢].

حدثنا جابر بن عبدالله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«يا أيها الناس: ارتعوا في رياض الجنة»** قلنا: يا رسول الله، ما رياض الجنة؟ قال: **«مجالس الذكر، قال: اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد حيث أنزله من نفسه»**[٣].

والذكر على نوعين: ذكر اللسان وذكر القلب، فذكر اللسان يصل به

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس برقم (٢٢٠٨).
(٢) أخرجه الترمذي عن أنس برقم (٣٥٠٥).
(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة برقم (٣٥٠٤).

العبد إلى استدامة ذكر القلب والتأثير لذكر القلب، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الذكر منشور الولاية، فمن وفق للذكر فقد أُعطي المنشور، ومن سلب الذكر فقد عزل.

وقيل: ذكر الله بالقلب سيف المريدين به يقاتلون أعداءهم وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم، وإن البلاء إذا أظل العبد، فإذا فزع بقلبه إلى الله تعالى يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه.

يقول ذو النون المصري: من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء، وكان له عوضاً عن كل شيء.

وكان الشبلي ينشد في مجلسه:

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكنت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام علي القلب بالخفقان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان

ومن خصائص الذكر أنه غير موقت، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله تعالى، إما فرضاً وإما ندباً، والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز في بعض الأوقات، والذكر مستدام في عموم الحالات، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]. سمعت الإمام أبا بكر بن فورك رحمه الله يقول: قياماً بحق الذكر، وقعوداً عن الدعوى.

ومن خصائص الذكر: أن يقابله ذكر آخر، فقال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الخبر أن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: أعطيت أمتك ما لم تعط أمة من الأمم، فقال: **«وما ذاك يا جبريل؟»**

فقال: قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، لم يقل هذا لأحد غير هذه الأمة، وقيل: إن الملك يستأمر الذاكر في قبض روحه.

سأل سفيان الثوري ذا النون المصري عن الذكر فقال: الذكر هو غيبة الذاكر عن الذكر، ثم أنشأ يقول:

لا لأنـي أنـسـاك أكـثـر ذكـرا ك ولـكـن بـذاك يـجـري لـسـانـي

وقال سهل بن عبدالله: ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي: يا عبدي ما أنصفتني، أذكرك وتنساني، وأدعوك إلي وتذهب إلى غيري، وأذهب عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا، يا ابن آدم ماذا تقول غداً إذا جئتني؟.

وقال أبو سليمان الداراني: إن في الجنة قيعاناً، فإذا أخذ الذاكر في الذكر، أخذت الملائكة في غرس الأشجار فيها، فربما يقف بعض الملائكة فيقال له: لماذا وقفت؟ فيقول: فتر صاحبي.

وقيل: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: الصلاة والذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتم، وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

يقول السري السقطي: جاء في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالى: إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته.

وقال أحمد النوري: لكل شيء عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر.

وجاء في الإنجيل: اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب، وارض بنصرتي لك فإن نصرتي لك خير لك من نصرتك لنفسك.

وقيل: إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشيطان صرع، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع إليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنس.

وقيل: الذكر الخفي لا يرفعه الملك؛ لأنه لا اطلاع له عليه، فهو سر بين العبد وبين الله عزّ وجلّ.

قال عبدالله الجريري: كان بين أصحابنا رجل يكثر من قول: الله الله، فوقع يوماً على رأسه جذع فشج رأسه وسقط الدم، وكُتب على الأرض: الله الله[1].

و«الذكر» منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل، والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات. وتهون عليهم به المصيبات. إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل، فإليه مفزعهم. فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون. يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة. و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة. بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حال: قياماً، وعلى جنوبهم. فالقلوب بور خراب. وهو عمارتها، وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها، ودواؤها إذا غشيها اعتلالها. وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً: ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشتياقاً. وإذا واطأ قلبه للسانه في ذكره نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً من كل شيء.

به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار.

---

(١) الرسالة القشيرية (٢٢١ ـ ٢٢٦).

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

وهو في القرآن على عشرة أوجه:

الأول: الأمر به مطلقاً ومقيداً.

الثاني: النهي عن ضده من الغفلة والنسيان.

الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.

الرابع: الثناء على أهله، والاختبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة.

الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.

السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.

السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء.

الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة كما كان مفتاحها.

التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته. وأنهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها. فمتى خدمته كانت كالجسد بلا روح.

أما الأول: فكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠].

وأما الثناء على أهله، وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ - إلى قوله - ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له، فكقوله: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأما الإخبار عنه بأنه أكبر من كل شيء فكقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختم الحج في قوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

وختم به الصلاة كقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ﴾ [النساء: ١٠٣].

وختم به الجمعة كقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: ١٠] ولهذا كان خاتمة الحياة الدنيا. وإذا كان آخر كلام العبد: أدخله الله الجنة.

وأما اختصاص الذاكرين بالانتفاع بآياته. وهم أولو الألباب والعقول. فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

والذاكرون: هم أهل السبق، كما روى مسلم في صحيحه من حديث

العلاء عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جُمدان فقال: «**سيروا هذا جُمدان سبق المفردون**». قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً والذاكرات**».

وفي المسند ـ مرفوعاً ـ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة، وأن تلقوا عدوكم. فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «**ذكر الله عزَّ وجلّ**».

وروى شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت الأغر قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما؛ أنهما شهدا على رسول الله ﷺ قال: «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حَفَّتهم الملائكة. وغشيتهم الرحمة. ونزلت عليهم السكينة. وذكرهم الله فيمن عنده**» وهو في صحيح مسلم.

ويكفي في شرف الذكر: أن الله يباهي ملائكته بأهله، كما في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ علينا، قال: «**ما أجلسكم إلا ذلك؟**» قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: «**أما إني لم استحلفكم تهمة لكم، ولكن أتاني جبريل، فأخبرني: أن الله يباهي بكم الملائكة**».

وسأل أعرابي رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**أن تفارق الدنيا ولسانك رطب من ذكر الله**»[1].

وقال له رجل: إن شرائع الإسلام قد كُثرت علي، فمرني بأمر أتشبث به. فقال: «**لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله**»[2].

---

(١) مسند الشهاب عن عثمان بن عفان (فيض القدير: ٤٧٦/٣).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد برقم (١٨٢٢): ٦٧٢/١.

وقال: «اغدوا وروحوا واذكروا، من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله: فلينظر كيف منزلة الله عنده؟ فإن الله يُنزل العبد منه حيث أنزله من نفسه»[1].

وروى النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم ﷺ ـ ليلة الإسراء ـ أنه قال له: «أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» رواه الترمذي وأحمد وغيرهما[2].

وفي الصحيح: في الأثر الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه تبارك وتعالى: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[3].

وأنواع الذكر ثلاثة: ثناء، ودعاء، ورعاية.

فأما ذكر الثناء: فنحو «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وأما ذكر الدعاء: فنحو ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] و«يا حي يا قيوم برحمتك أستغث» ونحو ذلك.

وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس.

والذكر ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده، وهو في الدرجة الثانية، وذكر باللسان المجرد، وهو في الدرجة الثالثة[4].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: ٣٩٨/١.

(٢) الترمذي: ٥١٠/٥ برقم: (٣٤٦٢).

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (٦٩٧٠): ٢٦٩٤/٦.

(٤) تهذيب مدارج السالكين (٤٦٣ ـ ٤٦٨).

الذكر هو ذكر القلب والسر ثم ذكر اللسان، إذا صح ذكر الحق عزَّ وجلّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

اذكره حتى يذكرك، اذكره حتى يحط الذكر عنك أوزارك لتبقى خالياً عن وزر، تصير طاعة بلا معصية فحينئذ يذكرك فيمن يذكر فتشتغل به عن خلقه ويشغلك عن ذكره عن مسألته يصير كل مقصودك هو فتشتغل عن جميع مقاصدك. إذا صار هو كل مقصودك جعل مفاتيح خزائن الملك في يد قلبك، من أحب الله عزَّ وجلّ لا يحب غيره يزيل من قلبك حب ما سواه.

عن النبي ﷺ أنه قال: «**أضنوا شياطينكم بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإن الشيطان يُضنى بها كما يُضني أحدكم بعيره بكثرة ركوبه وشيل أحماله عليه**»(١).

(يا قوم) أضنوا شياطينكم بالإخلاص في قول لا إله إلا الله لا بمجرد اللفظ، التوحيد يحرق شياطين الإنس والجن لأنه نار للشياطين نور للموحدين.

الذاكر لله عزَّ وجلّ أبدا حي ينتقل من حياة إلى حياة، فلا موت له سوى لحظة، إذا تمكن الذكر في القلب دام ذكر العبد لله عزَّ وجلّ وإن لم يذكره بلسانه، كلما دام العبد في ذكر الله عزَّ وجلّ دامت موافقته له ورضاه بأفعاله.

من كان ذاكراً لله عزَّ وجلّ بقلبه فهو الذاكر، ومن لم يذكره بقلبه فليس بذاكر. اللسان غلام القلب وتبع له، داوم على سماع المواعظ فإن القلب إذا غاب عن المواعظ عمي، حقيقة التوبة تعظيم أمر الحق عزَّ وجلّ في جميع الأحوال، ولهذا قال بعضهم رحمة الله عليه: الخبر كله كلمتين: التعظيم لأمر الله عزَّ وجلّ والشفقة على خلقه كل من لا يعظم أمر الله عزَّ وجلّ ولا يشفق على خلق الله فهو بعيد من الله.

---

(١) لم أقف على لفظه ولكن يؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف: ٣٦].

إذا دام القلب على ذكر الحق عزَّ وجلّ جاءت إليه المعرفة والعلم والتوحيد والتوكل والإعراض عما سواه في الجملة، دوام الذكر سبب لدوام الخير في الدنيا والآخرة». إذا صح القلب صار الذكر دائماً فيه يكتب في جوانبه وعلى جملته فتنام عيناه وقلبه ذاكر لربه عزَّ وجلّ يرث ذلك عن نبيه ﷺ.

متى ذكرته فأنت محب فإذا سمعت ذكره لك فأنت محبوب، متى ذكرته بلسانك فأنت تائب، فإذا ذكرته بقلبك فأنت سالك، فإذا ذكرته بسرك فأنت عارف.

ساروا معه بقلوبهم حتى وصلوا إليه وحصلوا الرفيق قبل الطريق، يذكرهم ما زالوا يذكرونه حتى حط الذكر عنهم أوزارهم ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

(يا غلام) اذكر الحق عزَّ وجلّ أولاً بقلبك ثم بقالبك ثانياً، اذكره بقلبك ألف مرة وبلسانك مرة، اذكره عند مجيء الآفات بالصبر، وعند مجيء الدنيا بالترك، وعند مجيء الأخرى بالقبول، وعند مجيء الحق بالتوحيد، وعند مجيء غيره في الجملة بالإعراض عنه، إذا أرخيت عنان نفسك طمعت فيك ورمت بك، ألجمها بلجام الورع ودع عنك القال والقيل. ذكر الموت يصفي قلبك ويبغض الدنيا والخلق إليك ينكشف الغطاء عن قلبك فترى الخلق فانين موتى هلكى عجزى لا ضر فيهم ولا نفع.

(يا قوم) اتبعوا ولا تبتدعوا وافقوا ولا تخالفوا أطيعوا ولا تعصوا أخلصوا ولا تشركوا، وحدوا الحق عزَّ وجلّ وعن بابه فلا تبرحوا، سلوه ولا تسألوا غيره، استعينوا به ولا تستعينوا بغيره، توكلوا عليه ولا تتوكلوا على غيره، وأنتم يا خواص سلموا نفوسكم إليه وارضوا بتدبيره فيكم واشتغلوا بذكره دون مسألته، أما سمعتم قوله عزَّ وجلّ في بعض كتبه «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين[1] من اشتغل بذكره

---

(١) أخرجه الطبراني عن ابن عمر فتح الباري: ١١/١٣٤.

وانكسر قلبه لأجله أما ترضى من عطائه أن يكون جليسا لك قال الله عزّ وجلّ في بعض كلامه:

«أنا جليس من ذكرني»[1] وقال: **«أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»**[2][3].

❀ ❀ ❀

(١) رواه الديلمي والبيهقي مرفوعاً، ورواه الحاكم والبخاري بلفظ آخر.

(٢) جاء بلفظ (أنا ثم المنكسرة قلوبهم) فيض القدير (٦٩/٢).

(٣) الفتح الرباني (٢٠، ٧٦، ١٠٤، ١٥٨، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٥١، ٢٥٧).

الموقف الخامس والعشرون:
القلب: طهارته ومفسداته

قال الله عزّ وجلّ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾ [الأحزاب: ٤] قلب يحب الخالق والخلق لا يصح، قلب يكون فيه الدنيا والآخرة لا يصح، الحريص على جمع الدنيا يرائي وينافق والقصير الأمل لا يفعل ذلك.

إن الله عزّ وجلّ ينظر إلى قلبك لا إلى صورتك، ينظر إلى ما وراء الثياب والجلود والعظام ينظر إلى خلوتك لا إلى جلوتك، أما تستحي؟ جعلت منظر الخلق مزيناً ومنظر الحق عزّ وجلّ منجساً إن أردت الفلاح فتب من جميع ذنوبك.

في ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح لها سائر جسده وإذا فسدت فسد لها سائر جسده ألا وهي القلب.

صلاح القلب بالتقوى والتوكل على الله عزّ وجلّ والتوحيد له والإخلاص في الأعمال وفساده بعدم ذلك، القلب طائر في قفص البنية؛ كدُرَّة في حقَّة كمال في خزانة، فالاعتبار بالطائر لا بالقفص، بالدرة لا بالحقة، بالمال لا بالخزانة.

القلب إذا خرج في فيافي الأسباب والتعلق بالخلائق، يحب بحر التوكل والمعرفة بالله عزّ وجلّ والعلم به، وترك السبب وطلب المسبب. فإذا توسط في هذا البحر فهناك يقول ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء: ٧٨]، فكلما

ذكر ربه تجلت حادته وانكشف الدغل عنها. قلب الطالب للحق عزَّ وجلّ يقطع المسافات ويخلف الكل وراءه.

يخيم ذكر الله عزَّ وجلّ في قلوب العارفين ويحيط بها وينسيها ذكر كل مذكور. فإذا تم هذا فالجنة هي المأوى، الجنة المنقودة، والجنة الموعودة المنقودة في الدنيا هي الرضا بالقضاء وقرب القلب من الله عزَّ وجلّ ومناجاته له ورفع الحجاب بينه وبينه فيصير صاحب هذا القلب في خلوته مع الحق تعالى في جميع أحواله من غير تكييف ولا تشبيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. والموعودة هي التي وعدها الله عزَّ وجلّ للمؤمنين والنظر إلى وجهه الكريم من غير حجاب ولا شك الخير كله عند الله والشر عند غيره، الخير في الإقبال عليه والشر في الإدبار عنه.

هو القادر على كل شيء، العالم بكل شيء، بيده كل شيء، الزم بابه وسله أن يطهر قلبك من غيره، ويملأه بالإيمان والمعرفة له والعلم به والغنى به عن خلقه سله أن يعطيك اليقين ويؤنس قلبك به ويشغل جوارحك بطاعته، اطلب منه لا من غيره، لا تذل لمخلوق مثلك. فقه اللسان بلا عمل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة، السير سير القلب القرب قرب الأسرار، العمل عمل المعاني مع حفظ حدود الشرع بالجوارح والتواضع لله عزَّ وجلّ ولعباده، من جعل لنفسه وزناً فلا وزن له.

الأكابر القلوب العارفة بالله عزَّ وجلّ العالمة القريبة منه كلما كثر علم القلوب قربت من مولاها عزَّ وجلّ، كل قلب فيه حب الدنيا فهو عن الله محجوب وكل قلب فيه حب الآخرة فهو عن قرب الله محجوب بقدر رغبتك في الدنيا تنقص رغبتك في الآخرة وبقدر رغبتك في الآخرة تنقص محبتك للحق عزَّ وجلّ.

كل الدواء في التسليم إلى الحق عزَّ وجلّ وقطع الأسباب وخلع الأرباب من حيث قلبك، الدواء في توحيد الله عزَّ وجلّ بالقلب لا باللسان فحسب، التوحيد والزهد لا يكونان على الجسد واللسان، التوحيد في القلب

والزهد في القلب، والتقوى في القلب، والمعرفة في القلب، والعلم بالحق عزّ وجلّ في القلب، ومحبة الله عزّ وجلّ في القلب، والقرب منه في القلب، كن عاقلاً لا تتهوس ولا تتصنع ولا تتكلف أنت في هوس وتصنع وتكلف وكذب ورياء.

إذا صفا السر تعدى الصفاء إلى القلب والنفس والجوارح والمأكول والملبوس وتعدّى إلى جميع أحوالك، أول ما يعمر داخل الدار فإذا كملت عمارتها أخرج إلى عمارة الباب.

دخل رجل على أبي يزيد البسطامي رحمة الله عليه فبقي ينظر يميناً وشمالاً فقال أبو يزيد له: ما لك؟ قال: أريد موضعاً نظيفاً أصلي به، فقال له: طهر قلبك وصل حيث شئت.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [فاطر: ١٩].

ويلك تقف في الصلاة وتقول الله أكبر وأنت تكذب في قولك، الخلق في قلبك أكبر من الله عزّ وجلّ، تب إلى الله عزّ وجلّ ولا تعمل حسنة لغيره لا للدنيا ولا للآخرة. كن ممن يريد وجهه، أعط الربوبية حقها لا تعمل للحمد والثناء، لا للعطاء ولا للمنع. ويحك رزقك لا يزيد ولا ينقص، ما قد قضي عليك من الخير والشر لا بد من مجيئه، فلا تشتغل بشيء قد فرغ منه واشتغل بطاعته؛ قلل حرصك وقصر أملك؛ طهر قلبك ممن سواه فإنك ترى به ما سواه. كما لا يحل أن تدخل على الملوك مع نجاسة ظاهرك، لم تدخل على مالك الملوك الذي هو الحق عزّ وجلّ مع نجاسة باطنك؟.

في قلبك معاصي وخوف من الخلق ورجاء لهم وحب الدنيا وما فيها وكل هذا نجاسة للقلوب.

نظف قلبك من غير ربك عزّ وجلّ، احذر أن يصطادك شيء أو يحبسك شيء أو يوقفك شيء عن مولاك عزّ وجلّ، فإذا جاءت الأقسام تناولها بيد الأمر الموافقة على قدم الزهد فيها لا بيد الاختيار لها والحب لها.

المؤمن منقطع القلب عن الخلق وعن الأهل والمال والولد، وإنما يتشاغل بهم وقلبه منتظر لمجيء رسول الملك، وصل باب البلد وقد ودع أهله وهو قاعد بينهم، المؤمن أبداً مودع، هو بين الخلق وقد ودعهم جسمه، مع الخلق وحبله مع الخالق. إذا وقر التوحيد في القلب صح العمل من حيث الظاهر؛ لأنه يستوي ظاهرك وباطنك. غناك وفقرك إقبال الخلق وإدبارهم ذمهم لك ومدحهم، كيف لا تخرجهما وقد ضاقت مضغتك عنهما بما رحبت وامتلأ قلبك بالله عزَّ وجلّ وبذكره والشوق إليه، فحينئذ: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ٣٤].

إذا صح قلبك كنت أبداً في غيبة عن الخلق ونومة عنهم ويقظة بالخالق فلا يزال بالجلوة في الخلوة وأنت في الجلوة فلا تزال موارد الحق عزَّ وجلّ وحكمته ترد عليك على السر والسر يملي على القلب والقلب يملي على النفس المطمئنة والنفس تملي على اللسان واللسان يملي على الخلق.

القلب إذا عمل بالكتاب والسنة قرب وإذا قرب علم وأبصر ماله وما عليه وما لله عزَّ وجلّ وما لغيره وما للحق وما للباطل، إذا كان المؤمن له نور ينظر به فكيف لا يكون للصديق والمقرب، المؤمن له نور ينظر به ولهذا حذر النبي ﷺ من نظره فقال: **«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عزَّ وجلّ»**[1].

والعارف المقرب يعطى أيضاً نوراً يرى به قربه من ربه عزَّ وجلّ ويرى قرب ربه عزَّ وجلّ من قلبه، يرى أرواح الملائكة والنبيين وقلوب الصديقين وأرواحهم، يرى أحوالهم ومقاماتهم كل هذا في سويداء قلبه وصفاء سره هو أبدا في فرحه مع ربه عزَّ وجلّ هو واسطة يأخذ منه ويفرق على الخلق، منهم من يكون عليم اللسان والقلب ومنهم من يكون عليم القلب ألسن اللسان.

---

(١) رواه الطبراني والترمذي من حديث أبي أمامة، وقال الترمذي حسن صحيح.

لا تنفع طهارة الجوارح مع نجاسة القلب طهر جوارحك بالسنة وقلبك بالعمل بالقرآن، احفظ قلبك حتى تتحفظ جوارحك، كل إناء ينضح بما فيه، أي شيء كان في قلبك ينضح منك على جوارحك.

للدنيا خاطر وللآخرة خاطر، للملك خاطر وللنفس خاطر وللقلب خاطر وللحق عزَّ وجلّ خاطر، فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواطر والسكون إلى خاطر الحق عزَّ وجلّ، إذا أعرضت عن خاطر النفس وخاطر الهوى وخاطر الشيطان وخاطر الدنيا جاءك خاطر الآخرة ثم جاءك خاطر الملك ثم خاطر الحق عزَّ وجلّ أخيراً وهو الغاية، إذا صح قلبك وقف عند الخاطر وقال له أي خاطر أنت وممن أنت؟ فيقول له: أنا خاطر كذا وكذا أنا خاطر حق من الحق أنا ناصح محب، الحق عزَّ وجلّ يحبك فأنا أحبك أنا السفير أنا حظك من حال النبوة.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١].

الغيث ينزل من السماء إلى الأرض ثم يظهر منها النبات، هذا الأمر ينزل من السماء إلى أرض القلوب فتهتز وتنبت من كل خير تنبت الأسرار والحكم والتوحيد والتوكل والمناجاة والقرب من الله عزَّ وجلّ، يصير هذا القلب في أشجار وأثمار يصير فيه فيافي وقفار وبحار وأنهار وجبال، يصير مجمع الإنس والجن والملائكة والأرواح، هذا شيء من وراء العقول قدرة محضة وإرادة وعلم يستأثره الله عزَّ وجلّ.

كل الدائرة على حضور قلبك لله لا لعلة في الدنيا ولا في الآخرة ولا الحلقة، حضور قلبك لله عزَّ وجلّ لا يصح إلا بعد الموت والتحقيق لذكره، إن نظرت نظرت إلى الموت، وإن سمعت سمعت الموت، ذكر الموت على الحقيقة باليقظة التامة، تبغض كل شهوة وتقف في وجه كل فرحة، اذكروا الموت فليس لكم عنه فوت. إذا صح القلب نسي ما سوى الحق عزَّ وجلّ، إذا صح القلب صار الكلام الذي يخرج منه صواباً حقاً لا يرده راد، يخاطب القلب القلب، السر السر، الجلوة الجلوة، المعنى المعنى، اللب

اللب، الصواب الصواب، فحينئذ يكون الكلام منه إلى القلوب كالبذر في أرض لينة طيبة غير سبخة ينبت.

إذا لم يكن في القلب صحة فهو كنز مجموع فيه دراهم ودنانير وجواهر بلا منفق، جسد بلا روح كالأجساد التي مسخت أحجاراً فهي صورة بلا معنى، القلب المعرض عن الله عزّ وجلّ الكافر به ممسوخ ولهذا شبهه الله عزّ وجلّ بالحجر فقال:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

لا خير فيك حتى تعرف نفسك وتمنعها حظها وتعطيها حقها، فحينئذ تطمئن إلى القلب ويطمئن القلب إلى السر ويطمئن السر إلى الحق عزّ وجلّ، لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسهم.

هذه النفس تظهر الطمأنينة والذل والتواضع والموافقة في الخير وهي تبطن بخلاف ذلك. كن على حذر مما يتم منها بعد ذلك.

القلب إذا صح ونور بالعلم أطفأ بنوره نار معاصي الخلق كما يطفئ النارَ نورُ المؤمن عند جوازه عليها، قيل: حجر الزاوية مخالفة النفس والشهوات(١).

القلب تكتنفه الصفات وتنصب إليه الآثار والأحوال، فكأنه هدف يصاب على الدوام من كل جانب. فإذا أصابه شيء يتأثر به أصابه من جانب آخر ما يضاده فتتغير صفته، إن نزل به الشيطان فدعاه إلى الهوى نزل به الملك وصرفه عنه، وإن جذبه شيطان إلى شر جذبه شيطان آخر إلى غيره، وإن جذبه ملك إلى خير جذبه آخر إلى غيره، فتارة يكون متنازعاً بين ملكين، وتارة بين شيطانين، وتارة بين ملك وشيطان وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠].

---

(١) الفتح الرباني: (٨، ١٢، ٢٧، ٣٩، ٤٩، ٦٣، ١١٠، ١٢٨، ١٣٨، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٩، ٣٠٦، ٣٤٢.

ولإطلاع رسول الله ﷺ على عجيب صنع الله تعالى في عجائب القلب وتقلّبه كان يحلف به فيقول: **«لا ومقلب القلوب»**[1].

وكان كثيراً ما يقول: **«يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»** قالوا: أوَ تخاف يا رسول الله؟ قال: **«وما يؤمنني والقلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»**[2].

الأخلاق الرذيلة التي هي من مرض القلب، علاجها بضدها، فيعالج مرض الجهل بالعلم، ومرض البخل بالسخاء، ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى، وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الأبدان المريضة، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب، بل أولى، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد.

ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه، فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه فإن دواءه مخالفة الشهوات وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً والمرض مزمناً واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب ومرضها بالكلية، وأقبل الناس على أعمال ظاهرها عبادات وباطنها عادات، فهذه علامة أصل المرض.

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة، فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها، فإن كان يعالج داء البخل، فعلاجه بذل المال، ولكنه لا يسرف.

وإن أردت أن تعرف الوسط، فانظر إلى نفسك، فإن كان إمساك

---

(١) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسَّنه.

المال وجمعه ألذ عندك، وأيسر عليك من بذله لمستحقه، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل، فعالج نفسك على البذل، وإن صار للبذل للمستحق ألذ عندك، وأخف عليك من الإمساك، فقد غلب عليك التبذير، فارجع إلى المواظبة على الإمساك، ولا تزال تراقب نفسك، وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتعسيرها، حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه، بل يصير عندك كالماء، فلا تطلب فيه إمساكه لحاجة محتاج، أو بذله لحاجة محتاج، فكل قلب صار كذلك، فقد جاء الله سليماً عن هذا المقام. ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها، فعند ذلك ترجع إلى ربّها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصدّيقين والشهداء الصالحين وحسُن أولئك رفيقاً.

اتفق العلماء والحكماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات فالإيمان بهذا واجب.

ولا يمكن إصلاح القلب لسلوك طريق الآخرة ما لم يمنع نفسه عن التنعم بالمباح، فإن النفس إذا لم تمنع بعض المباحات طمعت في المحظورات، فمن أراد حفظ لسانه عن الغيبة فحقه أن يلزمه السكون إلا عن ذكر الله والمهمات في الدين حتى تموت شهوة الكلام فلا يتكلم إلا بحق فيكون سكوته عبادة وكلامه عبادة.

وأولو الحزم من أرباب القلوب جربوا قلوبهم في حال الفرح بمؤاتاة الدنيا فوجدها قاسية بعيدة التأثر عن ذكر الله واليوم الآخر، وجربوها في حالة الحزن فوجدوها لينة رقيقة صافية.

قابلة لأثر الذكر، فعلموا أن النجاة في الحزن الدائم والتباعد من أسباب الفرح والبطر، ففطموها عن ملاذها وعوّدوها الصبر عن شهواتها.

ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس ولينفرد بنفسه وليراقب قلبه حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى والفكر فيه[1].

وأما مفسدات القلب فهي: كثرة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام. وهذه الخمسة تطفئ نوره، وتعور عين بصيرته، وتثقل سمعه، إن لم تَصُمه وتُبْكِمه ـ وتضعف قواه كلها. وتوهن صحته وتفتر عزيمته، وتوقف همته، وتنكسه إلى ورائه.

فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلى لقائه. فهذه جنته، العاجلة.

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات. أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه ـ أو نحو هذا من الكلام.

وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطلت من منحة، هذه الخلطة التي تكون على نوع مودة في الدنيا، وقضاء وطر بعضهم من بعض ـ تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة، ويعض المخلط عليها يديه ندماً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد، والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر، وفضول المباحات.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٢٩ ـ ١٤٠).

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضراً غائباً، قريباً بعيداً، نائماً يقظاً، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه؛ لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقى به إلى الملأ الأعلى، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية. وما أصعب هذا وأشقه على النفوس، وإنه ليسير على من يسره الله عليه. فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى، ويديم اللجوء إليه، ويلقي نفسه على بابه طريحاً ذليلاً، ولا يعين على هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان.

ويفسد القلب أيضاً بركوبه بحر التمني وهو بحر لا ساحل له. وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس. وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان.

والمفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق.

فليس عليه أضر من ذلك. ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به. وفاته تحصيل مقصوده من الله عزَّ وجلّ، بتعلقه بغيره، والتفاته إلى سواه. فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل. قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥].

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه، أعظم مما حصل له ممن تعلق به.

ومن مفسدات القلب: الطعام. والمفسد له من ذلك نوعان: أحدهما: ما يفسده لعينه وذاته كالمحرمات.

والثاني: ما يفسده بقدره: وتعدي حده، كالإسراف في الحلال، والشبع المفرط، فإنه يثقله عن الطاعات.

والمفسد الخامس: كثرة النوم، إذ النوم الكثير يميت القلب، ويثقل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل. ومنه المكروه جداً. ومنه الضار غير النافع للبدن. وأنفع النوم: ما كان عند شدة الحاجة إليه[1].

اللهم أشغل جوارحنا بطاعتك وقلوبنا بمعرفتك وأشغلنا طول حياتنا في ليلنا ونهارنا وألحقنا بالذين تقدموا من الصالحين وارزقنا ما رزقتهم وكن لنا كما كنت لهم آمين.

❀❀❀

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٤٤ ـ ٢٤٨).

الموقف السادس والعشرون:
التفكر والتدبر والاعتبار

لقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن قوماً تفكروا في الله عزَّ وجلّ» فقال النبي ﷺ: **«تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله»**(١).

وقال حاتم: «من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف».

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: «استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر».

ثم إن ثمرة الفكر هي العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة وإذا حصل العلم في القلب تغير القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح. فالفكر إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها؛ لأنه الذي ينقل من المكاره إلى المحاب. ويهدي إلى استثمار العلوم ونتاج المعارف والفوائد.

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس برقم (٢٣١٨): ٥٦/٢.

اعلم أن أنواع مجاري الفكر أربعة: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات.

أما المعاصي: فينبغي أن يفتش الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة، ثم بدنه هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها.

أما الطاعات: فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير، أو كيف يجبر نقصانها بالنوافل.

وأما الصفات المهلكات التي محلها القلب: فيعرفها مما تقدم وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك، ويفتقد في قلبه هذه الصفات. ويتفكر في طريق العلاج لها مما سلف ذكره.

وأما الصفات المنجيات: فهي التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرياء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلُق مع الخَلق، وحب الله تعالى وتعظيمه، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له، فيتفكر كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقرّبة إلى الله تعالى. فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال[1].

ويحك تفكر في أمرك، التفكير من أمر القلب فإذا رأيت لك حسنة فاشكر الله تعالى، وإذا رأيت لك سيئة فتب منها. بهذا التفكر يحيا دينك ويموت شيطانك ولهذا قيل: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[2].

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨] وهو من خواص أولي الألباب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ٢١] وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٤١٠ ـ ٤١٣).

(٢) الفتح الرباني: (١٨).

و«التذكر» و«التفكر» منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان. والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم. قال الحسن البصري: ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت.

و«التذكر» تفعل من الذكر. وهو ضد النسيان. وهو حضور صورة المذكور العلمية في القلب. واختير له بناء التفعل، لحصوله بعد مهلة وتدرج. كالتبصر والتفهم والتعلم.

فمنزلة «التذكر» من «التفكر» منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه. ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذكرى.

وقال عن القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحاقة: ٤٨] وقال في آياته المشهودة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

ف «التبصرة» آلة البصر، و«التذكرة» آلة الذكر. وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة، لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر. فاستدل بها على ما هي آيات له. فزال عنه الإعراض بالإنابة، والعمى بالتبصرة، والغفلة بالتذكرة، لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول في القلب بعد غفلته عنها. فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب، ثم إن كلاً منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره.

وقال تعالى في آياته المشهودة: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٦، ٣٧].

وأما استبصار العبرة: فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه في منزل التفكر بقوة الاستحضار؛ لأن التذكر يعتقل المعاني التي حصلت بالتفكر في مواقع الآيات والعبر فهو يظفر بها بالتفكر وتنصقل له وتنجلي بالتذكر

فيقوى العزم على اليسير بحسب قوة الاستبصار لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور فكلما قوي الشعور بالمحبوب اشتد سفر القلب إليه وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه. والتذكر له.

و«العبرة» هي الاعتبار. وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله. فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك. وقوة الفهم وجودته. وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به. وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه. وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم. ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين.

ومن تجريبات السالكين، التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن «يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت» أورثه ذلك حياة القلب والعقل[1].

❀ ❀ ❀

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢٣٧ ـ ٢٤١).

الموقف السابع والعشرون: التوبة

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال أنس بن مالك: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب**»(١) ثم تلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقيل: يا رسول الله، ما علامة التوبة؟ قال: «**الندامة**».

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب**»(٢).

التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، وحقيقة التوبة في اللغة: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، فالتوبة: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه، وقال النبي ﷺ: «**الندم توبة**».

فإذا فكر بقلبه في سوء ما يصنعه، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال، سنحت في قلبه إرادة التوبة، والإقلاع عن قبيح المعاملة، فيمده

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن مسعود (الجامع الصغير ـ السيوطي: ١/٣٣٨٥).

(٢) رواه أبو المظفر السمعاني (الجامع الصغير: ٢/٨٠٥٠).

الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والأخذ في جميل الرجعة، والتأهب لأسباب التوبة: وأول ذلك هجر إخوان السوء، فإنهم هم الذين يحملن على رد هذا القصد، ويشوشون عليه صحة هذا العزم، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على المشاهدة التي تزيد رغبته في التوبة.

سمعت الشيخ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: تاب بعض المريدين، ثم وقعت له فترة فكان يفكر وقتاً لو عاد إلى توبته كيف يكون حكمه؟ فهتف به هاتف: يا فلان أطعتنا فشكرناك، ثم تركتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا قبلناك، فعاد الفتى إلى الإرادة ونفذها.

فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر، لا لرغبة في الثواب أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة.

ويقال أيضاً: التوبة صفة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

وقال الجنيد: دخلت على السرّي يوماً فرأيته متغيراً، فقلت له: ما لك؟ فقال: دخل علي شاب فسألني عن التوبة، فقلت له: لا تنس ذنبك، فعارضني وقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك، فقلت: إن الأمر عندي ما قاله الشاب، فقال: لم قلت؟ قال: لأني كنت في حال الجفاء فنقلني إلى حال الوفاء، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء، فسكت.

وسئل ذو النون المصري عن التوبة، فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة. وقال النوري: التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عزّ وجلّ.

قال عبدالله التميمي: شتان ما بين تائب يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات[1].

التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين.

فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمصرّ على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان.

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عزّ وجلّ على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: «يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك»، فقال آدم عليه السلام: «يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامي»؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورثت ذويك التعب والنصب وورثتهم التوبة، فمن دعاني منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب يا آدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب».

التوبة واجبة على الدوام فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك، لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم»**[2].

وقال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ

---

(١) الرسالة القشيرية (٩١ ـ ٩٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة.

غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥] «في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب».

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «من ذكر خطيئة ألمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب».

ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان، فقال له: «إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يُغلق فاعمل ولا تيأس».

قال عمر رضي الله عنه: اجلسوا إلى التوابين، إنهم أرق أفئدة.

ينبغي للتائب أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات، لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات، فما كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، فالاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: «رب ظلمت نفسي فاغفر لي».

قال رسول الله ﷺ: **«ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عزَّ وجلّ، إلا غُفر له»**[1].

فاعلم انه شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة.

وقال أيضاً صلوات الله عليه[2]: **«إن المؤمن إذا أذنب كانت نقطة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله عزَّ وجلّ في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾»**[3] [المطففين: ١٤].

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده عن علي بن أبي طالب (تفسير القرطبي: ٢٠٩/٤).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث حسن صحيح.

(٣) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٢٥٥ ـ ٢٨٠).

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: **«يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»**[1] وكان أصحابه يعُدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور» مائة مرة.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها.

والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك. وله سبحانه في هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخذلانك حتى واقعته ـ حكم وأسرار.

فحقيقة التوبة: هي الندم على ما سلف منه في الماضي. والإقلاع عنه في الحال. والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل.

وحقائق التوبة ثلاثة أشياء: تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له إذا خولفت أوامره وعدم الاعتذار للمخالف بأن حكم القدر قد جرى عليه.

فأما تعظيم الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها. وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها. فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلاً ـ لم يندم على إضاعته. فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه، وعظمت إضاعته عنده.

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء: تعظيم الأمر، وتعظيم الآمر. والتصديق بالجزاء.

وأما اتهام التوبة: فلأنها حق عليه. لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنه ما وفاها حقها، وأنها لم تقبل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء. ولا تكون لغير المذنب. لا تحصل بجوع، ولا حب

---

(١) مسند البزار: (٢١٠/٦) ـ وأخرجه مسلم بلفظ مائة مرة (٢٠٧٥/٤).

مجرد. وإنما هي أمر وراء هذا كله. تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً.

فليس شيء أحب إلى الله من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له. فلله ما أحلى قوله في هذه الحال «أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك. هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير. وليس لي سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. أسألك مسألة المسكين. وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل. وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها. وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولاحقة. فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد.

فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم. فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم. والحكم ينتفي لانتفاء علته[1].

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة» وقد

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (١٢١ ـ ١٧٩).

أمر الله تعالى بها في كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٤] وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:٧٥].

و «الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته. وهي إنابة المخلوقات كلها. يشترك فيها المؤمن والكافر، والبر والفاجر. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر. كما هو الواقع. وهذه «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجمع الشرك والكفر. كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم:٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية هي إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة.

وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع. وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والتقدم. و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته، الراجع إليه كل وقت. المتقدم إلى محابه. وهي في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلى الحق.

قال الشيخ الهروي:

«وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهدا. والرجوع إليه حالاً، كما رجع إليه إجابة». أي لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان:٧٠].

قال «وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء: بالخروج من التبعات، والتوجع للعثرات، واستدراك الفائتات».

والخروج من التبعات هو بالتوبة من الذنوب التي بين العبد وبين الله. وأداء الحقوق التي عليه للخلق.

ثم أن يتوجع لعثرته إذا عثر، فيتوجع قلبه وينصدع. وهذا دليل على إنابته إلى الله. بخلاف من لا يتألم قلبه ولا ينصدع من عثرته. فإنه دليل على فساد قلبه وموته.

وأيضاً أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر حتى كأنه هو الذي عثر بها ولا يشمت به. فهو دليل على رقة قلبه وإنابته.

ويكمل ذلك باستدراك الفائتات: وهو استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها، أو خير منها ولا سيما في بقية عمره.

قال: «وإنما يستقيم الرجوع إليه عهداً: بثلاثة أشياء. بالخلاص من لذة الذنب. وبترك الاستهانة بأهل الغفلة، تخوفاً عليهم، مع الرجاء لنفسك. وبالاستقصاء في رؤية علة الخدمة».

فإن العبد إذا صفت له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة في لذة الذنب. وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره، والفكرة فيه. فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة في قلبه، فإنابته غير صافية.

فإن قيل: أي الحالين أعلى؟ حال من يجد لذة الذنب في قلبه، فهو يجاهدها لله، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب في قلبه وصار مكانها ألما وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه، وسكوناً إليه، والتذاذاً بحبه، وتنعماً بذكره؟ قيل: حال هذا (الأخير) أكمل وأرفع.

ومن علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتخشى على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارجُ لهم الرحمة. واخش على نفسك النقمة. فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه. فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك.

قال بعض السلف: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً.

فبين العمل وبين القلب مسافة. وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب، فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء، ولا زهد في الدنيا ولا رغبة في الآخرة. ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه، وبين الحق والباطل، ولا قوة في أمره، فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق. ورأى الحق والباطل. وميز بين أولياء الله وأعدائه. وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال.

ثم بين القلب وبين الرب مسافة. وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب وإدلال، ورؤية العمل، ونسيان المنة. وعلل خفية لو استقصى في طلبها لرأى العجب. ومن رحمة الله تعالى: سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة.

وإنما يستقيم الرجوع إليه حالاً بثلاثة أشياء: بالإياس من عملك. وبمعاينة اضطرارك، ورؤية لطفه بك.

فتيأس من النجاة بعملك. وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لن ينجي أحداً منكم عمله**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**».

وأما معاينة الاضطرار: فإنه إذا أيس من عمله: شهد أن الله عزّ وجلّ غني بالذات، فإن الغنى وصف ذاتي للرب، والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد.

وعلى العبد بعد ذلك أن ينظر إلى ألطاف الله، ويعلم أن كل ما هو فيه وما يرجوه وما تقدم له لطف من الله به، ومنة منّ بها عليه، وصدقة

تصدق بها عليه بلا سبب منه، إذ هو المحسن بالسبب والمسبب، والأمر له من قبل ومن بعد، وهو الأول والآخر، لا إله غيره، ولا رب سواه[1].

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**إن العبد ليذنب الذنب فيدخله ذنبه الجنة**»، قيل: يا رسول الله، وكيف يُدخله ذنبُهُ الجنة؟ قال: «**لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله (ذنبه) الجنة**»[2].

وقيل لسعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: رجل أصاب من الذنوب فإذا ذكرها اجتهد.

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «**خياركم كل مفتَّن تواب**»[3] يخبرك: أن خيار أمته لن يعروا عن الزلل، وأن علمهم بالله عزَّ وجلّ، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإنابة.

قلت: فما منزلة من لم تطب نفسه أن يقلع عنه ولا يتوب، وغلبته نفسه؟.

قال: أولئك في ثلاث منازل:

فأهل المنزلة الأولى: مقيمون على الذنوب، طالبون للتوبة على غير حقائقها ولا استتمام طلبها، يبكون ويتضرعون، ويتفكرون في الوعيد والعذاب، رجاء أن تسخو نفوسهم بالتوبة. ويأتون مواضع الذكر، فيتفكرون فيما يسمعون أو لا يأتون مواضع الذكر، ولكن يتفكرون فيبكون ويتضرعون، فيملّون ولا يدمنون على التخويف لأنفسهم إلى وقت هيجان الخوف المنغص لهم لذات ذنوبهم، فلا يدمنون على ذكر إدماناً يبلغون به من الخوف ما يبعثهم على التوبة، وتسخو أنفسهم بترك المعصية لأن النفس والعدو إذا أدمن العبد من طلب الخوف، دعواه إلى الملال والسآمة والإعراض عن الفكرة، فتستثقل النفس ذلك، لما غمها من الخوف، ولما

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢٣١ ـ ٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد عن الحسن، (الهيثمي: مجمع الزوائد ١٠/١٩٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان.

تخاف من تنغيص لذتها عليها، فإن كان عبداً عاقلاً عازماً لم يمل وأدمن الفكر حتى يقوى منه الخوف ويترك ما كره الله عزَّ وجلّ. ويقطع التسويف للتوبة.

وأهل المنزلة الثانية ليسوا بأصحاب فكرة لطلب الخوف، ولا تسخو نفوسهم بذلك؛ لأنهم يكرهون ما هم فيه ويغتمون لذلك، ويسألون الله عزَّ وجلّ النقلة، ولاينوون المقام على الذنوب حتى يموتوا، ولكن يسوفون التوبة ويضربون لها الآجال.

وأهل المنزلة الثالثة: أهل العمى والجهل والشرود على الله عزَّ وجلّ، مقيمون على الذنوب، مغتبطون بما هم فيه من لذاتهم، فلا يحدثون أنفسهم بالتوبة، ولا يضربون لها أجلاً بالتسويف، فهؤلاء شرار المسلمين وفساق الموحدين.

قلت: فأهل المنزلتين قبل هؤلاء: الذين يقومون على بعض ويقلعون عن بعض، والذين يقومون على الكل، وكلاهما يحب التوبة، ويسوفها، فهما أقرب إلى التوبة، ومطالبتها عليهم أيسر من هذه الفرقة الثالثة، فبم يقطعان جميع التسويف؟.

قال: الذي يقطعان بإذن الله التسويف به خلتان:

إحداهما: خوف المعاجلة بالموت أن يكون أجل الله عزَّ وجلّ، في روحه قبل الأجل الذي أجله لتوبته فيموت بحسرته لم يبلغ أمله، ولم يتب من ذنبه، فلا إلى الله عزَّ وجلّ تاب، ولا بلغ من لذته ما أراد، فمات بغصة الدنيا والآخرة.

والخلة الثانية: خوف أن يضرب الله عزَّ وجلّ، قلبه بعقوبة مانعة له من التوبة من القسوة والرين أو الطبع أو المرض أو الإقفال، ويكون أجله مع ذلك مؤخراً. فيطول عمره بالسكرة والحيرة، فيكون إنما يُملي له ليزداد إثماً[1].

---

(١) الرعاية لحقوق الله (٥٩، ١٢٩ - ١٣١).

ـ يا غلام ارجع بقلبك إلى الله عزَّ وجلّ، التائب إلى الله هو الراجع إليه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] أي ارجعوا إلى ربكم، يعني ارجعوا سلموا الكل إليه سلموا أنفسكم إليه واطرحوها بين يدي قضائه وقدره وأمره ونهيه وتقليباته. بل بموافقة وتصديق.

(ويحك) قد خرست استغث إلى الحق عزَّ وجلّ، ارجع إليه بأقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك وينجيك من لجة بحر هلاكك، تفكر في عاقبة ما أنت فيه وقد سهل عليك تركه، أنت مستظل بشجرة الغفلة، شجرة الغفلة تربى بماء الجهل، وشجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة، وشجرة المحبة ترقى بماء الموافقة.

(يا قوم) توبوا من ترككم التقوى، التقوى دواء وتركها داء، توبوا فإن التوبة دواء والذنوب داء، قال النبي ﷺ يوماً لأصحابه: **«ألا أعلمكم ما دواؤكم وما داؤكم؟»** فقالوا: بلى يا رسول الله، فقال: **«داؤكم الذنوب ودواؤكم التوبة»**[1].

التوبة عرس الإيمان، والمواظبة على مجالس الذكر وطاعة الحق عزَّ وجلّ شفاء لهم، توبوا بلسان الإيمان وقد جاءكم الفلاح.

تب توبة في إثر توبة من أعمالك، وندامة في إثر ندامة من تجريك وسوء أدبك، وأكثر البكاء على ما كان منك، وواس الفقراء بشيء من مالك لا تبخل به، فعن قريب تفارقه، المؤمن الموقن بالخلف في الدنيا والآخرة لا يكون بخيلاً.

اشتغل بالتوبة من ذنوبك ووقاحتك على ربك عزَّ وجلّ وتجريك عليه، ويلك الحياء من الله عزَّ وجلّ يكون لا من الخلق هو الكائن قبل كل

---

(١) لم أقف على نصه والمعنى صحيح مصداقاً لقوله تعالى: فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً.

شيء فتستحي من المحدث وتتواقح على القديم! هو الكريم وغيره لئيم، هو الغني وغيره الفقير، دأبه العطاء ودأب غيره المنع، حافظ على حدود شرعه ولازم تقواه[1].

(١) الفتح الرباني (٧٢، ١١١، ١١٩، ١٢٩، ١٣٢).

الموقف الثامن والعشرون:
مراقبة النفس ومحاسبتها

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

حدثنا جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال: **«أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة، ثم اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة»**[(١)].

سُئل أحد المشايخ عن الإسلام فقال: ذبح النفس بسيوف المخالفة، واعلم أن من نجمت طوارق نفسه ذهبت من قلبه شوارق أنسه (بالله).

وقال ذو النون المصري: مفتاح العبادة الفكر، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، فالنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها.

وقال أبو بكر الطمستاني: النعمة العظمى هي الخروج من النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عزّ وجلّ.

---

(١) أخرجه ابن عدي عن جابر (كنز العمال: ٢٢/١٦).

وقال سهل بن عبدالله: ما عبد إنسان ربه كمخالفة النفس والهوى.

وقيل لبعضهم: إني أريد أن أحج على التجريد، فقال له: جرد أولاً قلبك عن السهو، ونفسك عن اللهو، ولسانك عن اللغو، ثم اسلك حيث شئت[1].

وقد دل على المحاسبة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد. وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك، والنظر: هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا. وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر». ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨] أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم».

وبداية المحاسبة أن تقايس بين نعمته عزّ وجلّ، وجنايتك، فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب.

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد. ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال.

وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها. ويتولد من ذلك: من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها.

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفاراً عقيب الطاعات،

---

(١) الرسالة القشيرية (١٥١ ـ ١٥٤).

لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقال بعض العارفين: متى رضيت نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟.

ولله در الشيخ أبي مدين حيث يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوى، وأقواله بعين الافتراء. وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النفس: تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله. ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله[1].

قلت: فما المحاسبة؟.

قال: النظر والتثبت، بالتمييز لما كره الله عزَّ وجلّ، مما أحب، ثم هي على وجهين: أحدهما في مستقبل الأعمال، والآخر في مستدبرها.

وقال محمد بن علي رضي الله عنه: «إن المؤمن وقّاف متأنّ، يقف عند همه لله عزَّ وجلّ، وليس كحاطب ليل».

وسأل رجل النبي ﷺ أن يوصيه ويعظه، فقال: «**إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه**»[2].

وقال لقمان: إن المؤمن أبصر العاقبة، فأمن الندامة. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعجل بقضاء الشهوة حتى تنظر في العاقبة، فإنه كان يقال:

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (١١٥ ـ ١١٩).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ١٤.

إن مكث الندامة في القلب بارتكاب الشهوة أكثر مكثاً من مكث الشهوة.

وكذلك جاء الخبر عن النبي ﷺ: **«البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا ينام، فكن كما شئت كما تدين تدان»**[1].

وقال عمر لكعب: كيف تجدنا في كتاب الله عزَّ وجلَّ؟ فقال: ويل لديّان الأرض من ديّان السماء. فضربه بالدرة وقال: إلا من حاسب نفسه، قال: فقال له كعب: والله يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها.

وقال جل وعلا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فأمرهم جل وعلا أن يستدبروا أعمالهم التي مضت، بالندم على ذنوبهم، والتوبة إلى ربهم.

وقد روى المختار بن فلفل عن الحسن في تفسير المحاسبة في مستقبل الأعمال ومستدبرها أنه قال: إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله عزَّ وجلَّ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر عن غير محاسبة.

فالنفس يثقل عليها الفكر إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها أيام حياتها، ويحملها على ما تكره ويثقل عليها، وقد علم العدو أنه إنما يطالب ما يُبطل عنه مكائده، ويدحض حجته، ويخالف محبته؛ فلهذه الخلال الثلاث ثقلت على المريدين الفكرة.

فيرجع إلى نفسه بالعتاب لها وبالتوبيخ في ذلك فيقول لها:

أتجزعين أن أسجن عقلك عن النظر في الدنيا؟ فكيف بسجنك في النار أبدا؟.

فتحملي هذا الثقل القليل للنجاة من السجن الطويل في النار بل

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٤٠٥.

أتجزعين من سجن عقلك فيك عن النظر في الدنيا لنجاتك وفوزك في المعاد؟ ولا تجزعين إن تركت الفكرة التي تحجزك عن المعاصي التي تورثك السجن وتكبك في النار أبدا[1].

إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها: مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم عليّ به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم قد رددت فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها فلا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق.

وقد قال بعضهم: «هب أن المسيء قد عُفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين». أشار به إلى الغبن والحسرة.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]. فهذه وصيته لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل. فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو لا سيما اللسان والبطن.

أما اللسان: فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمة، والطعن والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام.

وأما البطن: فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال واجتناب

---

(١) الرعاية لحقوق الله (٤٥ - ٥١، ٦٦ - ٦٧).

الشبهات، ويمنعه عن الشهوات، وهكذا يشرط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها.

رُوي أن جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: **«أن تعبدالله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤].

وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨] فقال: «معناه ذلك لمن راقب ربه عزَّ وجلَّ، وحاسب نفسه وتزود لمعاده».

وقال رجل للجنيد: «بم استعين على غض البصر؟».

فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه».

وقال سفيان الثوري: «عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة».

وقال فرقد السنجي: «إن المنافق ينظر، إذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى».

فالمراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهَم إليه، ويُعنى بها حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه.

وأما المعرفة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر. رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت وإن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة مكشوف. ثم للمراقب في أعماله نظران، نظر قبل العمل، ونظر في العمل. أما قبل العمل فلينظر أن همّه وحركته

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

أهي لله خاصّة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان؟ فإن كان لله تعالى أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفَّ عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمّه به، وميله إليه. وأما النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل لذلك بتفقد كيفية العمل ليقضي حق الله فيه، ويُحسن النية في إتمامه، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه.

وهذا ملازم له في جميع أحواله؛ لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو في مباح. فمراقبته في الطاعات بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات، وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها. ونعمة لا بد له من الشكر عليها. وكل ذلك من المراقبة.

وقال ميمون بن مهران: التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ومن شريك شحيح. إذا علمت هذا فينبغي أن يكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد.

وحكي أن تميم الداري رضي الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى أصبح، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع.

وكما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه خرج إلى حائط له، ثم رجع وقد صلى الناس العصر. فقال: إنما خرجت إلى بستاني، ورجعت وقد صلى الناس العصر! بستاني صدقة على المساكين.

وإذا حاسب نفسه فرآها قد فارقت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتشغيل الأوراد عليها، ويلزمها فنوناً من

الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى.

فقد عاقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه نفسه حينما فاتته صلاة في الجماعة، فأحيا الليل كله تلك الليلة. وإذا لم تطاوعه نفسه على الأوراد، فإنه يجاهدها ويكرهها ما استطاع، ومما يستعان به عليها أن يسمعها أخبار المجتهدين، وما ورد في فضلهم ويصحب من يقدر عليه منهم، فيقتدي بأفعاله، قال بعضهم: «كنت إذا اعترتني فترة من العبادة نظرت إلى وجه محمد بن واسع وإلى اجتهاده؟ فعملت على ذلك أسبوعاً».

ويروى أن الله تعالى يقول لملائكته: «ما بال عبادي مجتهدين؟».

فيقولون: إلٰهنا خوفتهم شيئاً فخافوه وشوقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه!.

فيقول الله تبارك وتعالى: «فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهاداً».

واعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلقت أمّارة بالسوء، ميّالة إلى الشر، فرّارة من الخير، وأُمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها. ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها. فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]. وسبيلك أن تُقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق، فتقول لها: «يا نفس ما أعظم جهلك تدّعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً. أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار؟ وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟.

فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات! هيهات، جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قرّبي أصبعك من النار ليتبين لك قدرُ طاعتك. أم تغترّين بكرم الله وفضله؟.

فمالك لا تعوّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك[١].

عظ نفسك أولاً ثم عظ نفس غيرك، عليك بخويصة نفسك، لا تتعد إلى غيرك وقد بقي عندك بقية تحتاج إلى إصلاحها ويحك أنت تعرف كيف تخلص غيرك، أنت أعمى، كيف تقود غيرك؟ إنما يقود الناس البصير، إنما يخلصهم من البحر السابح المحمود. إنما يرد الناس إلى الله عزَّ وجلَّ من عرفه، أما من جهله فكيف يدل عليه؟ لا كلام لك في تصرف الله عزَّ وجلّ، عليك أن تحبه وتعمل له لا لغيره، وتخاف منه لا من غيره. إذا كان التوحيد بباب الدار والشرك داخل الدار فهو النفاق بعينه، ويحك أنت لسانك يتقي وقلبك يفجر لسانك يشكر وقلبك يعترض قال الله عزَّ وجلّ **«يا بن آدم خيري إليك نازل وشركك إليّ طالع»**[٢].

ويحك نفسك منافقة كاذبة كافرة فاجرة مشركة كيف تقعد معها؟ خالفها ولا توافقها قيّدها ولا تطلقها، اسجنها وأجر عليها حقها الذي لابد منه، اقمعها بالمجاهدات وأما الهوى فاركبه ولا تخله يركبك، والطبع فلا تصحبه فإنه طفل صغير لا عقل له.

أمسك لسان نفسك عن شكواها إلى الخلق كن خصماً لله عزَّ وجلّ عليها وعلى جميع الخلق تأمرهم بطاعته وتنهاهم عن معصيته وتنهاهم عن الضلال والابتداع واتباع الهوى وموافقة النفس.

حاسب نفسك قبل مجيء الآخرة، ولا تغتر بحكم الله عزَّ وجلّ عنك وكرمه عليك أنت قائم على أسوأ الأحوال من المعاصي والزلات وظلم الناس، المعاصي بريد الكفر، كما أن الحمى بريد الموت. عليك بالتوبة قبل الموت قبل مجيء الملك الموكل بأخذ الأرواح.

حظوظ القلب باطنة، وحظوظ النفس ظاهرة، فحظوظ القلب لا تأتي إلا بعد منع النفس حظوظها، فإذا امتنعت انفتحت أبواب حظوظ

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٤٠٠ ـ ٤٠٩).

(٢) من حديث قدسي ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين.

القلب، حتى إذا استغنى القلب بحظوظه من الحق عزَّ وجلّ جاءت الرحمة للنفس.

قد أخبرك الله عزَّ وجلّ بجهادين: ظاهر وباطن:

فالباطن جهاد النفس والهوى والطبع والشيطان والتوبة عن المعاصي والزلات والثبات عليها وترك الشهوات المحرمات.

والظاهر جهاد الكفار المعاندين له ولرسوله ﷺ ومقاساة سيوفهم ورماحهم وسهامهم يقتلون ويُقتلون، فالجهاد الباطن أصعب من الجهاد الظاهر؛ لأنه شيء ملازم متكرر، وكيف لا يكون أصعب من الجهاد الظاهر وهو قطع مألوفات النفس من المحرمات وهجرانها وامتثال أوامر الشرع والانتهاء عن نهيه، فمن امتثل أمر الله عزَّ وجلّ في الجهادين حصلت له المجازاة دنيا وآخرة، الجراحات في جسد الشهيد كالفصد في يد أحدكم لا ألم لها عنده، والموت في حق المجاهد لنفسه التائب من ذنوبه كشرب العطشان للماء البارد.

المؤمن يفنى عنه وعن عمله وعن كل ما سوى الحق عزَّ وجلّ فيعمل الأعمال وهو في معزل عنها، ما زال يجاهد نفسه والخلق كلهم في جنب الحق عزَّ وجلّ حتى هداه إلى سبيله، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

(ويحك) إذ كان هذا الكلب الشره يتعلم حفظ الصيد ويترك شرهه وطبعه، وهذا الطائر أيضاً بالتعليم يخالف طبعه ويترك ما كان عليه من أكل الصيود، فنفسك أولى بالتعليم، علّمها وفهّمها حتى لا تأكل دينك وتمزقك وتخون في أمانات الحق عزَّ وجلّ المودعة عندها دين المؤمن عنده لحمه ودمه.

لا تغتر بنفخ الشيطان فيك، ولا تهزم من سهام النفس فإنها ترميك بسهامه فإنه لا يقدر عليك إلا بطريقها، شيطان الجن لا يقدر عليك إلا بشيطان الإنس وهي النفس والأقران السوء، استغث بالله عزَّ وجلّ واستعن به على هؤلاء الأعداء فإنه يغيثك.

اقرع دماغ نفسك وهواك وطبعك وشيطانك وأعدائك وأقرانك السوء، استعينوا بربكم عزَّ وجلّ على هؤلاء الأعداء، والمنصور من يصبر عليهم والمخذول من وكل إليهم، الآفات كثيرة ومنزلها واحد، الأمراض كثيرة وطبيبها واحد يا مرضى النفوس سلموا نفوسكم إلى الطبيب لا تتهموه فيما بكم فهو أرأف بكم منكم على نفوسكم.

(يا غلام) فيما يعنيك شغل عما لا يعنيك. أخرج نفسك من قلبك وقد جاءك الخير فإنها هي الكدرة المكدرة بعد خروجها يجيء الصفاء غير كدر وقد غيرت، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

(يا غلام) اضرب نفسك بسوط الجوع والمنع من الشهوات واللذات والترهات واضرب قلبك بسوط الخوف والمراقبة؛ اجعل الاستغفار دأب نفسك وقلبك وسرك فإن لكل منهم ذنباً يخصه.

(يا غلام) إذا أردت الفلاح فخالف نفسك، فما دمت مع نفسك لا تعرف الخلق وما دمت مع الخلق لا تعرف الحق عزَّ وجلّ، ما دمت مع الدنيا لا تعرف الآخرة وما دمت مع الآخرة لا ترى رب الآخرة، مالك ومملوك لا يجتمعان.

﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨].

ذوبها بالمجاهدة فإنها إذا ذابت وفنيت اطمأنت إلى القلب، ثم يطمئن القلب إلى السر ثم يطمئن السر إلى الحق عزَّ وجلّ فيكون شرب الجميع من هنالك، إذا تم تذويبك لها تنادي من حيث قلبك:

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩].

إنما يجيء هذا الخطاب من الحق عزَّ وجلّ بعد طهارتها من الأكدار وذوبان شرها وسمن القلب بذكر الحق عزَّ وجلّ وطاعته إذا لم يحصل لها هذا فلا نطمع في تقريبها مع كدرها وشرها، عظها بموعظة الرسول ﷺ لابن عمر: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعُدَّ نفسك في أهل**

القبور». فقال ابن عمر: «إذا أصبحت فلا تُحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»[1].

إنما عين الحق عزَّ وجلّ على النفس دون غيرها، وأمره بتركها لأن الدنيا وما فيها وما سوى الحق عزَّ وجلّ في الجملة تبع للنفس، الدنيا لها وهي محبوبتها والآخرة لها أيضاً فإن الله عزَّ وجلّ قال:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

إذا فقدت نفسك في حال خلوتك وطلبتها مع الطالبين حينئذ صارت خلوتك أنساً بالحق عزَّ وجلّ، إذا تركت نفسك مع الدنيا وقلبك مع الأخرى وسرك مع المولى حينئذ صارت خلوتك أنساً بالله وأما مع وجودها ووجود غيرها من الأنفس فلا يكون لك خلوة.

يا من لم يميز بين خاطر النفس والشيطان والقلب كيف ينقطع خاطر الشيطان بالمعاصي والزلات وبالفكر في الأصل وبالمعاصي في الفرع وخاطر الملك بالطاعات والأعمال الصالحة، قيل للذي صلب (يعني الحلاج) أوصني، قال: هي نفسك إن ركبتها وإلا ركبتك.

﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

لا تبالي من أين أكلت، كالزوجة السوء تقول لزوجها اسرق وأطعمني! فهي لا تميز بين الحلال والحرام، ولهذا قال النبي ﷺ:[2] **«عليك بذات الدين تربت يداك»**[3].

❀❀❀

---

(١) سنن الترمذي: ٥٦٧/٤ برقم: ٢٣٣٣.

(٢) صحيح مسلم: ١٠٨٧/٢ برقم ٧١٥ عن جابر بن عبدالله.

(٣) الفتح الرباني: (٩، ١١، ٥٣، ٥٨، ٨٠، ٨٤، ١٠٠، ١١٨، ١٢٢، ١٢٥، ١٥١، ١٦٨، ١٧٨، ٢٠٠، ٢٠٦، ٣٢٩، ٣٤٩).

الموقف التاسع والعشرون:
حسن الخلق

قال الله تعالى مثنياً على نبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

وفي الصحيحين: أن هشام بن حكيم «سأل عائشة رضي الله عنها عن خُلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان خلقه القرآن. فقال: لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئاً».

وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق. وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «**ما هذا؟**» قال: لا أدري حتى أسأل، فسأل، ثم رجع إليه، فقال: إن الله يأمرك أن تَصِلَ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وفي صحيح مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت

---

(١) رواه الطبراني من حديث جابر (فتح الباري: ٨/٣٠٦).

رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

فقابل البر بالإثم. وأخبر: أن البر حسن الخلق. والإثم: حوازُّ الصدور. وهذا يدل على أن حسن الخلق: هو الدين كله. وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام. ولهذا قابله بالإثم.

وفي حديث آخر «**البر: ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في الصدر**»[1] وقد فسر حسن الخلق بأنه البر. فدل على أن حسن الخلق: طمأنينة النفس والقلب. والإثم حوّاز الصدور وما حاك فيها، واسترابت به. وهذا غير حسن الخلق وسوئه في عرف كثير من الناس.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ «**خياركم: أحاسنكم أخلاقاً**» وفي الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق، وإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء**». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفيه أيضاً - وصححه - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله، وحسن الخلق**». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**».

وفيه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ - وصححه - «**إن من أكمل المؤمنين إيماناً: أحسنهم خلقاً. وخياركم خياركم لنسائهم**».

وفي الصحيح عن عائشة، عنه ﷺ: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**» رواه أبو داود.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عنه ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة: لمن ترك المراء وإن كان محقاً. وببيت في وسط الجنة: لمن ترك**

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٦٢/٣) برقم (١٥٨٧).

الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه» رواه الطبراني وإسناده صحيح.

وفي الترمذي عن جابر رضي الله عنه، عنه ﷺ: **«إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»**. قالوا: يا رسول الله. قد علمنا الثرثارون والمتشدقون. فما المتفيهقون؟ قال: **«المتكبرون»** الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية، المتشدق: المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره. وأصله من الفهق. وهو الامتلاء.

وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصور قيام ساقه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل.

فالصبر: يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والإناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة.

والعفة: تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل، وتحمله على الحياء. وهو رأس كل خير. وتمنعه من الفحشاء، والبخل والكذب، والغيبة والنميمة.

والشجاعة: تحمله على عزة النفس، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته. وتحمله على كظم الغيظ والحلم. فإنه بقوة نفسه وشجاعتها يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن النزغ والبطش. كما قال النبي ﷺ: **«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد: الذي يملك نفسه عند الغضب»**[1] وهو حقيقة الشجاعة، وهي ملكة يقتدر بها العبد على قهر خصمه.

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (٥٧٦٣): ٢٢٦٧/٥.

والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط. فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي توسط بين الذل والقحة. وعلى خلق الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور. وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس.

ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب.

فالجهل: يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن. والكمال نقصاً والنقص كمالاً.

والظلم: يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضى، ويرضى موضع الغضب، ويجهل في موضع الأناة، ويبخل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشتد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة: تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والذل والدناءات كلها.

والغضب: يحمله على الكبر والحقد والحسد، والعدوان والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق: أخلاق مذمومة.

وملاك هذه الأربعة أصلان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة فيتولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، والذل والحرص، والشح وسفساف الأمور والأخلاق.

ويتولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والحدة، والفحش والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة: يولد بعضها بعضاً.

وكل خلق محمود مكتنف بخلقين ذميمين. وهو وسط بينهما. وطرفاه خلقان ذميمان، كالجود: الذي يكتنفه خلقا البخل والتبذير. والتواضع: الذي يكتنفه خلقا الذل والمهانة. والكبر والعلو.

فإن النفس متى انحرفت عن «التوسط» انحرفت إلى حد الخلقين الذميمين ولا بد، فإذا انحرفت عن خلق «التواضع» انحرفت: إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذلٍ ومهانة وحقارة. وإذا انحرفت عن خلق «الحياء» انحرفت: إما إلى قحة وجرأة، وإما إلى عجز وخور ومهانة، بحيث يُطمِع في نفسه عدوه. ويفوته كثير من مصالحه. ويزعم أن الحامل له على ذلك الحياء. وإنما هو المهانة والعجز، وموت النفس.

وكذلك إذا انحرفت عن خلق «الصبر المحمود» انحرفت: إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع.

وإذا انحرفت عن خلق «الحلم» انحرفت: إما إلى الطيش والترف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة. ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف.

وإذا انحرفت عن خلق «الأناة والرفق» انحرفت: إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة. والرفق والأناة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «العزة» التي وهبها الله للمؤمنين، انحرفت: إما إلى كبر، وإما إلى ذل. والعزة المحمودة بينهما.

وإذا انحرفت عن خلق «الشجاعة» انحرفت: إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم.

وإذا انحرفت عن خلق «المنافسة في المراتب العالية والغبطة» انحرفت: إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضى بالدون.

إذا انحرفت عن «القناعة» انحرفت: إما إلى حرص وكَلَب، وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة.

وإذا انحرفت عن خلق «الرحمة» انحرفت: إما إلى قسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد. ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك.

وكذلك طلاقة الوجه، والبشر المحمود. فإنه وسط بين التعبيس والتقطيب وتصعير الخد، وطي البِشر عن البَشَر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يُذهب الهيبة، ويزيل الوقار.

واعلم أن أصعب ما على الطبيعة الإنسانية: تغيير الأخلاق التي طبعت النفوس عليها. وأصحاب الرياضات الصعبة والمجاهدات الشاقة إنما عملوا عليها، ولم يظفر أكثرهم بتبديلها.

فالله سبحانه قد اقتضت حكمته: أن ركّب الإنسان ـ بل وسائر الحيوان ـ على طبيعة محمولة على قوتين: غضبية. وشهوانية. وهي الإرادية.

وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها. وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان. فبقوة الشهوة والإرادة: يجذب المنافع إلى نفسه. وبقوة الغضب: يدفع المضار عنها. فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه: تولد منها الحرص. وإذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه: تولد منه القوة والغيرة. فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد. وإن أعجزه وصول ما يحتاج إليه، ورأى غيره مستبداً به أورثه الحسد. فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته خلق البخل والشح. وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء، ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية، فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان، والبغي والظلم. ومنه يتولد: الكبر والفخر والخيلاء. فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب.

وللعبد فيما يصيبه من أذى الخلق أحد عشر مشهداً:

أحدها: هو مشهد القدر: وأن ما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره.

المشهد الثاني: مشهد «الصبر» فيشهده ويشهد وجوبه، وحسن عاقبته، وجزاء أهله، وما يترتب عليه من الغبطة والسرور.

المشهد الثالث: مشهد «العفو والصفح والحلم» فإنه متى شهد ذلك وفضله وحلاوته وعزته لم يعدل عنه إلا لعشى في بصيرته فإنه **«ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»** كما صح ذلك عن النبي ﷺ[1].

المشهد الرابع: مشهد «الرضا» وهو فوق مشهد «العفو والصفح» وهذا لا يكون إلا للنفوس المطمئنة، سيما إن كان ما أصيب به سببه القيام لله. فإذا كان ما أصيب به في الله، وفي مرضاته ومحبته: رضيت بما نالها في الله.

المشهد الخامس: مشهد «الإحسان» وهو أرفع مما قبله. وهو أن يقابل إساءة المسيء إليه بالإحسان. فيحسن إليه كلما أساء هو إليه.

المشهد السادس: مشهد «السلامة وبرد القلب» وهذا مشهد شريف جداً لمن عرفه، وذاق حلاوته. وهو أن لا يشتغل قلبه وسره بما ناله من الأذى، وطلب الوصول إلى درك ثأره، وشفاء نفسه. بل يفرغ قلبه من ذلك. ويرى أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له. وألذ وأطيب. وأعون على مصالحه.

المشهد السابع: مشهد «الأمن» فإنه إذا ترك المقابلة والانتقام: أمن ما هو شر من ذلك. وإذا انتقم واقعه الخوف ولا بد. فإن ذل يزرع العداوة. والعاقل لا يأمن عدوه، ولو كان حقيراً. فكم من حقير أردى عدوه الكبير؟.

المشهد الثامن: مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة برقم (٥٧٦٣): ٥/٢٢٦٧.

جهاده في سبيل الله. وأمرهم بالمعروف. ونهيهم عن المنكر. وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته.

المشهد التاسع: مشهد «النعمة» وذلك من وجوه:

أحدها: أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوماً يترقب النصر. ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والأخذ. فلو خُيِّر العاقل بين الحالتين - ولابد من إحداهما - لاختار أن يكون مظلوماً.

ومنها: أن يشهد نعمة الله في التكفير بذلك من خطاياه. فإنه ما أصاب المؤمن هم ولا غم ولا أذى إلا كفَّر الله به من خطاياه. فذلك في الحقيقة دواء يستخرج به منه داء الخطايا والذنوب.

ومنها: أن يشهد كون تلك البلية أهون وأسهل من غيرها. فإنه ما من محنة إلا وفوقها ما هو أقوى منها وأمر. فإن لم يكن فوقها محنة في البدن والمال فلينظر إلى سلامة دينه وإسلامه وتوحيده. وأن كل مصيبة دون مصيبة الدين فهينة.

المشهد العاشر: مشهد «الأسوة» وهو مشهد شريف لطيف جداً. فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسوة برسُل الله، وأنبيائه وأوليائه، وخاصته من خلقه. فإنهم أشد الخلق امتحاناً بالناس، وأذى الناس إليهم أسرع من السيل في الحدور. ويكفي تدبر قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم.

المشهد الحادي عشر: مشهد «التوحيد» وهو أجل المشاهد وأرفعها. فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله، والإخلاص له ومعاملته، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، وقرة العين به، والأنس به، واطمأن إليه، وسكن إليه. واشتاق إلى لقائه، واتخذه ولياً دون من سواه، بحيث فوَّض إليه أموره كلها. ورضي به وبأقضيته. وفني بحبه وخوفه ورجائه وذكره والتوكل عليه، عن كل ما سواه: فإنه لا يبقى في قلبه متسع لشهود أذى الناس له البتة. فضلاً عن أن يشتغل قلبه وفكره وسره بتطلب الانتقام والمقابلة. فهذا لا يكون إلا من

قلب ليس فيه ما يغنيه عن ذلك ويعوضه منه. فهو قلب جائع غير شبعان. فإذا رأى أي طعام رآه هفت إليه نوازعه.

وانبعثت إليه دواعيه. وأما من امتلأ قلبه بأعلى الأغذية وأشرفها: فإنه لا يلتفت إلى ما دونها. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. والله ذو الفضل العظيم.

ومدار حسن الخلق مع الحق، ومع الخلق: على حرفين. ذكرهما عبدالقادر الكيلاني فقال: كن مع الحق بلا خلق. ومع الخلق بلا نفس.

فمتى عزلت الخلق ـ حال كونك مع الله تعالى ـ وعزلت النفس ـ حال كونك مع الخلق ـ فقد فزت بكل ما أشار إليه القوم. وشمروا إليه. وحاموا حوله. والله المستعان[1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً، قال: أحسنهم خلقاً[2].

قال الشيخ القشيري: الخلق الحسن أفضل مناقب العبد، يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخلقه مشهود بخُلُقه.

وقال النبي ﷺ: **«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق»**[3].

وقيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هماً؟ قال: أسوأهم خلقاً.

وقال الفضيل بن عياض: لو أن العبد أحسن الإحسان كله، وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين.

وقيل: كان أويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة، فيقول: إن كان لا بد أن ترموني بالحجارة فارموني بالصغار كي لا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٤١٣ ـ ٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة عن أنس بن مالك (رقم: ٤٢٥٩).

(٣) أخرجه البزار والحاكم والبيهقي (كنز العمال: ٦/٣ ـ رقم: ٥١٥٨).

وقيل لحاتم الأصم: أيحتمل الرجل من كل أحد؟، فقال: نعم، إلا من نفسه.

وقيل: الخلق أن تكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً.

وقيل: الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق وقضاء الحق بلا ضجر ولا قلق.

وقيل مكتوب في الإنجيل: عبدي اذكرني حين تغضب، أذكرك حين أغضب.

وقال لقمان لابنه: لا تُعرف ثلاثة إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والأخ عند الحاجة إليه(١).

إن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما يظن بنفسه أنه هذّب نفسه وحسُن خلقه واستغنى عن المجاهدة، فلا بد من إيضاح علامة حُسن الخلق. فإن حُسن الخلق هو الإيمان، وسوء الخلق هو النفاق. وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين في كتابه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. إلى قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢]. وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة. فمن أشكل عليه حاله، فليعرض نفسه على الآيات، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق، وفقد جميعها علامة سوء الخلق.

وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق فقال ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً»**(٢). ومن حسن الخلق: احتمال الأذى وأن يكون كثير الحياء، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام كثير العمل،

(١) الرسالة القشيرية (٢٤١ ـ ٢٤٥).

(٢) أخرجه أبو داوود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة.

قليل الزلل، قليل الفضول، براً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً رضياً حليماً، رفيقاً عفيفاً، شفيقاً لا لعاناً ولا سباباً، ولا نماماً ولا مغتاباً، ولا عجولاً ولا حقوداً، ولا بخيلاً ولا حسوداً، بشاشاً هشاشاً، يحب في الله ويبغض في الله، ويرضى في الله ويغضب في الله.

وقال يحيى بن معاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وقال الحسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى(١).

قال رسول الله ﷺ: **«اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة: إذا حدَّث أحدكم فلا يكذب، وإذا أؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، كفوا أيديكم، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم»**(٢).

إذا صفا سرك واتحد سمعت دعاء ربك من غير واسطة إذا اتحد خوفك ورجاؤك جاء خطاب ربك ومولاك(٣).

❀ ❀ ❀

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣/٧٧) برقم (٢٥٣٩).
(٣) الفتح الرباني (٣٣٤).

الموقف الثلاثون:
الشكر

قال الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧].

وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ولما عرف إبليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال لي رسول الله ﷺ: إني أحبك فقل: **«اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**.

والشكر يكون بالقلب، واللسان والجوارح.

أما بالقلب: فهو أن يقصد الخير، ويضمره للخلق كافة.

وأما باللسان: فهو إظهار الشكر لله بالتحميد.

وأما بالجوارح: فهو استعمال نعم الله في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته.

وقال أبو عبدالرحمن الحبلي: «إن الرجل إذا سلّم على الرجل، وسأله كيف أصبحت؟».

فقال الآخر: «أحمد الله إليك».

قال: «يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه: كيف تكتبها؟».

قال: «أكتبه من الحامدين».

فكان أبو عبدالله إذا سئل كيف أصبحت؟ يقول: «أحمد الله إليك، وإلى جميع خلقه»(١).

وقد أمر الله به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله. ووصف به خواص خلقه. وجعله غاية خلقه وأمره. ووعد أهله بأحسن جزائه. وجعله سبباً للمزيد من فضله. وحارساً وحافظاً لنعمته. وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته. واشتق لهم اسماً من أسمائه. فإنه سبحانه هو «الشكور» وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً. وهو غاية الرب من عبده. وأهله هم القليل من عباده. قال الله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

وسمى نفسه «شاكراً» «وشكوراً» وسمى الشاكرين بهذين الاسمين. فأعطاهم من وصفه. وسماهم باسمه. وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قام حتى تورمت قدماه. فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**».

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (٢٩٣ ـ ٢٩٥).

وقال لمعاذ: «**والله يا معاذ، إني لأحبك. فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[1].

وفي المسند والترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: كان يدعو بهؤلاء الكلمات: «**اللهم أعني ولا تعن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، وامكر لي ولا تمكر بي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى عليّ، رب اجعلني شكّاراً لك، ذكّاراً لك، رهّاباً لك، مطاوعاً لك، مخبتاً إليك، أواها منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة صدري**».

وكذلك حقيقته في العبودية، وهو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده: ثناء واعترافاً، وعلى قلبه: شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه: انقياداً وطاعة، و«الشكر» مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فقيل: حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه.

وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر.

وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة.

وشكر العامة: على المطعم والمشرب والملبس، وقوت الأبدان.

وشكر الخاصة: على التوحيد والإيمان وقوت القلوب.

وقال الجنيد: وقد سأله سري عن الشكر، وهو صبي؟ ـ الشكر: أن

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى برقم (٩٩٣٧): ٦/٣٢.

لا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ قال: من مجالستك.

وقيل: من قصرت يداه عن المكافآت فليطل لسانه بالشكر.

والشكر معه المزيد أبداً. لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٩] فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر.

وفي أثر إلٰهي: يقول الله عزَّ وجلَّ «أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من المعايب»(١).

فمعرفة النعمة تحصيلها ذهناً، كما حصلت له خارجاً، إذ كثير من الناس تحسن إليه وهو لا يدري. فلا يصح من هذا الشكر.

وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها. وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه.

وأما الثناء على المنعم، المتعلق بالنعمة فنوعان: عام، وخاص. فالعام: وصفه بالجود والكرم، والبر والإحسان، وسعة العطاء، ونحو ذلك.

والخاص: التحدث بنعمه، والإخبار بوصولها إليه من جهته. كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً **«من صُنِع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن، فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يُعْطَ كان كلابس ثوبي زور»**(٢).

---

(١) لم أقف على نصه ومعناه صحيح.

(٢) رواه الترمذي والنسائي بلفظ: **«من صُنِع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء»**: (الأحاديث المختارة للمقدسي ٤/١١).

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها والكاتم لها. والمظهر أنه من أهلها، وليس من أهلها. فهو متحل بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر. وتركه كفر. والجماعة رحمة. والفرقة عذاب»[1].

والشكر ينقسم إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن وهو اتصاف بالوفاق والخدمة، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة.

وقال أبو بكر الوراق: شكر النعمة مشاهدة المنة وحفظ الحرمة.

وقال حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلياً.

ويقال: الشكر على الشكر أتم من الشكر، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيقه، ويكون ذلك التوفيق من أجل النعم عليك، فتشكره على الشكر، ثم تشكره على شكر الشكر إلى ما لا يتناهى.

وقيل: الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة.

وقيل: الشاكر الذي يشكر على الموجود، والشكور الذي يشكر على المفقود.

يقول الجنيد: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: أن لا تعصي الله بنعمه، فقال: يوشك أن يكون حظك من الله تعالى لسانك، قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري.

وقال الشبلي: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٣٨٣ ـ ٣٨٦).

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني.

وقيل: قال داود عليه السلام: إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك؟ فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني.

وقيل: دخل رجل على سهل بن عبدالله، فقال: إن اللص دخل داري وأخذ متاعي، فقال: اشكر الله تعالى، لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع؟.

وقيل: التزم الحسن بن علي (رضي الله عنه) الركن، وقال: إلهي أنعمت علي فلم تجدني شاكراً، وابتليتني فلم تجدني صابراً، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ولا أدمت الشدة بترك الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم.

وأنشد بعضهم في مجلس عمر بن عبدالعزيز:

ومن الرزية أن شكري صامت عما فعلت وأن برّك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرّها إني إذاً ليد الكريم لسارق[1]

(يا قوم) اشكروا الله عزّ وجلّ على نعمه وانظروها منه فإنه قال:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

(يا قوم) قد غذاكم بنعمه وأنتم في بطون أمهاتكم وبعد خروجكم منها ثم أعطاكم العوافي والقوى والبطش ورزقكم طاعته وجعلكم مسلمين متبعين لنبيه ﷺ إذا رأيتم النعم منه زالت محبة الخلق من قلوبكم. العارف لله عزّ وجلّ المحب له الناظر إليه بعيني قلبه الذي يرى الإحسان والإساءة منه لا يبقى له نظر إلى من يحسن إليه ويسيء من الخلق، إن ظهر منهم إحسان

(١) الرسالة القشيرية (١٧٤ ـ ١٧٨).

رآه بتسخير الحق عزَّ وجلَّ وإن ظهرت منهم إساءة رآها بتسليطه، ينتقل نظره من الخلق إلى الخالق ومع ذلك يعطي الشرع حقه ولا يسقط حكمه.

الشكر للحق عزَّ وجلَّ شيئان:

الأول: الاستعانة بالنعم على الطاعات والمواساة للفقراء منها.

والثاني: الاعتراف بها للمنعم بها والشكر لمنزلها وهو الحق عزَّ وجلَّ.

إذا تحقق شكرك لله عزَّ وجلَّ، ألهم قلوب الخلق وألسنتهم بالشكر لك والتودد إليك فحينئذ لا طريق للشيطان وأعوانه عليك. ترك الدعاء عزيمة والاشتغال به رخصة(١).

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني (١٠، ٩٦، ١٠٠، ٢٣٤).

الموقف الحادي والثلاثون:

العلم

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة**»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع**»[2].

وهذه المنزلة إن لم تصحب السالك من أول قدم يضعه في الطريق إلى آخر قدم ينتهي إليه فسلوكه على غير طريق. وهو مقطوع عليه طريق الوصول، مسدود عليه سبل الهدى والفلاح، مغلقة عنه أبوابها.

وقال أبو عثمان النيسابوري رحمه الله: الصحبة مع الله: بحسن الأدب، ودوام الهيبة والمراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ: باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم، ومع أولياء الله: بالاحترام والخدمة، ومع الأهل: بحسن الخلق، ومع الإخوان: بدوام البشر، ما لم يكن إثماً، ومع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة.

---

(١) سنن الترمذي عن أبي هريرة رقم: ٢٦٤٦: ٢٨/٥.

(٢) أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم في المستدرك برقم ٣٤١.

زاد غيره: ومع الحافظين: بإكرامهما واحترامهما، وإملائهما ما يحمدانك عليه. ومع النفس: بالمخالفة. ومع الشيطان: بالعداوة.

وقال عمرو بن عثمان المكي: العلم قائد. والخوف سائق. والنفس حَرون بين ذلك، جموح خداعة رواغة. فاحذرها وراعها بسياسة العلم. وسقها بتهديد الخوف: يتم لك ما تريد.

ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» (أي على حديث) فقد أحالك: إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي. أو رأي نفسي. فليس بعد القرآن و«أخبرنا» إلا الشبهات، ومن فارق الدليل، ضل عن سواء السبيل. ولا دليل إلى الله والجنة، سوى الكتاب والسنة.

دائرة العلم تسع الدنيا والآخرة. ودائرة الحال تضيق عن غير صاحبه. وربما ضاقت عنه. والعلم تركة الأنبياء وتراثهم. وأهله عصبتهم وورّاثهم، وهو حياة القلوب. ونور البصائر. وشفاء الصدور. ورياض العقول. ولذة الأرواح. وأنس المستوحشين. ودليل المتحيرين. وهو الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والأحوال.

وهو إمام، والعمل مأموم. وهو قائد، والعمل تابع. وهو الصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة، والأنيس في الوحشة. والكاشف عن الشبهة.

مذاكرته تسبيح. والبحث عنه جهاد. وطلبه قربة. وبذله صدقة. ومدارسته تعدل بالصيام والقيام. والحاجة إليه أعظم منها إلى الشراب والطعام.

قال الإمام أحمد رضي الله عنه: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين. وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وروينا عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

ونص على ذلك أبو حنيفة رضي الله عنه.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه. فوضعت ألواحي وقمت أصلي. فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

ولقد رحل كليم الرحمن موسى بن عمران ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طلب العلم هو وفتاه، حتى مسهما النصب في سفرهما في طلب العلم. حتى ظفر بثلاث مسائل. وهو من أكرم الخلق على الله وأعلمهم به.

وأمر الله رسوله أن يسأله المزيد منه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والعلم نوعان:

فمنه: علم جَلي، يدرك بالعيان، أو باستفاضة صحيحة، أو صحة تجربة قديمة.

أي أن هذا العلم الجلي ثلاثة أنواع:

أحدهما: ما وقع عن عيان. وهو البصر.

الثاني: ما استند إلى السمع. وهو علم الاستفاضة.

والثالث: ما استند إلى العقل. وهو علم التجربة.

فهذه الطرق الثلاثة وهي السمع والبصر والعقل ـ هي أهم طرق العلم وأبوابه، ولا تنحصر طرق العلم فيها، فإن سائر الحواس توجب العلم، إذ يلحق بها ما يُدرك بالباطن، وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بخبر المخبر الصادق، وإن كان واحداً، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن عن تجربة.

ثم من العلم: علم خفي، ينبت في القلوب الطاهرة. وهذا العلم خفي على أهل النوع الأول، وهو المسمى بالمعرفة. فهو ينبت في القلوب الطاهرة من كدر الدنيا والاشتغال بها، وعلائقها التي تعوق الأرواح عن ديار الأفراح. فإن هذه أكدار، وتنفسات في وجه مرآة القلب والروح. فإذا جُليت المرآة بإذهاب هذه الأكدار صفت. وظهرت فيها الحقائق والمعارف.

ولا تحمل هذه القلوب إلا الأبدان الزاكية التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال. فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهى عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا: زكت أرض القلب. فقبلت بذر العلوم والمعارف.

وإن شئت فقل إن هذا العلم الخفي هو الإلهام والفهم الخاص الذي هو ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وقد سئل: هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ ـ فقال: «لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه».

أو إن شئت فقل في هذا العلم إنه البصيرة، وهي التي تكون نسبة العلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصير، وهذه هي الخصّيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة. وهي أعلى درجات العلماء. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨] أي أنا وأتباعي على بصيرة.

قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقال تعالى: ﴿شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣] وقال عن المسيح عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

و«الحكمة» في كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب. فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما «هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه. وأمثاله».

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما «الحكمة» المقرونة بالكتاب: فهي السنة. كذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة.

وأحسن ما قيل في الحكمة: قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

و«الحكمة» حكمتان: علمية وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقاً وأمراً. قدراً وشرعاً، والعملية هي وضع الشيء في موضعه.

وأساس الحكمة: أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه.

وتعدي الحق: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد. وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل إدراكه وكماله فالحكمة إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

ولها ثلاثة أركان: العلم، والحلم، والأناة.

وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة.

فلا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول. والله أعلم[١].

فمن استمع إلى كتاب الله عزّ وجلّ، أو إلى حكمة، أو إلى علم، أو إلى موعظة [وهو] لا يحدث نفسه بشيء غير ما يستمع إليه، وقد أشهد قلبه ما يستمع إليه، يريد الله تعالى بذلك، كان له فيه ذكرى.

وروي عن وهب بن مُنَبِّه أنه قال: «من أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل».

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٤٨٣ ـ ٤٨٨).

وقال بعض الحكماء: «تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلم والوعي في أن يفهموا عنه فيعملوا له بما يفهمون عنه».

حدثنا الغلابي قال: سمعت سفيان بن عُيينة يقول: «أول العلم حسن الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»[1].

(ويل للجاهل مرة وللعالم سبع مرات).

ويل واحد للجاهل كيف لم يعلم، وويل لهذا العالم سبع مرات لأنه علم وما عمل، ارتفعت عنه بركة العلم، وبقيت عليه حجته، تعلم ثم اعمل ثم انفرد في خلوتك عن الخلق واشتغل بمحبة الحق عزّ وجلّ، فإذا صح لك الانفراد والمحبة قربك إليه وأدناك منه وأفناك فيه، ثم إن شاء الله يشهرك ويظهرك للخلق.

من ازداد علمه ينبغي أن يزداد خوفه من ربه عزّ وجلّ وطواعيته له، يا مدعي العلم أين مواصلتك من خوف الله عزّ وجلّ؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين مواصلتك الضياء بالظلام في طاعة الله عزّ وجلّ؟ أين حذرك وخوفك؟ أين اعترافك بذنوبك؟ أين تأديبك لنفسك ومجاهدتك في جانب الحق وعداوتها فيه؟.

قفوا بين يدي الله على أقدام الإفلاس من عقولكم وعلومكم لتنالوا علمه تحيروا ولا تتخيروا، تحيروا فيه حتى يأتيكم العلم به، التحير أولاً ثم العلم ثانياً ثم الوصول إلى المعلومات ثالثاً، القصد ثم الوصول إلى المقصود، الإرادة ثم حصول المراد، اسمعوا واعملوا فإني أفتل في حبالكم.

العلم حياة والجهل موت.

---

(١) الرعاية لحقوق الله: (٢٨ ـ ٣٠).

يا واثقاً بالدينار والدرهم اللذيّن في يدك عن قريب يذهبان من يدك عقوبة لك كما يفنيهما، قد كانا في يد غيرك فسلبا منه وسلما إليك لتستعين بهما على طاعة مولاك عزَّ وجلّ فجعلتهما صنمك، يا جاهل تعلم العلم لوجه الله عزَّ وجلّ واعمل به فإنه يؤدبك. الصديق إذا فرغ من تعلم العلم المشترك أدخل العلم الخاص (علم القلوب والأسرار) فإذا تمكن في هذا العلم صار سلطان دين الله عزَّ وجلّ يأمر وينهى ويعطي ويمنع بإذن مسلطنه، يصير سلطاناً في الخلق يأمر بأمر الله عزَّ وجلّ وينهى عن نهيه.

أحسن أدبك بين يدي معلمك وليكن صمتك أكثر من نطقك فإن ذلك سبب لتعلمك وقربك إلى قلبه حسن الأدب يقربك وسوء الأدب يبعدك، كيف يحسن أدبك وأنت لا تخالط الأدباء؟ كيف تتعلم وأنت لا ترضى بمعلمك ولا تحسن ظنك فيه؟.

الجاهل ينظر بعين رأسه والعاقل ينظر بعين عقله والعارف ينظر بعين قلبه لا يبقى عنده شيء سوى الحق عزَّ وجلّ فحينئذ يقول: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» فحينئذ يديم محبته معه دنيا وآخرة موافقاً له في جميع الأحوال.

عن النبي ﷺ أنه قال: **«من عبد الله بجهل كان ما يفسد أكثر مما يُصلح»**[(1)].

الجاهل لا تسوى عبادته شيئاً بل هو في فساد كلي وظلمة كلية والعلم أيضاً لا ينفع إلا بالعمل به والعمل لا ينفع إلا بالإخلاص فيه، كل عمل بلا إخلاص لا ينفع ولا يقبل من عامله. إذا علمت ولم تعمل كان العلم حجة عليك، «الجاهل يُعذب مرة والعالم سبع مرات».

الجاهل لِم لَم يتعلم؟ والعالم لِم لَم يعمل بعلمه؟ تعلم واعمل فإن ذلك مجمع لك الخير بأسره. إذا سمعت كلمة من العلم وعملت بها

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفاء برقم: ٢٥٣٠: ٣٤٢/٢ وقيل: هو من كلام الصحابي ضرار بن الأزور.

وعلمتها غيرك كان لك ثوابان ثواب العلم وثواب التعلم. الدنيا ظلمة والعلم نور فيها، فمن لا علم له فهو يتخبط في هذه الظلمة ويفسد أكثر مما يصلح.

تتعلم العلم فحسب أنت مجتر على الحق عزَّ وجلّ بأفعالك قد ألقيت جلباب الحياء من عينيك وقد جعلته أهون الناظرين إليك، أنت آخذ بهواك ومانع بهواك ومتحرك بهواك فلا جرم يهلكك هواك، استح من الله عزَّ وجلّ في جميع أحوالك واعمل بحكمه.

(يا غلام) لو كان عندك ثمرة العلم وبركته لما سعيت إلى أبواب السلاطين في حظوظ نفسك وشهواتها، العالم لا رجلين له يسعى بهما إلى أبواب الخلق، والزاهد لا يدين له يأخذ بهما أموال الناس، والمحب لله عزَّ وجلّ لا عينين له ينظر بهما إلى غيره، لا ينظر إلى غير محبوبه، لا تكبر في عيني رأسه الدنيا ولا تكبر في عيني قلبه الأخرى ولا يكبر في عيني سره غير المولى.

وإذا تعلمت لله عزَّ وجلّ عملت له إذا تعلمت للدنيا عملت للدنيا وإذا تعلمت للآخرة عملت للآخرة. الفروع تبنى على الأصول «كما تدين تدان». كل إناء ينضح بما فيه. تضع في إنائك نفطاً وتريد أن ينضح منه ماء الورد، لا كرامة لك.

قال الحواريون لعيسى عليه السلام: علمنا العلم الأكبر، فقال: الخوف من الله عزَّ وجلّ، والرضا بقضاء الله، والحب لله.

إذا عمل القلب بالكتاب والسنة قرب، وإذا قرب علم وإذا علم أبصر ماله وعليه، ما للحق وما للباطل وما للشيطان وما للرحمن يرى قربه من ربه عزَّ وجلّ وقرب الرب منه أبداً يكون في فرحة مع الرحمن عزَّ وجلّ[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) الفتح الرباني: (٦٥، ٦٦، ١٤٤، ١٥٧، ١٨٧، ٢١١، ٢٢٨، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٧٥، ٣٠٧).

الموقف الثاني والثلاثون:
الكرم والسخاء والإنفاق والإيثار

قال الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«السخي قريب من الله تعالى، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله تعالى، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار. والجاهل السخيّ أحب إلى الله تعالى من العابد البخيل»**(١).

وقال بشر بن الحارث: النظر إلى البخيل يقسي القلب.

وقال مطرف بن الشخير: إذا أراد أحدكم مني حاجة فليرفعها في رقعة، فإني أكره أن أرى في وجهه ذل الحاجة(٢).

المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام، وهو أصل من أصول النجاة.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم: ١٩٦٢) عن أبي هريرة، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن عائشة.

(٢) الرسالة القشيرية: (٢٤٧ ـ ٢٥١).

وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: **«قال جبريل عليه السلام: قال الله تعالى: الإسلام دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحُسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه»**(١).

وقال: **«إن الله كريم يحب الكرم ويحب معالي الأمور»**(٢).

وقال ابن السماك: عجبت ممن يشتري المماليك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بمعروفه؟.

وجاء أعرابي إلى أبي طلحة، فسأله، وتعرّف إليه برحم، فقال: «إن هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك»، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم.

وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً، وهي ترقع درعها. وروي أنها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس، فلما أمست قالت: «يا جارية عليّ فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم درّة: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه؟ فقالت: لو ذكرتني لفعلت.

وأتى رجل صديقاً له فدق عليه الباب فقال: ما جاء بك؟ قال: عليّ أربعمائة درهم دين. فأعطاه ما طلب وعاد يبكي، فقالت امرأته: «لم أعطيته إذ شقّ عليك؟» فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي.

وبكى عليّ كرم الله وجهه يوماً فقيل: ما يبكيك؟ فقال: «لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني».

ومرض قيس بن سعد بن عبادة، فاستبطأ إخوانه، فقيل له: إنهم يستحون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان عليه لقيس حق، فهو منه في حلٍ. قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده.

---

(١) أخرجه الدارقطني من حديث جابر.

(٢) أخرجه البيهقي من حديث سهل بن سعد وإسناده صحيح.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله، فأمر له بمائة ألف درهم، فبكى، فقال سعيد: ما يبكيك؟ قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، [الحشر: ٩] ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٧].

وقال رسول الله ﷺ: **«إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**(١)، **«لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيىء الملكة»**(٢)، وفي رواية **«ولا جبار»**، **«إن الله يبغض ثلاثة الشيخ الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال»**(٣)، **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**(٤). **«شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»**(٥).

وقالت أم البنين أخت عمر بن عبدالعزيز: «أف للبخيل، لو كان قميصاً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته».

وقال طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه: «إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتبصر».

وقال سلمان الفارسي: «إذا مات السخي، قالت الأرض والحفظة:

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جابر.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي وحسّنه من حديث أبي بكر.
(٣) أخرجه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر.
(٤) رواه مسلم من حديث جابر.
(٥) أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد.

رب تجاوز عن عبدك في الدنيا بسخائه، وإذا مات البخيل قالت: اللهم احجب هذا العبد عن الجنة، كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا».

السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات، فأرفع درجة السخاء: الإيثار؛ وهو أن تجود بالمال مع الحاجة إليه.

وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعاً حتى قبض»[١].

فالسخاء خلق من أخلاق الله تعالى، والإيثار أعلى درجات السخاء، كان ذلك من أدب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

واستشهد باليرموك عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وجماعة من بني المغيرة، فأتوا بماء وهم صرعى، فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه.

أُتي عكرمة بالماء، فنظر إلى سهيل بن عمرو ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، ونظر سهيل إلى الحارث ينظر إليه، فقال: ابدأ بهذا، وكل منهم يؤثر الآخر على نفسه بالشربة، فماتوا كلهم قبل أن يشربوا، فمر بهم خالد بن الوليد فقال: «بنفسي أنتم»[٢].

والإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح: حريص على ما ليس بيده. فإذا حصل بيده شيء شَحَّ عليه. وبخل بإخراجه. فالبخل ثمرة الشح. والشح يأمر بالبخل، كما قال

---

(١) رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (١٨٧ ـ ١٩٣).

النبي ﷺ: **«إياكم والشح. فإن الشح أهلك من كان قبلكم. أمرهم بالبخل فبخلوا. وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»**[1].

فالبخيل: من أجاب داعي الشح. والمؤثر: من أجاب داعي الجود. كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء. وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبدالله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

و«الجود» عشر مراتب:

أحدها: الجود بالنفس. وهو أعلى مرتبة، كما قال الشاعر:

يجود بالنفس إذ ضَنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

الثانية: الجود بالرياسة. وهو ثاني مراتب الجود. فيحمل الجواد جودُه على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس.

الثالثة: الجود براحته ورفاهيته، وإجمام نفسه. فيجود بها تعباً وكَدّاً في مصلحة غيره. ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذته لمسامِرِه، كما قيل:

مُتَيَّمٌ بالندى، لو قال سائله: ... هب لي جميع كَرَى عينيك، لم يَنَمِ

الرابعة: الجود بالعلم وبذله. وهو من أعلى مراتب الجود. والجود به أفضل من الجود بالمال لأن العلم أشرف من المال.

الخامسة: الجود بالنفع بالجاه. كالشفاعة والمشي مع الرجل إلى ذي سلطان ونحوه.

السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه. كما قال ﷺ **«يُصبح**

---

(١) أخرجه البيهقي وأبو داود وأحمد والحاكم في المستدرك برقم (١٥١٦): ١/٥٧٦.

على كل سُلاَمى من أحدكم صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين: صدقة. ويعين الرجل في دابته، فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه: صدقة. والكلمة الطيبة: صدقة، وبكل خُطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة: صدقة. ويُميط الأذى عن الطريق: صدقة» متفق عليه.

السابعة: الجود بالعرض، كجود أبي ضمضم من الصحابة رضي الله عنهم. كان إذا أصبح قال: اللهم إنه لا مال لي، أتصدق به على الناس، وقد تصدقت عليهم بعرضي، فمن شتمني، أو قذفني: فهو في حل. فقال النبي ﷺ: **«من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم؟»**[1].

الثامنة: الجود بالصبر، والاحتمال، والإغضاء، وهذه مرتبة شريفة من مراتبه. وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعز له وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها. ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

التاسعة: الجود بالخُلق والبشر والبسطة. وهو فوق الجود بالصبر، والاحتمال والعفو. وهو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم. وهو أثقل ما يوضع في الميزان. قال النبي ﷺ **«لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك ووجهك منبسط إليه»**[2].

العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس. فلا يتلفت إليه. ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله، ولا لسانه. وهذا الذي قال عبدالله بن المبارك «إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل».

وبداية الارتقاء في مدارج الإيثار: أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يَخرم عليك ديناً. ولا يقطع عليك طريقاً. ولا يفسد عليك وقتاً. وذلك بأن تقدمهم على نفسك في مصالحهم. مثل أن تطعمهم وتجوع. وتكسوهم وتَعْرَى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين.

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس عن أنس برقم (١٥٩٤) ٣٩٥/١ بلفظ: أيعجز أحدكم.

(٢) أخرجه ابن حبان والبيهقي، وأخرجه مسلم بلفظ (بوجه طلق): ٢٠٦٦/٤ برقم: (٢٦٢٦).

وأما أن لا يقطع عليك طريقاً: فذلك طريق الطلب والمسير إلى الله تعالى، مثل أن تؤثر جليسك على ذكرك، وتوجهك وجمعيتك على الله.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك، على الفكر النافع واشتغال القلب بالله، ما لم يكن نصر مظلوم وإغاثة لهفان أو شفاعة حسنة.

فمن آثر رضى الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وجُهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله.

وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا محبة للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين. وقوة المحبة[1].

وعنه ﷺ: **«أطعموا طعامكم الأتقياء، وأعطوا خرقكم المؤمنين»**[2].

إذا أطعمت طعامك للمتقي وساعدته في أمر دنيا كنت شريكه فيما يعمل ولا ينقص من أجره شيء لأنك عاونته في قصده ورفعت عنه أثقاله وأسرعت خطاه إلى ربه عزَّ وجلّ.

حكي أن بني إسرائيل أصابتهم شدة فاجتمعوا إلى نبي من أنبيائهم فقالوا له: خبرنا بما يرضي الحق عزَّ وجلّ حتى نتبعه فيكون سبباً لدفع هذه الشدة عنا، فسأل الحق عزَّ وجلّ عن ذلك؟ فأوحى الله إليه قل لهم إن أردتم رضاي فأرضوا المساكين، فإن أرضيتموهم رضيت، وإن أسخطموهم سخطت.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٤٠٥ ـ ٤١١).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا والديلمي عن أبي سعيد الخدري بلفظ: **«أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم من المؤمنين»**.

حكي عن عبدالله بن المبارك رحمة الله تعالى عليه أنه جاء إليه في بعض الأيام سائل يسأله شيئاً من الطعام فلم يحضر عنده شيء سوى عشر بيضات، فأمر جاريته بأن تعطيه إياها فأعطته تسعة وخبأت واحدة، فلما كان وقت غروب الشمس جاء رجل ودق الباب وقال خذوا مني هذه السلة فخرج عليه عبدالله رضي الله تعالى عنه وأخذها منه فرأى فيها بيضاً فعده فإذا هو تسعون بيضة، فقال لجاريته: أين البيضة الأخرى؟ كم أعطيت السائل؟ فقالت: أعطيته تسعة وتركت واحدة نفطر عليها، فقال لها: غرمتينا عشرة، هكذا كانوا في معاملتهم لربهم عزَّ وجلّ، كانوا يؤمنون ويصدقون بما ورد في الكتاب والسنة.

واس جيرانك. أطعم الفقراء، فإن دار الصديق ضيق وداخلها واسع. أين من غلق باب الخلق ووقف على باب الحق، وأنزل حوائجه بربه؟.

اقطع الأسباب واخلع الأرباب ثم انظر ما ترى، قف على بابه وتوسد الصبر على الآلام. قدره وقضاؤه يقطع فلا تتألم، حينئذ ترى عجباً ترى التكوين كيف يجعل حالك والرحمة تربيك.

لأن الكريم لا يأكل وحده، كل من اطلع على كرم الله عزَّ وجلّ لا تجد عنده بخلاً، كل من عرف الله عزَّ وجلّ هان عنده ما سواه، البخل من النفس ونفس العارف ميتة بالإضافة إلى نفوس الخلق.

واسوا الفقراء بشيء من أموالكم، وافقوا الحق عزَّ وجلّ في حبه للعطاء. واشكروه كيف أهّلكم وأقدركم على العطاء[1].

---

(١) الفتح الرباني: (١٥، ٧٠، ١٩٩، ١٥٩، ١٥٦).

الموقف الثالث والثلاثون:
المجاهدة

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وعن أبي سعيد الخدري قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد، فقال: **«كلمة عدل عند سلطان جائر»**(١) ودمعت عينا أبي سعيد.

وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: من زَيَّنَ ظاهره بالمجاهدة حَسَّن الله سرائره بالمشاهدة، واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمعة تنير له الطريق.

سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجتاز ست عقبات:

أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة.

والثاني: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل.

والثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.

والرابع: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

والخامس: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (رقم ١٢٧٥).

والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استحلاء المدح، فإن من تحسّى منه جرعة حمل السماوات والأرضين على شفر من أشفاره، وأمارة ذلك أنه إذا انقطع عنه ذلك الشرب آل حاله إلى الكسل والفشل.

وسمعت ذا النون المصري يقول: ما أعز الله عبداً بعز له من أن يدله على ذل نفسه، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه.

وقال محمد بن الفضيل: الراحة الخلاص من أماني النفس.

وسمعت أبا علي الروذباري يقول: دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة: سقم الطبيعة، وملازمة العادة، وفساد الصحبة. فسألته: ما سقم الطبيعة؟ فقال: أكل الحرام. فقلت: ما ملازمة العادة؟ فقال: النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة. قلت: فما فساد الصحبة؟ قال: كلما هاجت الشهوة في النفس تبعتها النفس.

وقال ذو النون المصري: إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء: الأول: ضعف النية بعمل الآخرة. والثاني: صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم. والثالث: غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل. والرابع: آثروا رضا المخلوق على رضا الخالق. والخامس: اتبعوا أهواءهم وتركوا سنّة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم. والسادس: جعلوا زلات اللسان حجة لأنفسهم، ودفنوا كثيراً من مناقبهم[1].

أما الشروط التي لابد من تقديمها في الإرادة فهي رفع السد والحجاب الذي بينه وبين الحق، فإن حرمان الحق عن الحق سببه تراكم الحجب ووقوع السدّ على الطريق قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩] والسدُّ بين المريد وبين الحق أربعة: المال والجاه والتقليد والمعصية. فإذا قدم هذه الشروط الأربعة

(١) الرسالة القشيرية: (٩٧ ـ ١٠٠).

وتجرّد من المال والجاه كان كمن تطهر وتوضأ ورفع الحدث وصار صالحاً للصلاة فيحتاج إلى إمام يقتدي به، فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ يقتدي به فيدله على الطريقة لئلا تختطفه الشياطين في السبل. وأما الحصن، فالخلوة وعليه من الوظائف مخالفة الهوى، وكثرة الاقتصاد في الأوراد.

ومنتهى الرياضة أن يجد قلبه مع الله أبداً، ولا يمكن ذلك إلا بأن يخلو عن غيره، ولا يخلو إلا بطول المجاهدة، فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج.

أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، بها أُخرج آدم عليه السلام من الجنة، ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج ثم تتبعها شهوة الطعام والنكاح وشدة الرغبة في المال، ويتبع ذلك آفات كثيرة، كلها من بطر الشبع.

يقول رسول الله ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يُقمن صُلبَه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[1]، «**المؤمن يأكل من معىً واحد، والكافر يأكل من سبعة أمعاء**»[2].

فقد قال عمر رضي الله عنه: «إياكم والبطنة فإنها ثقل في الحياة نتن في الممات». وقال لقمان لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة». وقال أبو سليمان: «لأن أترك لقمة من عشائي أحب إليّ من قيام ليلة إلى الصبح»، وقال أبو بكر بن عبدالله المزني: «ثلاثة يحبهم الله تعالى؛ رجل قليل النوم، قليل الأكل. قليل الراحة»، وقال يحيى بن معاذ: «جوع الراغبين منهبة وجوع التائبين تجربة وجوع المجتهدين كرامة وجوع الصابرين سياسة وجوع الزاهدين حكمة». وقال عقبة الراسي: «دخلت على الحسن وهو يتغدى، فقال: «هلم: فقلت أكلت حتى لا أستطيع، فقال: سبحان الله! أو يأكل المسلم حتى لا يستطيع أن يأكل؟»».

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث المقدام.

(٢) متفق عليه من حديث عمر وأبي هريرة.

وقد بالغ جماعة من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع ومقام العدل في الأكل رفع اليد مع بقاء شيء من الشهوة. والأكل في المقام العدل يصح البدن وينفي المرض، وذلك أن لا يتناول الطعام حتى يشتهيه، ثم يرفع وهو يشتهيه.

فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع، فحينئذ يصح البدن، وتجتمع الهمة، ويصفو الفكر، ومتى زاد في الأكل أورثه كثرة النوم، وبلادة الذهن، وذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي مكان الفكر وموضع الذكر، ويجلب أمراضاً أُخر.

وأما شهوة الفرج فلا تخفى غائلتها، والجوع يكفي شرها، وإذا شبع الرجل لم يملك فرجه، وإن منعته التقوى فلا يملك عينه، فالعين تزني كما أن الفرج يزني، فإن ملك عينه تغض الطرف فلا يملك فكره، فيخطر له من الأفكار الرديئة ما يتشوّش به مناجاته، وربما عرض له ذلك أثناء الصلاة.

وقد ينتهي الإفراط في هذه الشهوة، حتى تصرف همة الرجل إلى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الآخرة، وربما آل إلى الفواحش، وقد تنتهي بصاحبها إلى العشق، وهو أقبح الشهوات، وأجدرها أن يستحيي منه، وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال، والجاه فتستولي هذه الأشياء على القلوب فلا يصبرون عنها[١].

وقال يحيى بن معاذ: لو أن الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره.

قال سهل بن عبدالله: لمّا خلق الله تعالى الدنيا، جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة.

ويقول أبو سليمان الداراني: مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (١٤٥ ـ ١٤٩).

وقال يحيى بن معاذ: الجوع نور، والشبع نار، والشهوة مثل الحطب الذي يتولد منه الاحتراق، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه.

يقول مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا، فذاك الذي يفرق الشيطان من ظله[1].

وروى مسلم عن المصطفى ﷺ أنه قال: **«حفت النار بالشهوات»** فأخبر: أن العمل الذي يدخل به عامله النار: شهي في النفوس.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: **«إن الله تبارك وتعالى خلق النار، فقال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها. فحفها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة، فقال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فحفها بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت ألأ يدخلها أحد»**[2].

فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربُه، فقد احتجب عن النار واستوجب الحلول في جوار الله.

والأعمال التي أمر الله بها وندب إليها أكثرها مُملّ للقلب، متعب للجوارح، أو مُشغل عن أضداده من اللذات. وذلك كريه في الطبع ثقيل على النفس.

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٦][3].

أكل الشهوات يقسي القلب ويقيد السر ويزيل الفطنة ويكثر النوم والغفلة ويقوي الحرص ويطول الأمل.

---

(١) الرسالة القشيرية: (١٤١ ـ ١٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (كتاب الجنة ـ باب ٢١).

(٣) الرعاية لحقوق الله: (٦٠ ـ ٦١).

والخواص من خلقه يحول بينهم وبين شهواتهم لا يبقي فيهم شهوة ولا إرادة ذرة حتى تصفوا بواطنهم له فإذا أراد أن يوفيهم أقسامهم أوجد فيهم حياة الوجوه لاستيفاء الأقسام. عيسى عليه السلام ما نكح، وفي آخر الزمان ينزله الله تعالى إلى الأرض فيزوجه بجارية من قريش ويولد له منها ولد العارف يتناول بعد إحكام العلم والزهد فيتناول أقسامه معكم يتناول الشهوات بعد أن زهد فيها عند الشك فإذا علم طاب له الماء البارد والطعام السني عند الزهاد كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير، كم من زاهد محجوب بزهده عن الحق، وكم من عارف محجوب بنظره إلى معرفته وهذا نادر والغالب أن يكون سالماً؛ وفي الجملة فقربك إلى أبناء الدنيا يبعدك عن الله عزَّ وجلَّ[1].

❀❀❀

---

(١) الفتح الرباني: (٣٠٥، ٣٣٠).

الموقف الرابع والثلاثون:
الاستقامة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

سُئل صديق الأمة وأعظمها استقامة ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ عن الاستقامة؟ فقال: «أن لا تشرك بالله شيئاً» يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذي يدين به الصديق. استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم. فاستقام له كل عمل وكل حال.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «الاستقامة: أن تستقيم على الأمر والنهي. ولا تروغ روغان الثعلب».

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه «استقاموا: أخلصوا العمل لله».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما «استقاموا أدوا الفرائض».

وقال الحسن «استقاموا على أمر الله. فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته».

وقال مجاهد «استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله».

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: **«قل: آمنت بالله ثم استقم»**.

والمطلوب من العبد الاستقامة. وهي السداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«سددوا وقاربوا. واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله»**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**.

والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله. وبالله، وعلى أمر الله.

وهي عند الهروي: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد. لا عادياً رَسْم العلم، ولا متجاوزاً حد الإخلاص، ولا مخالفاً نهج السنة.

هذه درجة تتضمن ستة أمور: (١) عملاً واجتهاداً فيه؛ وهو بذل المجهود. (٢) واقتصاد؛ وهو السلوك بين طرفي الإفراط، وهو الجور على النفوس. (٣) والتفريط بالإضاعة. (٤) ووقوفاً مع ما يرسمه العلم. (٥) وإفراد المعبود بالإرادة؛ وهو الإخلاص. (٦) ووقوع الأعمال على الأمر؛ وهو متابعة السنة.

وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط. ولا يبالي بأيهما ظفر: زيادة أو نقصان.

وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: **«يا عبدالله بن عمرو، إن لكل عامل شِرَّة. ولكل شِرَّة فترة. فمن كانت فترته إلى سنة أفلح، ومن كانت فترته إلى بدعة خاب وخسر»**[1] قال له ذلك حين أمره بالاقتصاد في العمل.

---

(١) مسند الشهاب برقم: (١٠٢٦): ١٢٦/٢.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع. كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم[(١)].

عن ثوبان مولى النبي ﷺ؛ عن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير دينكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»[(٢)].

قال الشيخ القشيري: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]، ومن لم يكن مستقيماً في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الاستقامة لها ثلاثة مدارج: أولها التقويم ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار.

وقيل: إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر؛ لأنها الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله تعالى على حقيقة الصدق. لذلك قال النبي ﷺ: «**استقيموا ولن تحصوا**»[(٣)].

ويقال: الاستقامة في الأقوال بترك الغيبة، وفي الأفعال بنفي البدعة، وفي الأعمال بنفي الفترة، وفي الأحوال بنفي الحجبة[(٤)].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٣٣١ - ٣٣٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٧).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ثوبان برقم (٤٤٧): ١/٢٢٠.

(٤) الرسالة القشيرية: (٢٠٥ - ٢٠٦).

الموقف الخامس والثلاثون: العفو وكظم الغيظ

قال الله تعالى مادحاً المؤمنين: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وعن سهل بن معاذ عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينتقم دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين أيتهن شاء**»(١).

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «**إذا وقف العباد للحساب ينادي مناد: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة، فيقال: ومن ذا الذي أجره على الله؟ فيقول: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا فدخلوها بغير حساب**»(٢).

وعن أبي عبدالله الجدلي قال: سألت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ(٤): «ما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٣٨/٣).
(٢) العقيلي (الضعفاء الكبير ٤٤٧/٣).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٦/٦).
(٤) رواه مسلم في البر (رقم: ٦٩).

نقصت صدقة من مال قط، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ولا تواضع أحد لله إلا رفعه الله عزَّ وجلّ»[1].

وقال رسول الله ﷺ: **«ثلاث والذي نفسي بيده لو كنت حلافاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدقوا، ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»**[2].

وقال عقبة بن عامر: لقيت رسول الله ﷺ يوماً فابتدرته فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي فقال: **«يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك»**[3].

وقال يزيد بن ميسرة: «إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول: إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي».

وقال عمرو بن العاص لابنه عبدالله: «ما الرفق؟ قال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة، قال: فما الخرق؟ قال: معاداة إمامك ومناوأة من يقدر على ضررك.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»**[4].

وقال رسول الله ﷺ: **«إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»**[5].

قال عمر رضي الله عنه: «من اتقى الله لم يشفِ غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون»، وقال لقمان لابنه:

---

(١) مكارم الأخلاق ـ الطبراني: (٣٢٨ ـ ٣٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في مكارم الأخلاق.

(٤) صحيح مسلم عن عائشة برقم (٢٥٩٣): ٢٠٠٣/٤.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير عن عائشة برقم (٤٢٩): ٢٦٢/١.

«يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة ولا تشف غيظك بفضيحتك واعرف قدرك تنفعك معيشتك». وقال أيوب: «حلم ساعة يدفع شرًا كثيرًا». وجاء رجل إلى سلمان فقال: «يا عبدالله أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أقدر، قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك»[1].

❀❀❀

(١) بغية الطالبين: (١٥٩ ـ ١٦٤).

الموقف السادس والثلاثون:
فضل الحلم وذم الغضب

الحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غضبه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ.

وقال عمر رضي الله عنه: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم»، وقال علي رضي الله عنه: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى».

وقال الحسن: «اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم»، وقال أكثم بن صيفي: «دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر».

وقال معاوية رحمه الله لعمر بن الأهتم: «أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لصلاح دينه».

وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال: «يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها؟» فنكس الرجل رأسه واستحى.

وقال رجل لعمر بن عبدالعزيز: «أشهد أنك من الفاسقين، فقال:

لا تقبل شهادتك». ودخل عمر بن عبدالعزيز المسجد ليلة في الظلمة، فمر برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه وقال: «أمجنون أنت؟» فقال عمر: لا. فهمّ به الحرس، فقال عمر: «مه، إنما سألني أمجنون؟ فقلت: لا».

وجاء غلام لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له، فقال له: من كسر رجل هذه؟ قال: أنا فعلته عمداً لأغيظك، فتضربني فتأثم. فقال: «لأغيظن من حرّضك على غيظي». فأعتقه.

ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما، فسبّه، فثارت إليه العبيد، فقال: «مهلاً» ثم أقبل على الرجل فقال: «ما ستر عنك ما أمرنا أكثر، ألك حاجة نعينك عليها؟» فاستحى الرجل، فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: «أشهد أنك من أولاد الرسول».

وقال رجل لبعض الحكماء: «والله لأسبنّك سباً يدخل معك في قبرك»، فقال: «معك يدخل لا معي».

الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد. استكنان الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد، كاستخراج الحجر من الحديد، وإن الإنسان ينزع فيه عند الغضب عرق إلى الشيطان اللعين، حيث قال: «خلقتني من نار وخلقته من طين».

ومن نتائج الغضب: الحقد والحسد، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي ﷺ للرجل الذي قال له: أوصني. قال: **«لا تغضب»**، فردد عليه مراراً قال: **«لا تغضب»**[1]، **«ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»**[2]. وقال أبو الدرداء: قلت: يا رسول الله، دلني على عمل يدخلني الجنة، قال: **«لا تغضب»**[3].

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير الأوسط بإسناد حسن.

قال الحسن: «يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب وثبة فتقع في النار»، وقيل: «اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»، وقال عبدالله بن مسعود: «انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع».

وقال بعضهم: «من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار». وقال وهب بن منبه: «للكفر أربعة أركان: الغضب والشهوة والخرق والطمع».

حقيقة الغضب: هي غليان دم القلب لطلب الانتقام، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب.

والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث: إفراط وتفريط واعتدال. فمتى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة؛ لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدّى إلى معادن الحس، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار، فاسود جوّه، وحميَ مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، ولا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه.

والأسباب المهيجة للغضب هي: الزهو والمزاح والعجب والهزل والهزء والمماراة والمضادة والغدر وشدّة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالتها بأضدادها.

أما إذا هاج الغضب فيعالج بأمور منها: أن يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال.

ومنها أن يخوف نفسه عقاب الله تعالى وأن يحذّر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وأن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، وأن يتفكر في السبب

الذي يدعوه إلى الانتقام، وأن يعلم أن غضبه إنما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى.

وأما العمل: أن يقول بلسانه أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وينبغي له السكون وتغيير الحال، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً اضطجع، وقد أمرنا بالوضوء أيضاً عند الغضب.

أما الحكمة في الوضوء عند الغضب، فقد بينها في الحديث الذي رواه أبو وائل قال: كنا عند عروة بن محمد، فكلمه رجل بكلام، فغضب غضباً شديداً، فقام وتوضأ، ثم جاء فقال: حدثني أبي عن جدّي عطية وكانت له صحبة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»**[(١)].

وأما الجلوس والاضطجاع، فيمكن أن يكون إنما أُمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق، فيذكر أصله فيذل[(٢)].

الغضب إذا كان لله عزّ وجلّ فهو محمود، وإذا كان لغيره فهو مذموم.

المؤمن يحتد لله عزّ وجلّ لا لنفسه يحتد نصرة لدينه لا نصرة لنفسه، يغضب إذا خُرق حد من حدود الله عزّ وجلّ كما يغضب النمر إذا أخذوا صيده[(٣)].

❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث عطية السعدي.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (١٥٤ ـ ١٦٣).

(٣) الفتح الرباني: (١٣٩).

الموقف السابع والثلاثون:
الطمأنينة والسكينة والإخبات

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

«الطمأنينة» سكون القلب إلى الشيء. وعدم اضطرابه وقلقه. ومنه الأثر المعروف «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة» أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع. ويجد عنده سكوناً إليه. والكذب يوجب له اضطراباً وارتياباً. ومنه قوله ﷺ: «**البر ما اطمأن إليه القلب**» أي سكن إليه وزال عنه اضطرابه وقلقه.

وفي «ذكر الله» هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه. فإنه يطمئن إليه قلبه ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله.

والثاني: أن ذكر الله هاهنا: القرآن. فهو ذكره الذي أنزله على رسوله.

فالطمأنينة موجبة السكينة، وأثر من آثارها، وكأنها نهاية السكينة، وهي سكون القلب مع قوة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمن غرور. فإن القلب قد يسكن إلى أمن الغرور. ولكن لا يطمئن به لمفارقة ذلك السكون له.

و«الطمأنينة» لا تفارقه، فإنها مأخوذة من الإقامة. يقال: اطمأن بالمكان والمنزل: إذا أقام به.

وأما «السكينة» فإنها ثبات القلب عند هجوم المخاوف عليه، وسكونه وزوال قلقه واضطرابه، كما يحصل لحزب الله عند مقابلة العدو وصولته. والله سبحانه أعلم.

ومنزلة السكينة من منازل المواهب. لا من منازل المكاسب. وقد ذكر الله سبحانه «السكينة» التي معناها الطمأنينة في خمسة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٧].

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

الثالث: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: ٤].

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨].

الخامس: قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. [الفتح: ٢٦].

وأصل «السكينة» هي الطمأنينة والوقار، والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده، عند اضطرابه من شدة المخاوف. فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه. ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب. كيوم الهجرة، ويوم حنين، ويوم الحديبية.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال «رأيت النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق، حتى وارى التراب جلدة بطنه. وهو يرتجز بكلمة عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا»

«السكينة» إذا نزلت على القلب اطمأن بها. وسكنت إليها الجوارح. وخشعت، واكتسب الوقار، وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه».

وكثيراً ما ينطق صاحب «السكينة» بكلام لم يكن عن فكرة منه، ولا رواية ولا هبة، ويستغربه هو من نفسه. كما يستغرب السامع له. وربما لا يعلم بعد انقضائه بما صدر منه.

وأكثر ما يكون هذا عند الحاجة. وصدق الرغبة من السائل والمجالس، وصدق الرغبة منه هو إلى الله، والإسراع بقلبه إلى بين يديه، وحضرته، مع تجرده من الأهواء، وتجريده النصيحة لله ولرسوله، ولعباده المؤمنين.

وقال الشيخ أبو إسماعيل الهروي رحمه الله:

«السكينة: هي التي نزلت على قلب النبي ﷺ، وقلوب المؤمنين. وهو شيء يجمع قوة وروحاً، يسكن إليه الخائف. ويتسلى به الحزين والضجر. ويسكن إليه العَصِيُّ والجريء والأبي».

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤] ثم كشف عن معناهم. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج: ٣٥] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

ﭐلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود: ٢٣].

وقد اختلفت أقوال المفسرين في معنى الإخبات. وهذه الأقوال تدور على معنيين: التواضع، والسكون إلى الله عزّ وجلّ، ولذلك عُدّي بإلى، تضميناً لمعنى الطمأنينة، والإنابة والسكون إلى الله.

وهو من أول مقامات الطمأنينة.

كالسكينة، واليقين، والثقة بالله ونحوها. فالإخبات: مقدمتها ومبدؤها. وبه يكون ورود المأمن من الرجوع والتردد.

وهو على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: أن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة. ويستهوي الطلب السلوة.

المريد السالك: تعرض له غفلة عن مراده، تضعف إرادته. وشهوة تعارض إرادته. فتصده عن مراده. ورجوع عن مراده، وسلوة عنه.

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة. فتستغرق عصمته شهوته.

و «العصمة» هي الحماية والحفظ. و«الشهوة» الميل إلى مطالب النفس. و«الاستغراق» للشيء الاحتواء عليه والإحاطة به.

فتغلب عصمته شهوته وتقهرها، وتستوفى جميع أجزائها. فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة: فذلك دليل على إخباته. ودخوله في مقام الطمأنينة، ونزوله أول منازلها، وخلاصه في هذا المنزل من تردد الخواطر بين الإقبال والإدبار، والرجوع والعزم، إلى الاستقامة والعزم الجازم، والجد في السير. وذلك علامة السكينة.

وتستدرك إرادته غفلته. و«الإرادة» عند القوم: هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله. و«المريد» هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه. وأخذ

في السفر إلى الله، والدار الآخرة. فإذا نزل في منزل «الإخبات» أحاطت إرادته بغفلته. فاستدركها، واستدرك بها فارطها.

وأما «استهواء طلبه لسلوته» فهو قهر محبته لسلوته، وغلبتها له. بحيث تهوي السلوة وتسقط، كالذي يهوي في بئر. وهذا علامة المحبة الصادقة: أن تقهر فيه وارد السلوة، وتدفنها في هُوَّة لا تحيا بعدها أبداً.

فالحاصل: أن عصمته وحمايته تقهر شهوته. وإرادته تقهر غفلته. ومحبته تقهر سلوته.

الدرجة الثانية: أن لا يوحش قلبه عارض، ولا يقطع عليه الطريق فتنة.

و«العارض» هو المخالف. كالشيء الذي يعترضك في طريقك، فيجيء في عرضها. ومن أقوى هذه العوارض: عارض وحشة التفرد. فلا يلتفت إليه، كما قال بعض الصادقين: انفرادك في طريق طلبك: دليل على صدق الطلب. وقال آخر: لا تستوحش في طريقك من قلة السالكين. ولا تغتر بكثرة الهالكين.

وأما «الفتنة» التي تقطع عليه الطريق: فهي الواردات التي ترد على القلوب، تمنعها من مطالعة الحق وقصده. فإذا تمكن من منزل «الإخبات» وصحة الإرادة والطلب: لم يطمع فيه عارض الفتنة.

وهذه العزائم لا تصح إلا لمن أشرقت على قلبه أنوار آثار الأسماء والصفات. وتجلت عليه معانيها.

الدرجة الثالثة: أن يستوي عنده المدح والذم، وتدوم لائمته لنفسه.

فاعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة «الإخبات» وتمكن فيها: ارتفعت همته، وعلت نفسه عن خطفات «المدح ـ الذم». فلا يفرح بمدح الناس، ولا يحزن لذمهم. هذا وصف من خرج عن حظ نفسه.

وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات. وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه.

فالنفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عزَّ وجلّ. وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل. فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه. ومنهم من هو سهل عليه. وأنه ليسير على من يسره الله عليه[1].

❀❀❀

(١) مدارج السالكين: (٤٩٧ ـ ٥٠٥، ٢٧٩ ـ ٢٨١).

الموقف الثامن والثلاثون:
الفراسة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] قال مجاهد رحمه الله: للمتفرسين: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمعتبرين. وقال مقاتل: للمتفكرين.

وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«اتقوا فراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله»**[١]. ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحجر: ٧٥] وفراسة المؤمنين صادقة دائماً.

وسببها: نور يقذفه الله في قلب عبده. يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب.

وحقيقتها: أنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده. يثب على القلب كوثب الأسد على الفريسة. لكن «الفريسة» فعيلة بمعنى مفعولة. وبناء «الفراسة» كبناء الولاية والإمارة والسياسة.

وهذه «الفراسة» على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيماناً فهو أَحَدُّ فراسة.

---

(١) الترمذي (رقم: ٣/٢٥) في التفسير.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرماني حاد الفراسة لا يخطئ ويقول: من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة، وتعوَّد أكل الحلال: لم تخطئ فراسته.

وقال أبو جعفر الحداد: الفراسة أول خاطر بلا معارض، فإن عارضه معارض آخر من جنسه فهو خاطر وحديث نفس.

وكان الصديق رضي الله عنه أعظم الأمة فراسة. وبعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ووقائع فراسته مشهورة. فإنه ما قال لشيء «أظنه كذا» إلا كان كما قال. ويكفي في فراسته موافقته ربه في المواضع المعروفة، مما كان في شأن أسرى بدر، ونحوها.

وفراسة المتفرس تتعلق بثلاثة أشياء: بعينه، وأذنه، وقلبه، فعينه للسيماء والعلامات. وأذنه: للكلام وتصريحه وتعريضه، ومنطوقه ومفهومه، وفحواه وإشارته، ولحنه وإيمائه ونحو ذلك. وقلبه للعبور والاستدلال من المنظور والمسموع إلى باطنه وخفيِّه. فيعبر إلى ما وراء ظاهره، كعبور النقاد من ظاهر النقش والسكة إلى باطن النقد والاطلاع عليه: هل هو صحيح، أو زغل؟ وكذلك عبور المتفرس من ظاهر الهيئة والدَّلِّ، إلى باطن الروح والقلب. فنسبة نقده للأرواح من الأشباح كنسبة نقد الصيرفي ينظر للجوهر من ظاهر السكة والنقد.

وللفراسة سببان. أحدهما: جودة ذهن المتفرس، وحدة قلبه، وحسن فطنته.

والثاني: ظهور العلامات والأدلة على المتفرَّس فيه. فإذا اجتمع السببان لم تكد تخطئ للعبد فراسة.

فالبصيرة تنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة. وهي نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب. وفي الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«اتقوا فِراسة المؤمن. فإنه ينظر بنور الله عزَّ وجلّ»** ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝٧٥﴾.

و«التوسُّم» تفعُّل من السيما؛ وهي العلامة، فسمي المتفرس متوسماً؛ لأنه يستدل بما يشهد على ما غاب. فيستدل بالعيان على الإيمان. ولهذا خص الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء؛ لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل.

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة. ففراسة الصادقين، العارفين بالله وأمره متصلة بالله، ذلك أن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته، ودعوة الخلق إليه على بصيرة. كانت فراستهم متعلقة بنور الوحي مع نور الإيمان. فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه، من الأعيان والأقوال والأعمال. وميزت بين الخبيث والطيب، والمحق والمبطل، والصادق والكاذب. وعرفت مقادير استعداد السالكين إلى الله. فحملت كل إنسان على قدر استعداده، علماً وإرادة وعملاً.

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعريفها، وتخليصها من بين سائر الطرق، وبين كشف عيوب النفس، وآفات الأعمال العائقة عن سلوك طريق المرسلين، فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة. وأنفعها للعبد في معاشه ومعاده[1].

وقال محمد الواسطي: إن الفراسة سواطع أنوار لمعت في القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب، من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه إياها، فيتكلم على ضمير الخلق.

يقول محمد الكتاني: الفراسة مكاشفة اليقين، ومعاينة الغيب، وهي من مقامات الإيمان.

وسئل بعضهم عن الفراسة فقال: أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة، لا نطق ظن وحسبان.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٤٩١ ـ ٤٩٣، ١٠٩ ـ ١١٠).

بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم، ويخرجون منها من حيث لا تحسون.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكنت رأيت في الطريق امرأة تأملت محاسنها، فقال عثمان رضي الله عنه: يدخل عليّ أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينيه، فقلت: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.

وقال أحمد الخراز: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت في نفسي: مثل هذا كَلٌّ على الناس، فنظر إليّ وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]. قال: فاستغفرت في سري فناداني وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] [الشورى: ٢٥].

❀❀❀

(١) الرسالة القشيرية: (٢٣١ ـ ٢٣٨).

الموقف التاسع والثلاثون:
الغيرة

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما أحد أغيَر من الله، ومن غَيرَته: حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أحد أحبُّ إليه المدح من الله. من أجل ذلك: أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»**[1].

وفي الصحيح أيضاً، من حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله: أن يأتي العبد ما حرم عليه»**[2].

وفي الصحيح أيضاً: أن النبي ﷺ قال: **«أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه. والله أغير مني»**[3].

ومما يدخل في الغيرة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥].

قال السري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ حجاب الغيرة. ولا أحد أغير من الله. إن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه،

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٤٩٩): ١١٣٦/٢.
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦١): ٢١١٤/٤.
(٣) مسند أبي عوانة (٤٧٢١): ٢١٥/٣.

ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته. فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون، غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً له.

و«الغيرة» نوعان: غيرة من الشيء. وغيرة على الشيء.

والغيرة من الشيء: هي كراهة مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك.

والغيرة على الشيء: هي شدة حرصك على المحبوب أن يفوز به غيرك دونك أو يشاركك في الفوز به.

وأول درجاتها: «غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه. ويستدرك فواته، ويتدارك قواه».

و«العابد» هو العامل ـ بمقتضى العلم النافع ـ للعمل الصالح، فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح. فهو يسترد ضياعه بأمثاله. ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفعل أمثالها، من جنسها وغير جنسها. فيقضي ما ينفع فيه القضاء ويعوِّض ما يقبل العوض ويجبر ما يمكن جبره.

والفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أن الأول: يمكن أن يُستَردَّ بعينه، كما إذا فاته.

الحج في عام تمكن منه. فأضاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل. وكذلك إذا أخر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدرك بنظيره. كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته، أو بتوبة وندم. وأما «تدارك قواه» فهو أن يتدارك قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدل بالضعف. فهو يغار عليها أن تذهب في غير طاعة الله.

ومنها: «الغيرة على وقت فات، فإن الوقت أبيُّ الجانب، بطيء الرجوع» فالوقت أعز شيء على العابد، يغار عليه أن ينقضي بدون ذلك.

فإذا فاته الوقت لا يمكنه استدراكه البتة؛ لأن الوقت الثاني قد استحق واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه. كما في المسند مرفوعاً «من أفطر يوماً في رمضان، متعمداً من غير عذر: لم يقضه عنه صيام الدهر، وإن صامه».

ويقال: إن أصعب الأحوال المنقطعة: انقطاع الأنفاس. فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صَعَّدوه إلى نحو محبوبهم، صاعداً إليه، متلبساً بمحبته والشوق إليه. فإذا أرادوا دفعه دفعوا معه نَفَساً آخر. فكل أنفاسهم بالله. وإلى الله، متلبسة بمحبته، والشوق إليه والأنس به. فلا يفوتهم نفس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك، لالتباس روحه وقلبه. فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته. ولا تستنكر هذه الحال. فإن المحبة إذا غلبت على القلب وملكَتْه: أوجبت له ذلك لا محالة[1].

روي عن سرّي السقطي أنه قرئ بين يديه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾﴾ [الإسراء: ٤٥] فقال السّري لأصحابه: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحد أغير من الله تعالى. ومعنى قوله: «هذا حجاب الغيرة» يعني: أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين.

يقول محمد بن حسان: بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج علينا شاب، قد أحرقته السموم والرياح، فلما نظر إليّ ولّى هارباً فتبعته، وقلت له: عظني بكلمة، فقال: احذر فإنه غيور، لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه.

قال النصر آباذي: الحق تعالى غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه، وقيل: أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه أن لفلان إليّ حاجة، ولي أيضاً إليه حاجة، فإن قضى حاجتي قضيت حاجته، فقال ذلك النبي

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٥٢٧ ـ ٥٢٩).

عليه السلام في مناجاته: إلهي، كيف يكون لك حاجة؟ فقال: إنه ساكن بقلبه غيري، فليفرغ قلبه عنه أقض حاجته[1].

❀ ❀ ❀

(١) الرسالة القشيرية: (٢٥٤ ـ ٢٥٧).

الموقف الأربعون:
حفظ اللسان

قال رسول الله ﷺ: **«من صمت نجا»**(١)، **«من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»**(٢). وعن عقبة بن عامر، قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: **«أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك»**(٣).

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: **«ثكلتك أمك يا ابن جبل. وهل يكبّ الناس في النار على وجوههم**، أو قال: **- على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟»**(٤).

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام، وكان يشير إلى لسانه ويقول: «هذا الذي أوردني الموارد». وقال عبدالله بن مسعود: «والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لساني». وقال طاووس: «لساني سبع إن أرسلته أكلني». وقال الحسن: «ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه». وقال محمد بن

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمر.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن.

(٤) أخرجه الترمذي وصححه وابن ماجة والحاكم.

واسع لمالك بن دينار: «يا أبا يحيى، حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم».

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨].

وهذا يدلّك على فضل لزوم الصمت. والكلام أربعة أقسام: ضرر محض، ونفع محض، وضرر ومنفعة، وكلام ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما آفات اللسان فعديدة منها: الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، والتقعر في الكلام، والفحش والسب والبذاء، والمزاح، والسخرية والاستهزاء، وإفشاء السر، والمراء والجدال والخصومة، واللعن، والكذب، والغيبة.

والغيبة لها أسباب تبعثها عليها منها: تشفي الغيظ، وموافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم، وإرادة رفع النفس بتنقيص الغير، واللعب والهزل. أما علاجها، فليعلم المغتاب إنه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة.

فلينظر في السبب الباعث على الغيبة، فيجتهد على قطعه، فإن علاج العلة يكون بقطع سببها. وعلاج جميع ذلك المعرفة والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

وقد تحصل الغيبة بالقلب، وذلك سوء الظن بالمسلمين، فسوء الظن حرام مثل سوء القول، فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك أمر لا يحتمل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق وقد قال الله

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات: ٦].

ومن ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهي عنه، قال الله تعالى: «ولا تجسسوا»، [الحجرات: ١٢] فالغيبة وسوء الظن والتجسس جميعها منهي عنها في آية واحدة، ومعنى التجسس أن يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه.

فالأعذار المرخصة في الغيبة كثيرة منها: التظلم والاستعانة على تغيير المنكر، والاستفتاء، وتحذير المسلمين، وأن يكون معروفاً بلقب (كالأعرج والأعمش)، وأن يكون مجاهراً بالفسق: إما على حق الله تعالى، وإما على عرض المخلوق، وكفارتها أن يستغفر الله له كما ورد في الحديث: «كفارة من اغتيب أن يُستغفر له»[١].

ومن آفات اللسان النميمة وكلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين والمدح والخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين، لا سيما فيما يتعلق بالله تعالى[٢].

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار.

وقيل: مثل الذي يغتاب الناس كمثل من نصب منجنيقاً يرمي به

---

(١) لم أقف على نصه ومعناه صحيح من باب التعويض اتباعاً لقوله ﷺ: **«وأتبع السيئة الحسنة تمحها»**.

(٢) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (١٥٠ ـ ١٥٣).

حسناته شرقاً وغرباً، يغتاب واحداً خراسانياً وآخر حجازياً وآخر تركياً فيفرق حسناته، ثم يقوم ولا شيء معه.

وقيل: من اغتيب بغيبة غفر الله تعالى له نصف ذنوبه.

وقال سفيان بن الحسين: كنت جالساً عند إياس بن معاوية فنلت من إنسان، فقال: هل غزوت في هذا العام الترك والروم؟ فقلت: لا، فقال: سلم منك الترك والروم وما سلم منك أخوك المسلم.

وقيل: يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها فيقال له: هذا بما اغتابك الناس وأنت لم تشعر.

وذُكرت الغيبة عند عبدالله بن المبارك فقال: لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديَّ لأنهما أحق بحسناتي.

وقال يحيى بن معاذ: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسرّه فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تذمه.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ[1]: **«من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له»**[2].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[3].

والسكوت على قسمين: سكوت بالظاهر وسكوت بالقلب والضمائر، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق، فهذا بجميل صنعه واثق، وهذا بجميع حكمه قانع.

---

(١) أخرجه ابن عدي وأبو الشيخ في كتاب ثواب الأعمال عن أنس.

(٢) الرسالة القشيرية: (١٥٧ ـ ١٥٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٣/١٠) في الأدب.

سمعت بشر بن الحارث يقول: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وقال أبو بكر الفارسي: من لم يكن الصمت وطنه فهو في الفضول وإن كان صامتاً، والصمت ليس بمخصوص على اللسان، لكنه على القلب والجوارح كلها.

ويروى عن معاذ بن جبل أنه قال: كلّم الناس قليلاً، وكلّم ربك كثيراً، لعل قلبك يرى الله تعالى.

وقيل لذي النون المصري: من أصون الناس لنفسه؟ قال: أملكهم للسانه.

وربما يقع السكوت على المتكلم لمعنى في الحاضرين، وهو أنه يكون هناك من ليس بأهل لسماع ذلك الكلام فيصون الله تعالى لسان المتكلم غيرةً وصيانةً لذلك الكلام عن غير أهله.

قال مشايخ هذه الطريقة: ربما يكون السبب فيه حضور من ليس بأهل لسماعه من الجن، إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: اعتللت مرة بمرو فاشتقت أن أرجع إلى نيسابور فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي: لا يمكنك أن تخرج من هذا البلد، فإن جماعة من الجن، استحلوا كلامك، ويحضرون مجلسك، فلأجلهم يحسن أن تجلس ههنا[1].

(يا غلام) ليكن الخرس دأبك والخمول لباسك والهرب من الخلق كل مقصودك إلى أن يترعرع إيمانك ويقوى قدم إيقانك ويتريش جناح صدقك وتنفتح عينا قلبك فحينئذ أطلق لسانك في الكلام واخلع لباس الخمول واترك الهرب من الخلق.

(يا قوم) دعوا عنكم الهوسات والأماني الباطلة واشتغلوا بذكر الله عزَّ

---

(١) الرسالة القشيرية: (١١٩ ـ ١٢٣).

وجلّ، تكلموا بما ينفعكم واسكتوا عما يضركم، إن أردت أن تتكلم ففكر فيما تريد أن تتكلم به وحصل فيه النية الصالحة ثم تكلم، ولهذا قيل لسان الجاهل أمام قلبه، ولسان العاقل العالم وراء قلبه، وهذا معنى قول النبي ﷺ: «من عرف الله كَلَّ لسانه»[1].

فالسر هو الملك، والقلب وزيره، والنفس واللسان والجوارح خدم بين أيديهما، السر يستقي من بحر الحق عزّ وجلّ، والقلب يستقي من السر، والنفس المطمئنة تستقي من القلب، واللسان يستقي من النفس، والجوارح تستقي من اللسان، إذا كان اللسان صالحاً صلح القلب، وإذا كان فاسداً فسد، يحتاج لسانك إلى لجام التقوى وتوبة عن الكلام بالهذيان والنفاق، فإذا دمت على ذلك انقلبت فصاحة اللسان إلى فصاحة القلب فإذا تم له هذا تنوَّر وظهر النور منه إلى اللسان والجوارح فحينئذ يكون النطق للسان المقرب وفي حالة قربه لا لسان له ولا دعاء له ولا ذكر له، الدعاء والذكر والكلام في البعد، أما في القرب فالسكوت والخمود والقناعة بالنظر والتمتع به.

اللهم اجعلنا ممن يراك في الدنيا بعيني قلبه وفي الآخرة بعيني رأسه.

و﴿ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[2].

❀ ❀ ❀

---

(١) ليس بثابت.

(٢) الفتح الرباني: (٤٨، ١٧٦، ٢٢٦).

الموقف الحادي والأربعون: الرياء والنفاق

قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الرياء والشهوة الخفية التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء**»[1]. ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلاً عن عامة العباد والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، ووجدت مَخْلَصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة، فاحتقرت فيها ترك المعاصي، فأحدهم يظن أنه مخلص لله عزَّ وجلَّ وقد أثبت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون والصديقون، ولذلك قيل: «آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة». وإذا كان الرياء هو الداء الدفين الذي هو أعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه، وحقيقته، وأقسامه ودرجاته وطرق معالجته والحذر منه.

---

(١) أخرجه ابن ماجة والحاكم من حديث شداد بن أوس.

أصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار، وذلك خطر عظيم، والسلامة في الخمول، وأهل الخير لم يقصدوا الشهرة، ولم يتعرضوا لها ولا لأسبابها، فإن وقعت من قبل الله تعالى، فرّوا عنها، وكانوا يؤثرون الخمول، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج من منزله، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم وقال: «علام تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أُغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان»؟.

وقال الحسن: «إن خفق النعال حول الرجال قلما تلبث عليه قلوب الحمقى».

وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال: «هل لكم من حاجة؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن».

وقال سليم بن حنظلة: بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدّرة، فقال: «انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟». فقال: «إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع».

وقال بشر: «ما أعرف رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح».

وقال رجل لبشر بن الحارث: «أوصني»، فقال: «أخمل ذكرك وطيب مطعمك».

ورُوي أن عمر رضي الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ. فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة»**(١).

وكان أبو العالية رحمه الله، إذا جلس إليه أكثر من أربعة قام.

وقال الزهري: «ما رأينا الزهد في شيء أقل منه في الرياسة، نرى

(١) أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد.

الرجل يذهب في المطعم والمال، فإذا نُوزع الرياسة، حامى عليها وعادى.

واعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهّم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتردد إليهم، والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم.

ولذلك شبّه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين أرسلا في غنم. وقال عليه السلام: **«إنه يُنبت النفاق كما يُنبت الماء البقل»**(١).

وعلاجه مركّب من علم وعمل. فالعلم: هو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم، وأما من حيث العمل: فهو إسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك.

واعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس، وحب مدحهم فصارت حركاتهم على ما يوافق رضى الناس، رجاء المدح، وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فوجبت معالجته.

وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح، فإنه ضده، والقول الوجيز فيه أن من ذمك، إما أن يكون صادقاً فيما قال، قاصداً للنصح لك، فينبغي أن تتقلد منته ولا تغضب، فإنه قد أهدى إليك عيوبك، وإن لم يقصد بذلك النصح، فإنه يكون قد جنى هو على دينه، وانتفعت بقوله؛ لأنه عرّفك ما لم تكن تعرف، وذكّرك من خطاياك ما نسيت، وإن افترى عليك بما أنت منه بريء فاشكر الله إذ لم يطلعه على عيوبك ودفعه عنك، فذكر ما أنت عنه بريء.

فقد قال ﷺ حين سأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ فقال: **«أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»**(٢).

---

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٢٢٣/١٠.

(٢) لم أقف على لفظه ومعناه صحيح.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: قال النبي ﷺ: **«من راءى راءى الله به. ومن سمَّع سمَّع الله به»**[١].

وقال ﷺ: **«إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»**، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: **«الرياء، يقول الله عزَّ وجلّ يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»**[٢].

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطئ رقبته، فقال: «يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلوب».

ورأى أبو امامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: «أنت أنت لو كان هذا في بيتك».

وقال علي كرم الله وجهه: «للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثني عليه وينقص إذا ذُمّ».

وقال عكرمة: «إن الله يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية لا رياء فيها».

وقال قتادة: «إذا راءى العبد يقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزيء بي».

وقال إبراهيم بن أدهم: «ما صدق الله من أراد أن يشتهر».

فالرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، ومنها الرياء بالعمل، كمراءاة المصلي بطول القيام وتطويل الركوع والسجود وإظهار الخشوع.

---

(١) متفق عليه من حديث جندب بن عبدالله.

(٢) أخرجه أحمد والبيهقي من حديث محمود بن لبيد ورجاله ثقات.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وإمالة العطفين ليدلّوا بذلك على الحشمة. ومنها المراءاة بالأصحاب والزائرين.

فرب عبد مخلص يخلص العمل، ولا يقصد الرياء بل يكرهه، ويتم العمل على ذلك، لكن إذا اطلع الناس عليه سرّه ذلك وارتاح له، وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس لما ظهر عند اطلاع الناس.

وقد يخفى، فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً، ولكن بالشمائل كإظهار النحول، والاصفرار، وخفض الصوت، ويبس الشفتين، وآثار الدموع، وغلبة النعاس الدالة على طول التهجد.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة. ويحرصون على إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة بإخلاصهم.

وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومتى أدرك الإنسان في نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته أو لا يطلع، ففيه شعبة من الرياء، وفي معالجته مقامان:

الأول: في قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه. وأصله حب المنزلة والجاه.

الثاني: دفع ما يخطر منه في الحال[1].

الرياء هو: الإرادة وحدها، إلاَّ أنه على وجهين، أحدهما أعظم وأشد والآخر أهون وأيسر وكلاهما رياء.

وإنما الوجه الذي هو أشد الرياء وأعظمه: إرادة العبد العباد بطاعة الله

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٩٦ ـ ٢١١).

عزَّ وجلّ، لا يريد الله عزَّ وجلّ بذلك، كما قال النبي ﷺ: **«ألا تعمل بطاعة الله تريد الناس»**(١).

وكذلك يروى عن النبي ﷺ **«أن المرائي ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، ضل عملك، وحبط أجرك، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»**(٢).

وروى شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أخوف ما أخاف على أمتي الرياء»**(٣).

وأما الوجه الذي هو أدنى وأيسر: فإرادة العباد بطاعة الله عزَّ وجلّ، وإرادة ثواب الله عزَّ وجلّ، يجتمعان في القلب.

فالإرادتان: إرادة المخلوقين، وإرادة ثواب الله، أدنى الرياء، وهو الشرك بالإرادة في العمل؛ لأن الأول: أراد الناس ولم يرد الله عزَّ وجلّ، وهذا أراد إلى الله عزَّ وجلّ والناس، فأشرك في عمله بطلب حمد الله عزَّ وجلّ، وطلب حمد المخلوقين.

وكذلك يروي أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إن الله تبارك يقول أنا أغنى الشركاء عن الشريك من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشركه»**(٤) فأبان بذلك أن من الرياء إرادة الله عزَّ وجلّ، وإرادة خلقه.

وقال طاووس: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يتصدق ويحب أن يُحمد ويؤجر، فلم يدر النبي ﷺ ما يقول، حتى نزلت عليه هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب السنة.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه الباب (٢٤) من كتاب الحدود.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (برقم: ٤٦) من كتاب الزهد.

ثلاثة عقود في ضمير النفس: حب المحمدة، وخوف المذمة والضعة في الدنيا، والطمع فيما في أيدي الناس.

- خوف المذمة: كالرجل يحضر العدوُّ فيحضر للقتال، فيتقدمه قوم هم أشجع منه، فيصيروا في نحور العدو، ولا يقوى هو على ذلك، فلا يمكنه طلب الحمد ممن حضر إذا وقف مع العامة في الصف وساواهم.

فإذا يئس من الحمد، وكان ممن لا يريد أن يقف في الصف جبناً، أو غير ذلك، وأراد أن ينحاز عن الصف، خاف أن يقولوا: ما أجبنه، فيحبس نفسه معهم، لئلا يولي فيذموه على الجبن وقلة الرغبة في ثواب الله عزَّ وجلّ.

وكالرجل يكون مع القوم، فيتصدق كل واحد منهم بالدينار وبالدرهم، أو الشيء الكثير، ولا تسخو نفسه أن يتصدق بمثل ما تصدقوا، ويكره ألا يتصدق بشيء فيبخل، فيتصدق بالشيء اليسير لئلا يبخل، وقد ييأس أن يحمد إذ فاته القوم بما أعطوا.

- ما يورث الرياء: المباهاة بالعلم والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا، والتكاثر بالمال وغيره من أمر الدنيا، وبالعلم والعمل.

والتحاسد على العلم والعمل لغير منافسة ولكن جزعاً أن ينال من يحاسده من المنزلة والحمد ما لا ينال هو.

- الرئاسة: حب التعظيم والتسخير للعباد والحقرة لهم، وأن لا يُردّ شيء من قوله، ولا يساوى في العلم بغيره، ولا يُقدّم عليه غيره، وإن وُعِظ عنف، وإن وَعَظَ عنّف، وإن علم أنه قد أخطأ، فلما علّمه الناس أو وعظوه لم يُظهر الرجوع لئلا تنكسر رئاسته.

المباهاة تكون بالعلم والعمل:

فأما بالعلم فالدوام على الطلب للعلم، وكثرة الحفظ له، والمواظبة عليه، وكثرة عدد من لقي من المحدثين، والمبادرة إلى الجواب حين يُسأل

هو أو غيره. يحب بذلك أن يصيب الحق ليعلو، أو ليعلم أنه فوقه، ويُعلم غيره أنه أعلم منه، ويبادر إلى ذكر الحديث ليعلم صاحبه أنه أعلم منه، وإن ذكر صاحبه حديثاً أخبر أنه يعرفه، مباهاة ليفوقه.

والمباهاة بالعمل إن اجتمع هو ومن يذكر الله عزَّ وجلّ، أو يقاتل في سبيل الله عزَّ وجلّ، أو يصلي، أو يعمل عملاً من أعمال البر.

فإن صلى غيره قام فصلى جزعاً أن يعلوه، ويكره صلاة المصلي معه ليرى فضله، وإن صلّيا جميعاً طوّل الصلاة ليتحشم صاحبه ويمل، فيترك الصلاة، فيُرفع فوقه، ويكون قد علاه في المنزلة عند من يعلم ذلك، أو عند المصلي معه، ليستصغر نفسه، ويرفعه على نفسه، ويرى فضله عليه.

وكذلك القتال في الحرب: يبادر قدام غيره، ويحب أن يتخلف ويتقدم هو، ويحمل نفسه على الكر على العدو بكل ما يقدر عليه ليعلوه، ويرى فضله عليه.

وأما المباهاة في الدنيا: فالمباهاة بالبناء، فينفق ما لو كان إليه وحده ما أنفقه، ولكن لمن قاربه من الجيران، أو من الأقارب والأصحاب.

ـ التفاخر قد يجمع المباهاة في أكثر معانيه، ولكن له أسباب يتفرد بها مثل ما قد يجاء معها في العلم، فيخرجه التفاخر بالعلم إلى الاستطالة عليه فيقول: كم سمعت؟ وهل تحسن شيئاً؟.

وما تقول في كذا وكذا؟ يقول ذلك لغيره، وما يحسن فلان وإن لم يسمعه، وما سمع ما سمعت، وما قام مقامي، افتخاراً عليه.

وكذلك التفاخر بالدنيا مع المباهاة فيقول: أنت فقير لا مال لك، وكم ربحت؟ وكم عندك من المال؟ ومتى ملكت المال؟ وعندي أكثر مما تملك، ومولاي أغنى منك.

وكذلك في العمل أن يقول: ما قمت في الحرب مقام الفرسان، وما كررت، ولقد جبنت، وما أحسنت الكرّ.

ـ والتكاثر قد يجامع التفاخر ويزيد عليه في بعض معانيه وهو مثل قوله: سمعت كذا وكذا من الحديث، وغزوت كذا وكذا غزوة، وحججت كذا وكذا.

ـ والتحادث يبعث عليه الرياء وغيره، فأما ما كان من الرياء فحسداً ونفاسة أن يدرك غيره من المنزلة أكثر مما يدرك، ومن حمد الناس أكثر مما يدرك من الحمد، فيحب أن تزول عنهم النعم، لئلا يعلوه بها أحد.

ـ حب الغلبة: فيحب أن يخطئ غيره ويصيب هو، وإن أصاب اغتم لذلك، وتلك نهمة إبليس في العباد: أن يخطئوا في دين الله عزَّ وجلّ ولا يصيبوا، ويغتم إن أصابوا. ولا يتفهم ما يقول مناظره إنما همته الرد والشغب.

وبذلك وصف الله عزَّ وجلّ الكفار، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ۝٢٦﴾ [فصلت: ٢٦].

ـ عمل السر: فقال عز من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالسر أفضل من العلانية، والعلانية أفضل من البطالة وترك العمل، فالسر أفضل ما أمكن السر، فإذا لم يمكن السر فالعمل علانية مع الإخلاص لله وحده أفضل من الترك.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أعجبك الكلام فاسكت، وإذا أعجبك السكوت فتكلم.

وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة.

وكان أحدهم يبيت عنده الزوار فيدع قيام الليل مخافة الشهرة[١].

---

(١) الرعاية لحقوق الله: (١٦٣ ـ ١٧٠، ٢٢٣ ـ ٢٢٧، ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تزين للناس بما يحبون، وبارز الله بما يكره، لقي الله عزَّ وجلّ وهو عليه غضبان**»[١].

اسمعوا كلام النبوة يا منافقون، يا بائعين الآخرة بالدنيا، يا بائعين الحق عزَّ وجلّ بالخلق، يا بائعين ما يبقى بما يفنى خسرت تجارتكم وذهبت رؤوس أموالكم، ويلكم أنتم متعرضون لمقت الله عزَّ وجلّ وسخطه لأن من تزين للناس بما ليس فيه مقته الله عزَّ وجلّ. زيّن ظاهرك بآداب الشرع وباطنك بإخراج الخلق منه، رد أبوابهم، أفنهم من حيث قلبك حتى كأنهم لم يخلقوا[٢].

❀❀❀

(١) لم أقف على لفظه ومعناه صحيح.

(٢) الفتح الرباني: (١٩٥).

الموقف الثاني والأربعون: الحقد والحسد

الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار غيظاً، ومعنى الحقد: أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه وأن يدوم ذلك ويبقى، فالحقد ثمرة الغضب.

والحقد يثمر ثمانية أمور: الحسد والشماتة والهجر والاستصغار وإفشاء السر والاستهزاء والإيذاء بالضرب، ومنع الحق من قضاء دين أو صلة رحم أو رد مظلمة. وكل ذلك حرام.

والحسد من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب.

قال رسول الله ﷺ: «**الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[1].

وقال أيضاً: «**لا تحاسدوا، ولا تقاطعوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً**»[2]. وفي حديث آخر: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم، أفشوا السلام بينكم**»[3].

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة.
(٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه الترمذي من حديث مولى الزبير.

قال بعض السلف: «أول خطيئة هي الحسد، حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له فحمله على الحسد والمعصية».

وقال أبو الدرداء: «ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قلّ فرحه وقل حسده».

وقال معاوية: «كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها».

وقال بعض الحكماء: «الحسد جرح لا يبرأ وحب الحسود ما يلقى».

وقال الحسن: «يا بن آدم لِمَ تحسد أخاك؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله؟ وإن كان غير ذلك فَلِمَ تحسد من مصيره إلى النار؟». ولذلك لا حسد إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان: إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، فهذا هو الحسد.

الحالة الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها، فهذا يسمى غبطة. وقد تختصر باسم المنافسة. وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة.

وعلاج الحسد، تارة بالرضى بالقضاء، وتارة بالزهد في الدنيا، وتارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا وحساب الآخرة، فيتسلى بذلك ولا يعمل بمقتضى ما في النفس أصلاً، ولا ينطق، فإذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته.

والحسد له أسباب:

العداوة والبغضاء والتكبر والعجب والخوف من فوت المقاصد وحب الرياسة وخبث النفس والبخل. فمن آذاه إنسان بسبب من الأسباب وخالفه في غرضه أبغضه قلبه، ورسخ في نفسه الحقد.

والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فمهما أصاب عدوه من البلاء فرح بذلك، وظنه مكافأة من الله تعالى له، ومهما أصابته نقمة ساءه ذلك،

فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقي أن لا يبغض، وأن يكره ذلك من نفسه، فأما أن يبغض إنساناً فيستوي عنده مسرّته ومساءته، فهذا غير ممكن.

الحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم الأسباب التي ذكرناها، ويقع غالباً بين الأقران والأمثال والإخوة وبني العم؛ لأن سبب التحاسد توارد الأغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها، فيثور التنافر والتباغض.

ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضرتها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته؛ لأن مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر.

ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا، فإن الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا ضيق فيها.

والفرق بين العلم والمال: أن المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد أخرى، والعلم مستقر في قلب العالم، ويحل في قلب غيره بتعليمه من غير أن يرتحل عن قلبه، ولا نهاية له، فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله وعظمته وملكه، صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم، فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق.

ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر إلى زينة السماء؛ لأنها واسعة الأقطار، وافية بجميع الأبصار، فلم يكن فيها تزاحم ولا تحاسد، فعليك إن كنت بصيراً وعلى نفسك شفيقاً أن تطلب نعمة لا زحمة فيها ولذة لا كدر لها، ولا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله عزّ وجلّ ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوته، ولا ينال ذلك إلا في الآخرة إلا بهذه المعرفة أيضاً، فإن كنت لا تشتاق إلى معرفة الله سبحانه، ولم تجد لذتها، وفتر عنها رأيك وضعفت فيها رغبتك، فلست برجل، إنما هذا شأن الرجال؛ لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم

يدرك بقي من المحرومين. «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين».

الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا، وأنه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع به، والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك، ولو لم تكن.

والمحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا، بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا؛ لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد أن تدوم إلى أجله الذي قدره، ولا ضرر عليه في الآخرة؛ لأنه لا يأثم هو بذلك.

فإذا تأملت، علمت أنك عدو لنفسك، وهو صديق لعدوك، فما مثلك إلا كمثل من يرمي حجراً إلى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه، ويرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها، فيزيد غضبه، فيعود ويرميه بحجر أشد من الأول، فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها.

وأما العمل النافع فيه، فهو أن يتكلف نقيض ما يأمره به الحسد، فإذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود، كلف نفسه المدح له والثناء عليه، وإن حمله على الكبر، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعثه على كف الإنعام عنه، ألزم نفسه زيادة في الإنعام[1].

حدثنا عبدالله بن مسعود وقال: إن النبي ﷺ قال: **«ثلاث هن أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن: إياكم والكبر، فإن إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم. وإياكم والحرص، فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة. وإياكم والحسد فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً»**[2].

وقال بعضهم: الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٦٤ ـ ١٧١).

(٢) أخرجه ابن عساكر (كنز العمال: ٢٥٦/٣ برقم: ٧٧٣٤).

وقيل: (الحسود لا يسود).

وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

قيل: (ما بطن) هو الحسد.

وفي بعض الكتب: الحاسد عدو نعمتي.

وقيل: أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك.

وقال الأصمعي رأيت أعرابياً أتت عليه مائة وعشرون سنة، فقلت: ما أطول عمرك! فقال: تركت الحسد فبقيت.

وقال ابن المبارك: الحمد لله الذي لم يجعل في قلب أميري ما جعل في قلب حاسدي.

وقيل: من علامات الحاسد أن يتملق إذا شهد، ويغتاب إذا غابن ويشمت بالمصيبة إذا نزلت.

وقال معاوية بن أبي سفيان: ليس في صفات الشر صفة أعدل من الحسد، تقتل الحاسد قبل المحسود.

وقيل: أوحى الله عزّ وجلّ إلى سليمان بن داود عليهما السلام: أوصيك بسبعة أشياء: لا تغتابن صالحاً من عبادي، ولا تحسدن أحداً منهم، فقال سليمان: يا رب حسبي[1].

❀❀❀

(١) الرسالة القشيرية: (١٥٤ ـ ١٥٦).

الموقف الثالث والأربعون:
المال والغنى والفقر

إن فتن الدنيا كثيرة الشعب والأطراف، واسعة الأرجاء والأكناف، لكن الأموال أعظم فتنها، وأعظم فتنة فيها أنه لا غنى لأحد عنها، ثم إذا وجدت فلا سلامة منها، فإن فُقد المال حصل منه الفقر، الذي يكاد أن يكون كفراً، وإن وُجد حصل منه الطغيان الذي لا تكون عاقبة أمره إلا خسراً، وبالجملة فهي لا تخلو من الآفات والفوائد، فوائدها من المنجيات، وآفاتها من المهلكات.

وللإنسان من فقد المال صفة الفقر، ومن وجوده وصف الغنى. وهما حالتان يحصل بهما الاختبار والامتحان.

للفاقد حالتان: القناعة والحرص. فالأولى محمودة والأخرى مذمومة، وللحرص حالتان: طمع فيما في أيدي الناس، وتشمر للحرف والصناعات مع اليأس عن الخلق، والطمع شر الحالتين.

وللواجد حالتان: إمساك بحكم البخل والشح، وإنفاق، وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة، وللمنفق حالتان: تبذير واقتصاد، والمحمود هو الاقتصاد.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾، [المنافقون: ٩] ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾، [الأنفال: ٢٨]

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾، [العلق: ٦ ـ ٧] ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢].

قال رسول الله ﷺ: **«ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حب الشرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم»**(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: **«أخلاء ابن آدم ثلاثة، واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، والذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله»**(٢). **«إذا مات العبد قالت الملائكة ما قدّم وقال الناس ما خلّف»**(٣).

وقال يحيى بن معاذ: «مصيبتان لم يسمع الأولون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته، قيل: وما هما؟ قال: يُؤخذ منه كله ويسأل عنه كله».

وروي أن محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو ادخرته لولدك من بعدك؟ قال: لا ولكني أدخره لنفسي عند ربي وأدّخر ربي لولدي».

ويروى عن مسلمة بن عبدالملك أنه دخل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله عند موته فقال: «يا أمير المؤمنين صنعت صنيعاً لم يصنعه أحد من قبلك، تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار» ـ وكان له ثلاثة عشر ولداً ـ فقال عمر: «أقعدوني! فأقعدوه». فقال: «أما قولك لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً، فإني لم أمنعهم حقاً لهم وأعطهم حقاً لغيرهم! وإنما ولدي أحد رجلين: إما مطيع لله فالله كافيه والله يتولى الصالحين، وإما عاص لله فلا أبالي على ما وقع».

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي من حديث كعب بن مالك.

(٢) أخرجه أحمد والطبراني من حديث ابن النعمان بن بشير بإسناد جيد.

(٣) أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة.

إن الله تعالى قد سمّى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعلا: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، [البقرة: ١٨٠] ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، [الكهف: ٨٢] ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[(١)].

وقال سعيد بن المسيب: «لا خير فيمن لا يريد جمع المال من حلّه، يكف به وجهه عن الناس، ويصل به رحمه، ويعطي منه حقه».

وقال سفيان: «المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين».

فالمال مثل حية فيها سم وترياق. فترياقه فوائده وغوائله سمّه. فمن عرف فوائده وغوائله، أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره.

أما فوائده، فتنقسم إلى دنيوية ودينية.

أما الدنيوية: فالخلق يعرفونها، ولذلك تهالكوا في طلبها.

وأما الدينية: فتنحصر في ثلاثة أنواع:

أحدها: أن ينفقه على نفسه، إما في عبادة كالحج والجهاد، وإما في الاستعانة على العبادة، كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة.

الثاني: ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام: المروءة ووقاية العرض وما يعطيه أجراً على الاستخدام والصدقة.

الثالث: ما لا يصرفه الإنسان إلى معين، لكن يحصل به خيراً عاماً.

وأما غوائل المال وآفاته فتنقسم إلى دينية ودنيوية.

أما الدينية فثلاث:

الأولى: انه يجر إلى المعاصي غالباً.

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند صحيح.

الثانية: أنه يحرك إلى التنعم في المباحات حتى تصير له عادة وإلفاً.

الثالثة: ملهاة عن ذكر الله تعالى وهذا هو الداء العضال. فإن أصل العبادات ذكر الله تعالى، والتفكر في جلاله وعظمته، وذلك يستدعي قلباً فارغاً.

أما الدنيوية: فصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء، وأعوان السلطان في الخراج والأجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك.

وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه وتقصيره في العمل، وتضييعه المال.

وكذا سائر أصناف المال، حتى صاحب المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه، وفي الخوف عليه.

ومن له قوت يوم بيوم فهو في سلامة من جميع ذلك، وهذا سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا، من الخوف والحزن والهم والغم والتعب.

فإذاً ترياق المال أخذ القوت منه، وصرف الباقي إلى الخيرات، وما عدا ذلك سموم وآفات.

واعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه، ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق، ويأخذها الغافل فيقتله سمّها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد عن سم المال إلا بالمحافظة على أربع وظائف:

الأولى: أن يصرف مقصود المال، وأنه لم يحتج إليه حتى يكتسب ولا يحفظ إلا قدر الحاجة، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه.

الثانية: أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض، ويجتنب الجهات المكروهة كالهدايا والرشوة، والسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة.

الثالثة: في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل.

الرابعة: أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق والإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له[١].

عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي ﷺ قال: **«يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام نصف يوم»**[٢].

عن عبدالله بن مسعود قال رسول الله ﷺ: **«إن المسكين ليس بالطّواف الذي تردُّه اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان»**، فقيل: مَن المسكين يا رسول الله؟ قال: **«الذي لا يجد ما يغنيه، ويستحي أن يسأل الناس، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه»**[٣].

وقال معاذ النسفي: ما أهلك الله تعالى قوماً، وإن عملوا ما عملوا حتى أهانوا الفقراء وأذلوهم.

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر، فقال: حقيقته أن لا يستغني إلا بالله تعالى، ورسمه عدم الأسباب كلها.

يقول حمدون القصار: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: رجل مؤمن قتل مؤمناً، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وسئل رويم بن أحمد عن نعت الفقير، فقال: إرسال النفس في أحكام الله تعالى. وقيل: نعت الفقير ثلاثة أشياء: حفظ سره، وأداء فرضه، وصيانة فقره.

وقال سهل بن عبدالله: خمسة أشياء من جوهر النفس: فقير يظهر

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين (١٧٨ ـ ١٨٣، ١٩٦).

(٢) رواه الترمذي برقم (٢٣٥٤) في الزهد وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أحمد في المسند (مجمع الزوائد: ٩٢/٣).

الغنى، وجائع يظهر الشبع، ومحزون يظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة يظهر له المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يظهر ضعفاً.

وقيل: صحة الفقر أن لا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره.

وقال عبدالله بن المبارك: إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر.

يقول أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه دوام الفقر إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال.

وقيل: أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه(١).

(١) الرسالة القشيرية: (٢٧١ ـ ٢٧٦).

الموقف الرابع والأربعون: العزلة والبعد عن الخلق

حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من خير معايش الناس كلهم رجلاً آخذاً بعنان فرسه في سبيل الله، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه، أو رجلاً في غنيمة له في رأس شعفة من هذه الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه، حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»**[1].

إن الخلوة صفة أهل الصفوة؛ والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه.

ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره، ولا يقصد سلامته من شر الخلق.

ورؤي بعض الرهبان فقيل له: إنك راهب، فقال: لا بل أنا حارس كلب، إن نفسي أشبه بالكلب الذي يعقر الخلق، وقد أخرجتها من بينهم ليسلموا منها.

ومن آداب العزلة أن يحصل من العلوم على ما يصحح به عقد توحيد، لكي لا يستهويه الشيطان بوساوسه، ثم يحصل من علوم الشرع

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (رقم: ١٨٨٩).

على ما يؤدي به فرضه ليكون بناء أمره على أساس محكم، والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال الذميمة، فالتأثير لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان، ولهذا قيل: من العارف؟ قالوا: كائن بائن، يعني: كائن مع الخلق، بائن عنهم بالسر.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول: البس مع الناس ما يلبسون. وتناول مما يأكلون، وانفرد عنهم بالسر.

سئل أبو محمد الجريري عن العزلة، فقال: هي الدخول بين الزحام، وتمنُّع سرك أن لا يزاحموك، وتعزل نفسك عن الأنام، ويكون سرك مربوطاً بالحق.

وقال يحيى بن أبي كثير: من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم[1].

يا غلام، لا تخالط الناس مع العمى مع الجهل مع الغفلة والنوم خالطهم بالبصيرة والعلم واليقظة فإذا رأيت منهم ما تحمده فاتبعه، وإذا رأيت منهم ما يسوؤك فاجتنبه وردهم عنه.

ونفاق كل همك استجلاب الخلق إليك، أما تعلم أنك كلما خطوت بقلبك خطوة إلى الخلق بعدت من الله عزَّ وجلّ.

تدعي أن قلبك قد خرج من الخلق وأنت تخافهم وترجوهم ظاهرك الزهد وباطنك الرغبة ظاهرك الحق وباطنك الخلق. الخلق عجزة لا يضرونك ولا ينفعونك إنما الحق عزَّ وجلّ يجري ذلك على أيديهم فلعله يتصرف فيك وفيهم.

قال ﷺ: **«تفقه ثم اعتزل»**[2].

المؤمن من يتعلم ما يجب عليه ثم يعتزل عن الخلق ويخلو بعبادة ربه

---

(١) الرسالة القشيرية: (١٠١ ـ ١٠٣).

(٢) رواه أبو نعيم الأصبهاني عن الربيع بن ضيثم، وورواه أحمد في الزهد عن مطرف بلفظ **«تفقهوا ثم اعتزلوا»**.

عزّ وجلّ. عرف الخلق، علم أن لا ضرر ولا نفع ولا خير ولا شر في أيديهم.

طريق الحق ليس فيها خلق، ليس فيها سبب، ليس فيها معلوم، ليس فيها جهة وباب، ليس فيها وجود الخلق، البنية مع الدنيا والقلب مع الأخرى، والسر مع المولى. السر حاكم على القلب، والقلب حاكم على النفس المطمئنة، والنفس المطمئنة حاكمة على البنية، والجوارح حاكمة على الخلق، إذا صح هذا وتم للعبد صار الجن والإنس والملك تحت أقدامه، فيصير الكل قياماً وهو قاعد في دست القرب.

(يا غلام) أعرض عن المنافقين المتعرضين لمقت الله عزّ وجلّ، كن عاقلاً ولا تقرب أكثر أهل الزمان فإنهم ذئاب عليهم ثياب، خذ مرآة الفكر وانظر فيها واسأل الله عزّ وجلّ أن يبصرك بك وبهم، إني قد خبرت الخلق والخالق فوجدت الشر عند الخلق والخير عند الخالق.

لا يخرج أحد منكم من بيته إلا إلى ما لا بد له منه من مصالحه ومصالح أهله، اجتهد أن لا تبدأ بالكلام بل يكون كلامك جواباً، إذا سألك سائل عن شيء فإن كان جوابه مصلحة لك وله وإلا فلا تجبه، القوم يخافون ربهم عزّ وجلّ في جميع الأحوال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

يخافون أن يؤخذوا على غرة، يخافون أن يكون الإيمان عندهم عارية.

اللهم طيبنا بالتوحيد، وبخرنا بالغَناء عن الخلق وما سواك في الجملة.

يا موحدين يا مشركين ليس بيد أحد من الخلق شيء، الكل عجزة، الملوك والمماليك والسلاطين والأغنياء والفقراء كلهم أسراء قدر الله عزّ وجلّ، قلوبهم بيده يقلبها كيف يشاء[1].

---

(١) الفتح الرباني: (١٧، ٦٤، ٨٨، ١٢٥، ١٣٨، ٢٦٧، ٢٦٩).

الموقف الخامس والأربعون:
الاعتصام بالله

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

و«الاعتصام» افتعال من العصمة. وهو التمسك بما يعصمك، ويمنعك من المحذور والخوف. فالعصمة: الحمية. والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم، لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله. ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة. الاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية واتباع الدليل. والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى.

فقال ابن عباس: تمسكوا بدين الله.

وقال ابن مسعود: هو الجماعة. وقال: «عليكم بالجماعة؛ فإنها حبل الله الذي أمر به».

وهو على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخير، استسلاماً وإذعاناً. بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي. وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف.

واعتصام الخاصة: وهو إسبال الخُلُق عن الخلق بسطاً، ورفض العلائق عزماً.

فإن حسن الخُلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق يدل على سعة قلب صاحبه، وكرم نفسه وسجيته. وفي هذا الوصف: يكف الأذى، ويحمل الأذى.

وأما رفض العلائق عزماً: فهو العز التام على رفض العلائق، وتركها في ظاهره وباطنه.

والأصل هو قطع علائق الباطن. فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر. فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر. ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء.

وقيل لسفيان الثوري: أيكون ذو المال زاهداً؟ قال: نعم إن كان إذا زيد في ماله شكر، وإن نقص شكر وصبر.

وذروة الاعتصام إنما تكون بالقرب. إذ لا ريب أن العبد يقرب من ربه، والرب يقرب من عبده. فأما قرب العبد: فكقوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وقوله في الأثر الإلهي «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» وكقوله «وما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»(١). وفي الحديث الصحيح: **«أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الأخير»**(٢). وفي

(١) سبق تخريج الحديث.

(٢) المستدرك للحاكم (١١٦٢): ١/٤٥٣.

الحديث أيضاً: **«أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد»**، وفي الحديث الصحيح ـ لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي ﷺ في السفر ـ فقال:[١] **«يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً، إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**[٢].

«ملعون ملعون من كانت ثقته بمخلوق مثله».

ما أكثر الذين دخلوا هذه اللعنة من خلق كثير، ومن وثق بالله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن وثق بمخلوق مثله فهو كالقابض على الماء يفتح يده لا يرى فيها شيئاً.

(ويحك) الخلق يقضون ـ حوائجك يوماً أو اثنين أو ثلاثة أو شهراً أو سنة أو سنتين وفي الآخر يضجرون منك، عليك بصحبة الحق عزَّ وجلَّ وإنزال حوائجك به فإنه لا يضجر منك ولا يسأم من حوائجك دنيا وآخرة[٣].

❀❀❀

(١) البخاري عن أبي موسى الأشعري برقم (٢٨٣٠): ١٠٩١/٣.
(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٢٥١ ـ ٢٥٣).
(٣) الفتح الرباني: (١٨٧).

الموقف السادس والأربعون:
الموت وتذكر الآخرة

جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة والنار مورده، أن لا يكون له فكر إلا الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها من أصحاب القبور.

ونحن نذكر الموت فما بقي من العمر إلا القليل، والخلق عنه غافلون ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١].

إن المنهمك في الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكّر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [الجمعة: ٨].

وقال رسول الله ﷺ: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات»**(١).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «أتيت النبي ﷺ ـ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار: «من أكبر الناس وأكرم الناس يا رسول الله؟».

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال: حسن.

فقال: **«أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»**[1].

ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت أن يُكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حُسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى عن دار الغرور.

قال رسول الله ﷺ لعبدالله بن عمر: **«إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسُقمك»**[2].

والناس متفاوتون في طول الأمل تفاوتاً كثيراً، منهم من يأمل البقاء إلى زمان الهرم، ومنهم من لا ينقطع أمله بحال، ومنهم من هو قصير الأمل.

وكلما قصر الأمل، جاد العمل؛ لأنه يقدر أن يموت اليوم، فيستعد استعداد ميت فإذا أمسى شكر الله تعالى على السلامة، وقدَّر أنه يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل.

وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه.

قال رسول الله ﷺ: **«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»**[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجة مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد.

(٢) رواه البخاري من قول ابن عمر.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس.

وقال أيضاً صلوات الله عليه: **«اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»**[١].

وكان الحسن يقول في موعظته: «المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عزَّ وجلّ. رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ هذه الآية: **«إنما نعدّ لهم عدًا»** يعني الأنفاس.

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب، سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره، ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره، ويعظم له استعداده لا سيما وهو في كل شيء بصدده، كما قال بعض الحكماء: «كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك».

فالموت أشد من ضرب السيف، وإنما يصيح المضروب، ويستغيث لبقاء قوته، وأما الميت عند موته، فإنه ينقطع صوته من شدة ألمه؛ لأن الكرب قد بالغ فيه، وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه، وضعفت كل جارحة فيه، فلم يبق فيه قوة لاستغاثة، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة. وتجذب الروح من جميع العروق، ويموت كل عضو من أعضائه تدريجياً، فتبرد أولاً قدماه، ثم ساقاه، ثم فخذاه، حتى تبلغ الحلقوم، فعند ذلك ينقطع نظره إلى الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة لقول رسول الله ﷺ: **«إن الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر»**.

وأما ما يستحب من الأحوال عند المحتضر، فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى، ولسانه ينطق بالشهادة، والسكون من علامات اللطف، وهو أمارة على أنه قد رأى الخير، وقد روي أن روح المؤمن تخرج رشحاً.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس بإسناد حسن.

ويستحب تلقينه: لا إله إلا الله، كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم: **«لقنوا موتاكم لا إله إلا الله»**. وينبغي للملقّن أن يرفق به، ولا يلح عليه[1].

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النحل: ٣٢] يعني طيبة نفوسهم ببذلهم مهجهم، لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم.

عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن العبد ليعالج كرب الموت، وسكرات الموت، وإن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض، تقول: عليك السلام تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة»**[2].

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت. فقال: **«كيف تجدك؟»** فقال: أرجو الله تعالى وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: **«لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمّنه مما يخاف»**[3].

قال أبو محمد عبدالله الإبراهيمي الهروي: مكثت عند دلف الشبلي الليلة التي مات فيها، فكان يقول طول ليله هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنه   غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا   يوم يأتي الناس بالحجج

وقيل: كان سفيان الثوري إذا سافر بعض أصحابه، قال لهم: إذا وجدتم الموت فاشتروه لي، فلما قربت وفاته كان يقول: كنا نتمناه، فإذا هو شديد.

---

(١) بغية الطالبين من إحياء علوم الدين: (٤١٦ ـ ٤٢٣).

(٢) كنز العمال (٥٦٣/١٥) رقم: (٤٢١٨٣) واختص به القشيري.

(٣) الأحاديث المختارة للمقدسي (١٥٨٧): ٤١٣/٤.

وقيل: لما حضرت الحسن بن علي بن أبي طالب الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أقدم على سيد لم أره. ولما حضر بلالاً الوفاة قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه.

وقيل: فتح عبدالله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك، وقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٦١].

وقيل للجنيد: إن أبا سعيد أحمد الخراز كان كثير التواجد عند الموت، فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً.

وقال أحمد بن عطاء: سمعت أحد الفقراء يقول: لما مات يحيى الأصطخري جلسنا حوله، فقال له أحدنا قل: أشهد أن لا إله إلا الله، فجلس مستوياً، ثم أخذ بيد واحد منا، وقال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم أخذ بيد آخر حتى عرض الشهادة على جميع الحاضرين، ثم مات.

ويروى عن فاطمة أخت محمد الروذباري أنها قالت: لما قرب أجل أخي (أبي علي أحمد الروذباري)، وكان رأسه في حجري، فتح عينيه وقال: هذه أبواب السماء قد فتحت، وهذه الجنان قد زُينت، وهذا قائل يقول لي: يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى، وإن لم تردها.

وقيل لبعضهم: أتحب الموت؟ فقال: القدوم على من يرجى خيره، خير من البقاء مع من لا يؤمن شرّه[١].

قلت: أخبرني عن الاستعداد للموت ما هو؟.

قال: الاستعداد على وجهين:

أحدهما: واجب وهو الذي تأسّف على فواته النادمون عند الموت، وهو أن يتوب العبد توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا، بأن لو قيل له: إنك تموت الساعة ما وجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه فيسأل النظرة من أجله.

---

(١) الرسالة القشيرية: (٣٠٣ ـ ٣٠٨).

والوجه الثاني من الاستعداد هو نافلة، كبذل المجهود من القلب والبدن، وبذل ما يملك من الدنيا إلا ما كان أولى به حبسُه، حتى لو قيل له إنك تموت غداً ما كان عنده مستزاد في عمله.

فهذا الاستعداد يستحق الله عزَّ وجلَّ من خلقه أكثر منه؛ لأن حقه لا يؤدى ونعمته لا تكافأ، وعظمته لا عِدْلَ لها، ولن يبعثك على الاستعداد للموت وقطع التسويف مثل قصر الأمل[1].

عن النبي ﷺ أنه قال: **«عودوا المرضى وشيعوا الجنائز فإنه يذكركم الآخرة»**[2].

يا غافلاً انتبه، ما خلقت للدنيا وإنما خلقت للآخرة، يا غافلاً عما لا بد له منه قد جعلت همك الشهوات واللذات وجمع الدنيا.

إذا جاء أجلك ماذا تعمل؟ إذا جاء ملك الموت ومعه أعوانه بأي شيء ترده؟ إذا انقطع رزقك وانقضت مدتك بأي حيلة تحتال؟ دع عنك هذا الهوس، الدنيا مبنية على العمل إذا عملت فيها أُعطيت الأجرة، وإن لم تعمل فما تُعطى. هي دار الأعمال والصبر على الآفات.

أما شاهدتم موت آبائكم وأهاليكم؟ أما شاهدتم موت ملوككم؟ فهلا اتعظتم بهم وزجرتم نفوسكم عن طلب الدنيا وحب البقاء فيها؟ هلا غيرتم قلوبكم وبدلتموها وأخرجتم الخلق منها.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

اجهد في تقصير الأمل وتقليل الحرص وذكر الموت ومراقبة الحق عزَّ وجلَّ والتداوي بأنفاس الصديقين وكلماتهم والذكر الصافي من التكدر في الليل والنهار، قل لها: لك ما كسبت وعليك ما اكتسبت ما أحد يعمل معك ولا يعطيك من عمله شيئاً ولا بد من العمل والمجاهدة.

---

(١) الرعاية لحقوق الله: (١٣٤ ـ ١٣٥).

(٢) رواه أحمد بن حنبل وابن حبان والبيهقي عن أبي سعيد الخدري.

صديقك من نهاك، عدوك من أغواك، إني أراك عند الخلق لا عند الخالق عزَّ وجلّ. تؤدي حق النفس والخلق وتسقط حق الحق عزَّ وجلّ، تشكر غيره على نعمه. إن كنت تعلم أن ما عندك من النعم من الحق عزَّ وجلّ فأين شكره؟ وإن كنت تعلم أنه خلقك فأين عبادته في امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه والصبر على بلائه؟ جاهد نفسك حتى تهتدي، قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

إذا أردت أن تصح لك هذه المتابعة فأكثر من ذكر الموت فإن ذكره يعينك على نفسك وهواك وشيطانك وانعزالك عن دنياك، من لم يتعظ بالموت فما إلى وعظه من سبيل، قال النبي ﷺ: **«كفى بالموت واعظاً»**[١].

لو ذكرت الموت قلَّ فرحك بالدنيا وكثر زهدك فيها من آخره الموت كيف يفرح بشيء؟ قال النبي ﷺ: **«لكل ساع غاية، وغاية كل حي الموت»**[٢].

آخر الأحزان والأفراح والغنى والفقر والشدة والرخاء والأمراض والأوجاع الموت، من مات قامت قيامته وقرب البعيد في حقه.

حياتك في الدنيا إلى أمد معلوم، وحياتك في الآخرة إلى أبد غير معلوم.

يا غلام كن أنت واعظ نفسك، عظ نفسك بدوام ذكر الموت وقطع العلائق والأسباب، تعلق برب الأرباب الخلاق العظيم العليم، تعلق بذيل رحمته، وتعلق برأفته، لا تشتغل بغيره عنه فإنه يحجبك عنه.

ففي بعض الليالي ذكرت الموت وبكيت من أول الليل إلى السحر

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي عن عمار بن ياسر.

(٢) رواه البغوي عن جلاس بن عمرو.

فكنت في تلك الليلة أبكي وأقول: إلهي أسألك أن لا يقبض ملك الموت روحي وتتولى قبضها أنت فغضيت عيني فرأيت رجلاً شيخاً بها له سمت حسن فدخل من الباب فقلت له: من تكون؟ فقال: أنا ملك الموت، فقلت له: إني قد سألت الله عزّ وجلّ أنه يتولى قبض روحي ولا تقبضها أنت فقال: ولم سألته ذلك؟ أي ذنب لي أنا إن أنا إلا عبد مأمور أومر بالرفق بقوم والفظاظة على قوم وعانقني وبكى وبكيت معه ثم انتبهت وأنا أبكي.

لما مات علي بن الفضيل بن عياض رآه أبوه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: يا أبت ما رأيت للعبد خيراً له من ربه.

يا بني عليك بالله لا تشتغل بغيره، الدار داره والأرزاق خلقه (وقدر فيها أقواتها) الملائكة يوكلون بأرزاقك الخير منه والشر منه يرمي العبد بسهام الآفات حتى إذا أغمض العبد عينيه عن الرمي جاء طبيب القرب داوى جرحه وطبيب الخير رفعه وطبيب الشوق ضمه.

كان ابن عطاء يدعو: اللهم ارحم غربتي في دنياي، الموت موتان: موت العوام هو الموت المعهود، وموت الخواص هو موت الأهوية والنفوس والطباع والعادات، فيحيا القلب. فإذا حيي القلب جاء القرب فإذا جاء القرب جاءت الحياة الدائمة حينئذ يحال بينه وبين ذكر الموت في باطنه شيء يخصه وظاهره يذكر الناس بالموت ويذكر هو معهم حكماً ظاهراً.

كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا ذكرت عنده الساعة يصيح كما تصيح المرأة الثكلى ويقول لا ينبغي لابن آدم إذا ذكرت عنده الساعة أن يسكن.

إذا ذكرت الموت انقطع عنك الفضول. إذا ضعف حرصك وقلّ أملك استرجعت فوضت أمورك كلها لله عزّ وجلّ.

رأيت أبي آدم عليه السلام فقال: يا بني، إذا نزل بك الموت قطعك كل مواصل، وهجرك كل قريب فاهجرهم قبل هجرهم واقطعهم، فيكون القبر طريقاً إلى الحق دهليزاً، مت قبل أن تموت، مت عنك وعنهم وقد حييت به تصير كالميت ويد السابقة تلقمه وتقلبه يأخذ قسمه من غير همة.

تحرروا لله تعالى وانقطعوا إليه، التوحيد إعدام الخلائق والخروج من انقلاب طبعك إلى طبع الملائكة، ثم فناؤك عن طبع الملائكة ولحوق بربك عزَّ وجلَّ يسقيك ما يسقيك وتُخَصُّ بأعمال عنده زيادة على عمل الظاهر، الإسلام ظاهر والإيمان قوته، ثم المعرفة بالله عزَّ وجلَّ بعد ذلك، ثم الوجود بالله تعالى، فإذا كان وجودك به كان ذلك له، المؤمن يأكل من كسبه وسببه ويعلم أنه من الله عزَّ وجلَّ، فإذا قوي أكل من توكله ويراه من الله عزَّ وجلَّ ولا يتغير عليه من النظر الأول، لو قعد في دجلة ألف عام كان قلبه متعلقاً بالله عزَّ وجلَّ.

اتعظ ـ رحمك الله ـ بأي وجه تلقاه وأنت تعارضه في قضائه وقدره؟ لا تعارض ولا تجادل، عزير عارض ربه عزَّ وجلَّ في الخلق، يخلق خلقاً ثم يعذبه، محاه من ديوان النبوة، أماته مائة عام معزولاً، ثم أحياه ورد عليه، اجعل الاستغفار دأب لسانك، والاعتراف دأب قلبك، والسكون دأب سرك، الذكر أولاً باللسان ثم يتعدى إلى القلب.

وأما الآخرة فوقفت عندها ساعة نظرت في أمرها فظهر عندي عيبها وهو كونها محدثة مشتركة ورأيت أن الله قد أعد فيها شهوة النفس وما تلذ به الأعين وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

قلت: فأين شهوة القلب؟ فأعرضت عنها إلى مولاها وبارئها وخالقها والمحدث لها. إذا اتقى العبد الله عزَّ وجلَّ جعل له من الجهل علماً، ومن البعد قرباً، ومن الصمت ذكراً، ومن الوحشة أنساً، ومن الظلام نوراً إن قنعتم مني.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

لم ينظر بقلبه إلى أمواله وبنيه ولم يسكنها قلبه بل يرى أنه وُكل فيهما، يصحبهما موافقة لربه فيسلم قلبه من آفات المال والولد. كمثل رجل أُخبر أن الملك يريد أن يزوجه جارية ويريد قتله على يدها قال في نفسه: إن هربت أدركني بجنوده، وإن خالفته أهلكني سلطانه، وإن وافقته أهلكني

بجاريته، ولكن الأولى حسن الأدب وإظهار موافقته مع حذر قلبه، قال: السمع والطاعة، دخل فقبل النكاح والهدية، جاء الزفاف، لبس درع الحذر كحّل عيني قلبه كحل السهر لينظر إلى حركتها وسكونها وعملها، انقلبت فرحته، والحواشي والخدم يظنون أنه مغبوط فيما وصل إليه، جاء النهار ولم تهلكه بسمها: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]. الدنيا هي الزوجة(١).

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني: (١٥٤، ١٧٤، ١٧٩، ٢١٨، ٢٤٤ _ ٢٤٥، ٣٠٢ _ ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣٣٣، ٣٤٣، ٣٥٢).

الموقف السابع والأربعون:
الدعاء

قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وقال أيضاً: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠].

قال رسول الله ﷺ: **«الدعاء مخ العبادة»**(١).

وقد ذمَّ الله تعالى قوماً تركوا الدعاء، فقال: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٧] قيل: لا يمدونها إلينا في السؤال.

وقال سهل بن عبدالله أيضاً: أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال، ودعاء الحال أن يكون صاحبه مضطراً لا بد له مما يدعو لأجله.

واختلف الناس في أيهما أفضل: الدعاء أم السكوت والرضا؟ فمنهم من قال: الدعاء في نفسه عبادة، قال النبي ﷺ: **«الدعاء مخ العبادة»**، فالإتيان بما هو عبادة أولى من تركه، ثم هو حق الحق سبحانه وتعالى، فإن لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق ربه؛ لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية.

ويروى أن يحيى بن سعيد القطان رحمه الله تعالى رأى الحق سبحانه في منامه، فقال: إلهي كم أدعوك ولا تجيبني، فقال: يا يحيى لأني أحب

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رقم (٣٣٦٨).

أن أسمع صوتك. وقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده: إن العبد ليدعو الله تعالى وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ثم يدعوه فيقول الله تعالى لملائكته: أبى عبدي أن يدعو غيري فقد استجبت له»**[1].

يا ودود يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا مبدئ يا معيد، يا فعّال لما يريد، أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، لا إله إلا أنت، يا مغيث أغثني.

ومن آداب الدعاء: حضور القلب، وأن لا يكون ساهياً، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاه»**[2].

ومن شروطه: أن يكون مطعمه حلالاً فقد قال النبي ﷺ لسعد: **«أطب كسبك تستجب دعوتك»**[3].

وقيل: الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنانه لقم الحلال.

وقيل: مرَّ موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرع، فقال موسى عليه السلام: إلهي لو كانت حاجته بيدي قضيتها فأوحى الله تعالى إليه: أنا أرحم به منك، ولكنه يدعوني وله غنم، وقلبه عند غنمه، وإني لا أستجيب لعبد يدعوني وقلبه عند غيري، فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك، فانقطع إلى الله تعالى بقلبه، فقضيت حاجته.

وقيل لجعفر الصادق عليه السلام: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقال: لأنكم تدعون من لا تعرفونه.

وقيل: كان صالح المرّي يقول كثيراً: من أدمن قرع باب يوشك أن

---

(١) أخرجه الحاكم وابن السني عن علي (الكنز ٧٤/٢) برقم (٣١٩٣).
(٢) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة برقم (٣٤٧٤).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣١١/٦ بلفظ: **«يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»**.

يفتح له، فقالت له رابعة: إلى متى تقول هذا؟ متى أغلق هذا الباب حتى يُستفتح؟ فقال صالح: شيخ جهل وامرأة علمت.

وروي عن الليث أنه قال: رأيت عقبة بن نافع ضريراً، ثم رأيته بصيراً فقلت له: بم ردّ عليك بصرك؟ فقال: أتيت في منامي، فقيل: قل يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيفاً لما يشاء، ردّ عليّ بصري، فقلتها، فردّ الله عزّ وجلّ عليّ بصري.

ومن دعاء أحمد بن حنبل مما علمه سفيان الثوري:

يا رب كل شيء، بقدرتك على كل شيء، اغفر لي كل شيء، ولا تسألني عن شيء.

وقيل: تعلق شاب بأستار الكعبة، وقال: إلهي لا شريك لك فيؤتى، ولا وزير لك فيُرشى، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلي فلك الحجة عليّ، فبإثبات حجتك عليّ وانقطاع حجتي لديك إلا غفرت لي، فسمع هاتفاً يقول: الفتى عتيق من النار.

وقيل: فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه، وإلا فالرب عزّ وجلّ يفعل ما يشاء.

وقيل: دعاء العامة بالأقوال، ودعاء الزهاد بالأفعال، ودعاء العارفين بالأحوال.

وقيل: خير الدعاء ما هيجته الأحزان.

وقال بعضهم: إذا سألت الله تعالى حاجة فتسهلت، فسل الله عزّ وجلّ، فلعل ذلك يوم إجابتك[1].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

يضطرك حتى تدعوه. يحب الإلحاح في الدعاء، يسد الأبواب في

(١) الرسالة القشيرية: (٢٦٤ ـ ٢٦٩).

وجهك حتى تقف على بابه، الحق يضيق على عبده ليرده إليه ولا يعلق قلبه بالخلق إذا قربك وابتلاك تنعم ببلائه وإلا شغلك ببلائك.

إبراهيم بن أدهم تحير في دعائه فغمضت عيناه سمع الله عزَّ وجلَّ يقول: يا إبراهيم قل اللهم رضني بقضائك، وصبرني على بلائك، وأوزعني شكر نعمائك، وأسألك تمام نعمتك ودوام عافيتك والثبات على محبتك.

اللهم إنا نعوذ بك من الاتكال على الأسباب والوقوف مع الهوس والأهوية والعادات، نعوذ بك من الشر في سائر الأحوال.

اللهم ردنا إليك، وأوقفنا على بابك، اجعلنا لك وفيك ومعك، أرضنا بخدمتك، اجعل أخذنا وعطاءنا لك، طهر بواطننا عن غيرك، لا ترنا حيث نهيتنا، لا تفقدنا حيث أمرتنا، لا تجعل ظواهرنا في معاصيك وبواطننا في الشرك بك، خذنا من نفوسنا إليك، اجعل كلنا لك أغنياء بك عن غيرك نبهنا من الغفلة عنك، أردنا بطاعتك ومناجاتك، لذذ قلوبنا وأسرارنا بقربك، أحل بيننا وبين معاصيك كما أحلت بين السماء والأرض وقربنا إلى طاعتك كما قربت بين سواد العين وبياضها.

أحل بيننا وبين ما تكره كما أحلت بين يوسف وزليخا في معصيتك[١].

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين».

❀ ❀ ❀

(١) الفتح الرباني: (١٤٣، ٢٠٣، ٣١٣ ـ ٣١٤).

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الموقف الأول: التوحيد	٧
الموقف الثاني: الإخلاص	١٠
الموقف الثالث: الإيمان واليقين	١٥
الموقف الرابع: التقوى	١٨
الموقف الخامس: التوكل على الله	٢٤
الموقف السادس: الخوف من الله	٣٤
الموقف السابع: التسليم لله والانقياد له	٤٧
الموقف الثامن: مراقبة الله	٥١
الموقف التاسع: محبة الله	٥٦
الموقف العاشر: الإقبال على الله	٧٠
الموقف الحادي عشر: الأدب مع الله	٨١
الموقف الثاني عشر: طاعة الله وعبادته	٨٦
الموقف الثالث عشر: الرضا بالقضاء والقدر	٩٤
الموقف الرابع عشر: الصبر والابتلاء	١٠٧
الموقف الخامس عشر: الزهد في الدنيا	١٢٢
الموقف السادس عشر: الحياء	١٤٠
الموقف السابع عشر: الصدق	١٤٧
الموقف الثامن عشر: صدق النية	١٥٢

الموضوع	الصفحة
الموقف التاسع عشر: القناعة	١٥٤
الموقف العشرون: فضل التواضع وذم الكبر والغرور	١٥٩
الموقف الحادي والعشرون: الورع	١٦٨
الموقف الثاني والعشرون: الرجاء	١٧٣
الموقف الثالث والعشرون: الخشوع	١٨٠
الموقف الرابع والعشرون: ذكر الله تعالى	١٨٤
الموقف الخامس والعشرون: القلب: طهارته ومفسداته	١٩٥
الموقف السادس والعشرون: التفكر والتدبر والاعتبار	٢٠٦
الموقف السابع والعشرون: التوبة	٢١٠
الموقف الثامن والعشرون: مراقبة النفس ومحاسبتها	٢٢٣
الموقف التاسع والعشرون: حسن الخلق	٢٣٥
الموقف الثلاثون: الشكر	٢٤٦
الموقف الحادي والثلاثون: العلم	٢٥٣
الموقف الثاني والثلاثون: الكرم والسخاء والإنفاق والإيثار	٢٦١
الموقف الثالث والثلاثون: المجاهدة	٢٦٩
الموقف الرابع والثلاثون: الاستقامة	٢٧٥
الموقف الخامس والثلاثون: العفو وكظم الغيظ	٢٧٨
الموقف السادس والثلاثون: فضل الحلم وذم الغضب	٢٨١
الموقف السابع والثلاثون: الطمأنينة والسكينة والإخبات	٢٨٥
الموقف الثامن والثلاثون: الفراسة	٢٩١
الموقف التاسع والثلاثون: الغيرة	٢٩٥
الموقف الأربعون: حفظ اللسان	٢٩٩
الموقف الحادي والأربعون: الرياء والنفاق	٣٠٥
الموقف الثاني والأربعون: الحقد والحسد	٣١٥
الموقف الثالث والأربعون: المال والغنى والفقر	٣٢٠
الموقف الرابع والأربعون: العزلة والبعد عن الخلق	٣٢٦
الموقف الخامس والأربعون: الاعتصام بالله	٣٢٩

الموضوع	الصفحة
الموقف السادس والأربعون: الموت وتذكر الآخرة	٣٣٢
الموقف السابع والأربعون: الدعاء	٣٤٢
فهرس المحتويات	٣٤٧

طريق المساكين
إلى
مرضاة رب العالمين